

الموسوعة الشامية في تاريخ العرب والصلبيّة

المصادر العربية
مؤرخو القرن التاسع (١)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء الرابع والعشرون

المصادر العربية
مؤرخو القرن التاسع
من كتاب
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان
تصنيف
بدر الدين محمود العيني
[ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١ م]

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

في زيارتي العلمية الأولى لمكتبات استانبول تعرفت الى عدد كبير جداً من مخطوطات تاريخ العرب والاسلام، كان من بينها مخطوطة « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » لبدر الدين العيني ، ورأيت مخطوطة هذا الكتاب، وهي فيما اعتقد بخط المؤلف ، في مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧.

ونقلت من هذا المصدر كثيراً لاسيما مما جاء فيه عن القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، لأن المؤلف أكثر النقل عن عبد الملك الهمداني صاحب عنوان السير.

ولم أصور وقتها شيئاً من هذا الكتاب ، وحاولت فيما بعد فأخفقت وشرع منذ عدة سنوات في نشر اجزاء من هذا الكتاب، في مصر وهنا كتبت الى السفير السوري بالقاهرة ساعياً بوساطته للحصول على مصورة الجزء المتعلق بالحروب الصليبية ، ومن جديد حظيت بالاختفاق لطول الزمن وارتفاع النفقات الهائل.

وجاء الفرغ عند ما توجهت السيدة مريم الدرع، وهي طالبة في قسم التاريخ تحضر للدكتوراه تحت اشرافي ، وتعمل مديرة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق. توجهت الى استانبول لحضور دورة تدريبية فيها، وقد قامت مشكورة - بعد جهود مضية - بتصوير ما يتعلق

بالحروب الصليبية من كتاب العيني اعتمادا على مخطوطة في مكتبة
السليمانية .

وقمت على الفور بنسخ هذه المخطوطة وتحقيقها ، لكن بعد ما
أسقطت منها كل الأخبار والتراجم التي لاعلاقة لها بموضوع الحروب
الصليبية ، والبدر العيني هو: محمود بن أحمد بن موسى، ولد سنة
٧٦٢هـ / ١٣٦١م، ونشأ في عنتاب - دا خل تركيا الآن - وكان أبوه
قاضيها ، ورحل البدر الى حلب وتفقّه فيها ، ثم زار بعد ذلك القدس
وتحول الى القاهرة سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م حيث نزل في المدرسة
الظاهرية ، وعمل خادما بها، وبعدها تقلبت به الاحوال حتى ولي
حسبة القاهرة سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م. وبعد ما عزل من حسبة القاهرة
تولى عدة وظائف تعليمية ودينية ، واشتهر اسمه وبيات من أعيان فقهاء
الأحناف، وأكب على التصنيف ذلك أنه برع في علوم عدة مثل الفقه
واللغة والنحو والصرف والحديث والتاريخ، لقد صنف بالتاريخ عدة
كتب تراجم صغيرة ومتوسطة مثل:

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر

- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي

- سيرة الأشرف برسبائي

- شرح سيرة مغلطاي

وكتب كتباً كبيرة في التاريخ تصدرها كتابه « عقد الجمان في تاريخ
أهل الزمان » وهو كتاب عملاق ، وقد اختصره بكتاب اسمه « تاريخ
البدر في أوصاف أهل العصر » ثم اختصر هذا المختصر. ولا شك أن
عقد الجمان هو أهم مصنفات العيني التاريخية ، أودع فيه النصوص

الكاملة لعدد كبير من المصادر التاريخية المحجوبة عنا، فضلاً عن أنه عاش أحداث العصر المملوكي .

وكتاب عقد الجمان تاريخ حولي عام للاسلام، وكتاب تراجم بالوقت نفسه، وكان خليفة بن خياط [ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م] أول من اعتاد على اثبات أسماء الوفيات في نهاية كل حولية، وطور ابن الجوزي هذا المنهج وأرسى قواعده في كتابه المنتظم ، ومن بعد ابن الجوزي قلده سبطه في مرآة الزمان، وإثر هذا عدد كبير من المؤرخين .

لقد نشر حتى الان خمسة أجزاء من كتاب عقد الجمان، ترتبط موادها جميعاً بالعصر المملوكي ، وهي المرة الاولى التي يتم فيها نشر جزء الحروب الصليبية من هذا الكتاب، وسأعمل في المستقبل - بعونه تعالى - على نشر مقدمات عصر الحروب الصليبية من هذا الكتاب مع أخبار الأحداث التي وقعت منذ وفاة صلاح الدين حتى تحرير عكا من قبل الأشرف خليل بن قلاوون ، على أنني أرى ان كتاب عقد الجمان على ضخامته جدير بالنشر دفعة واحدة ، وحبذا لو يتم هذا بتعاون سوري مصري ، لأن البدر العيني سوري المولد والمنشأ قاهري الدار والوفاة سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م عن عمر يناهز الثالثة والتسعين .

من الله استمد التوفيق والعون وله جل وعلا الحمد والشكر،
والصلاة والسلام على نبي الانسانية محمد بن عبد الله وعلى آله
وصحبه وسلم.

دمشق ١٤ جمادى الأولى ١٤١٦هـ

٨ / ١٠ / ١٩٩٥م

سهيل زكار

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والتسعين بعد الأربعمئة

استهلت هذه السنة: المستظهر بأمر الله، وملوك البلاد والأطراف
على حالهم.

ذكر ابتداء ظهور الفرنج إلى بلاد الاسلام:

والكلام فيه أنواع:

الأول: في ابتداء خروجهم:

كان خروجهم أولاً بالمغرب، فخرجوا إلى بلاد الاسلام واستولوا عليها
وفتحوا من المدن طليطلة وغيرها في سنة ثمان وسبعين وأربعمئة، وملكوا
جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمئة، وتطرقوا إلى أطراف افريقية
فملكوها.

الثاني في مسيرهم إلى بلاد الشام:

لما كان هذه السنة - اعني سنة احدى وتسعين وأربعمئة - خرجوا إلى
بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من
الافرنج لقصد الشام، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا الخليج فيكون
أسهل عليهم من البحر، فلم يمكنهم صاحبها من العبور حتى شرط
عليهم أنهم ان ملكوا انطاكية يعيدونها عليهم، وظن صاحب
القسطنطينية أن الأتراك سيظهرون عليهم لشدة بأسهم، لأنهم ملكوا
البلاد، فأجابوه إلى ذلك، فمكنهم من العبور، فوصلوا إلى بلاد قليج

أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن اسرائيل بن سلجوق، وهي قونية وغيرها، فقاتلوهم وهزموهم وعبروا إلى بلاد ابن ليفون الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى انطاكية.

فلما سمع صاحبها ياغي سيان التركماني حصن البلد، وأخرج النصاري منها، فجاء الفرنج بالعدة والعديد حتى نزلوا عليها وحصروها أشد الحصار، وقاتلوها تسعة أشهر، وقتل من الفريقين جمع كثير، فلما طال مقام الأفرنج عليها، وكان بها شخص مستحفظ بعض الأبراج زراد يعرف بروزبة، فبذلوا له مالا واقطاعاً، وكان البرج يلي الوادي، وهو مبني على شباك حديد يخرج منه في الشتاء ماء المطر، وأنه مكنهم من قلع ذلك الشباك ودخولهم، فصعد جماعة كثيرة في الليل، فلما أصبحوا أشهروا السلاح وهجموا على المسلمين فقتلوا وقتلوا، وأما ياغي سيان فإنه قاتل ثم فتح الباب وهرب ومعه جماعة وتركها لهم، وسار منها كالولهان فنزل على أربعة فراسخ منها، وندم حيث لم يقتل عند أهله وعياله، فوقع مغشياً، فمات في تلك الساعة، وتركه أصحابه بمكانه وتوجهوا.

وفي تاريخ بيبرس: فمن شدة ما لحق ياغي سيان سقط مغشياً عليه فأراد من معه أن يركبه فلم يكن فيه من المسكة ما يثبت على الفرس، فتركوه مرمياً، واجتاز انسان أرمني كان يقطع الخشب بياغي سيان محمد ابن ألب أرسلان التركماني فعرفه وهو على آخر رمق، فقطع رأسه وحمله إلى الأفرنج بانطاكية.

وكان دخول الأفرنج أنطاكية في جمادى الأولى من هذه السنة، ووضعوا السيوف في المسلمين الذين بها ونهبوا أموالهم.

الثالث في مكاتبة الأفرنج إلى المسلمين وتوجه المسلمين إليهم على أنطاكية:

ثم ان الافرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق يقولون: اننا لانقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، مكرراً منهم وخديعة، فلما بلغ ذلك كربوغاً صاحب الموصل جمع العساكر وسار إلى مرج دابق، وهو مرج واسع بالقرب من حلب من ناحية الشمال، واجتمعت إليه عساكر الشام وهم: رضوان بن تش صاحب حلب، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وهو زوج أم الملك رضوان، فإنه كان قد فارق رضوان من حلب، وسار إلى حمص فملكها، وأرسلان صاحب سنجار، وسليمان ابن أرتق صاحب سروج وغيرها، وغيرهم من الأمراء والتركمان، وساروا إلى أنطاكية فحاصروها بالجميع حتى انحصر الأفرنج بها، وعظم خوفهم حتى طلبوا من كربوغاً ان يطلقهم فامتنع، ثم ان كربوغاً اساء السيرة مع الامراء وتكبر عليهم، فخبثت نياتهم عليه، وكان في أنطاكية بردويل وصنجيل، وكندهري، والقمص صاحب الرها، وييمند صاحب أنطاكية.

ولما ضاق عليهم الامر وقلت الاقوات اجتمعوا وخرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين، وكان الامراء الذين مع كربوغاً قالوا له: الصواب ان نحمل عليهم ونقاتلهم اولاً بأول، فقال لهم: بل تركهم إلى ان يخرجوا جميعاً ونحمل عليهم، فلما تكامل خروج الافرنج ضربوا مصافاً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغاً اولاً من الاهانة والاعراض عنهم، وثانياً بانه لم يسمع من رأيهم، وثم الهزيمة عليهم لاضربا بالسيف ولاطعنا بالرمح، وقتل الفرنج من المسلمين الوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأموال والاقوات والدواب والمسلحة، فصلحت بها حالهم، وعادت إليهم قوتهم.

وفي تاريخ المؤيد [صاحب حماة] فقتلوا من المسلمين ما يزيد على مائة ألف انسان، وسبوا السبي الكثير.

وفي تاريخ العظيمي: لما اجتمع كربوغا مع الامراء المذكورين وجمعوا عساكر عظيمة مقدار اربعمئة ألف انسان، ساروا فوجدوا ان انطاكية قد فتحت سلمها اليهم فيروز الارمني، وكان من جملة المتحفظين على الأبراج، وسمع بانكسار المسلمين يوم الثلاثاء السادس عشر من رجب من هذه السنة، وكان قد ملك انطاكية من الافرنج بيمنند، وكان قد صنع مناماً، ودفن سنانا في بعض الكنائس، وقال للافرنج: رأيت المسيح في هذه الليلة يقول لي: اخرج فانك تكسر المسلمين، فقلت: ما يصدقني الافرنج، فقال: خذ السنان في الموضع الفلاني وركبه في قنطاريتك ولاقهم بها تكسرهم، فبادر الافرنج إلى ذلك الموضع واستخرجوا السنان منه وخرجوا إلى المسلمين وكسروهم.

الرابع في توجه الفرنج الى معرة النعمان وحمص:

ثم لما فرغوا من امر المسلمين في ارض انطاكية توجهوا إلى المعرة فنازلوها وحاصروها، واخذوا عليهم النقب ووضعوا السلايم والأبراج الخشب، فصعدوا عليها فملكوها ووضعوا في المسلمين السيف ثلاثة أيام، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا وفتكوا، وأقاموا أربعين يوماً، ثم رحلوا إلى حمص فصالحهم جناح الدولة حسين على مال، ثم ساروا إلى عرقة فحاصروها أربعة أشهر، فصالحهم صاحب شيزر ابن منقذ على مال ثم على طريق النواقر إلى عكا، فلم يقدرها عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: قتل الافرنج في معرة النعمان وبلادها ما يزيد على مائة ألف انسان وسبوا سبياً كثيراً، ولما بلغ هذه الحال السلطان بركياروق، شق ذلك عليه وكتب إلى الامراء ببغداد ان يتجهزوا صحبة الامير ابن جهير لقتال الافرنج، فبرز بعض الجيش إلى ظاهر البلد

بالجانب الغربي، ثم انفسخت هذه العزيمة لانه بلغهم ان الافرنج في
الف الف مقاتل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخامس في توجه الفرنج إلى القدس:

ذكر بيبرس في تاريخه ان في هذه السنة حاصر الافرنج البيت المقدس
وكانوا قد ملكوا الرملة قبل.

وذكر المؤيد وابن كثير في تاريخيهما حصر الافرنج القدس في السنة
الثانية والتسعين بعد الأربعمئة، وأنهم ملكوه يوم الجمعة ضحى، لسبع
بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين، وهم كانوا في ألف ألف.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي سنة احدى وأربعمئة حاصر الافرنج
البيت المقدس، وكانوا أخذوا الرملة، فلما علم الوزير الأفضل خرج
بعساكره من مصر، فلما علم الفرنج بخروجه جدوا في الحصار، فملكوها
قبل وصوله، وهدموا المساجد وقبر ابراهيم الخليل عليه السلام، وأحرقوا
المصاحف وأخذوا من الصخرة من الآلات والقناديل الذهب والفضة
وغيرها مالا يحصى، فوصل الأفضل إلى عسقلان وسير رسله إليهم
يؤنبهم بما فعلوه، فساروا إلى عسقلان وهجموا على عسكر الأفضل
فهزموهم، فدخل الأفضل وبعض العساكر عسقلان، ووقع القتل في
المسلمين والنهب في أثقالهم، وانهمز الأفضل إلى مصر في البحر وذلك في
شعبان من سنة احدى وتسعين وأربعمئة.

وقال العظيمي في تاريخه: فتح الافرنج معرة النعمان في المحرم من سنة
اثنتين وتسعين وأربعمئة، ثم تحولوا إلى كفر طاب، ثم إلى حماة فلم
يقدروا عليها، ثم تحولوا إلى القدس ففتحوها من أيدي المصريين، وملك
القدس الملك الذي اسمه الكندفري — عليه اللعنة — وأحرقوا كنيسة

اليهود، ونزلت عساكر مصر مع الأفضل وزير مصر فكسروهم الأفرنج على عسقلان.

وفي تاريخ المؤيد: وكان تاج الدولة تُشّس قد اقطع بيت المقدس ة للأمير أرتق، فلما توفي صارت القدس لولديه ايلغازي وسقمان ابني ارتق حتى خرج عسكر خليفة مصر فاستولى على القدس بالامان في شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وسار سقمان واخوه ايلغازي من القدس، فأقام سقمان ببلد الرها، وسار ايلغازي إلى الفرات، وبقيت القدس في ايدي المصريين إلى الآن فقصدها الأفرنج وحصروها نيفاً وأربعين يوماً وملكوها يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان من سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، ولبت الأفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس اسبوعاً.

السادس فيما فعله الأفرنج في القدس الشريف:

قال ابن الجوزي: وقد اخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة، كل قنديل منها ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وتنورا من فضة زنته أربعون رطل بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب، وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين من الأفرنج إلى الخليفة والسلطان، ومنهم القاضي بدمشق أبو سعيد الهروي، فلما سمع الناس ببغداد بذلك الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعيد الهروي كلاماً قرىء على المنابر فجهر الناس بالبكاء، وقد ترك الخليفة الفقهاء إلى الخروج ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس، فلم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي تاريخ بيارس: وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ورد المنهزمون من الشام في شهر رمضان إلى بغداد وصحبهم القاضي أبو سعيد الهروي لائذين بحرم الخلافة من الأفرنج شاكين ما فعلوه بالقدس الشريف

وما حوله، فأورد في ديوان الخلافة كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا مآثرهم المسلمين بذلك البلد الشريف العظيم من قتل الرجال وسبي الحرير والاولاد، ونهب الاموال، ولشدة ما أصابهم افطروا، فأمر الخليفة ان يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفاء ابن عقيل، فاعتذر القاضي بكبر سنه، والزنجاني بمرضه، وتمنع الشاشي، وسار أبو الوفاء ابن عقيل، وأبو سعيد الحلواني، وأبو الحسين ابن السماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلاطاسي، فعادوا من غير بلوغ أرب، وأخلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال المظفر الايوردي في هذا المعنى أبياتاً:

مزجنا دماً بالدموع السواجم
فلم نبق الا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بنبي الاسلام ان وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكم نومة في ظل امن وغبطة
وعيش كنوار الجميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقلهم
ظهور المذاكي او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وانتم
تجرون ذيل الخفض فعل القوادم
وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة
يظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغيب عن غمارها
ويسلم يقرع بعدها سن نادم

- ١١٠١٣ -

سللن بأيدي المشركين قواضبا
ستغمد منهم في الكلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيية
ينادي بأعلى الصوت يال هاشم
ارى امتي لا يشرعون الى العدا
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى
ولا يحسبون العار ضريبة لازم
أيرضى صناديد الاعارب بالاذى
وتغضي على ذل كفاة الاعاجم
فليتهم اذ لم يذودوا حمية
عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا في الاجر اذ همى الوغى
فهلا اتوه رغبة في المكارم
لئن اذعنت لك الخياشيم للبرى
فلا عطسوا الا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحمة
اليناب الحاظ النور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية
تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان انتم لم تغضبوا بعد هذه

رمينا الى اعدائنا بالجرائم^(١)

وجرى ذلك كله باشتغال السلطان، بركياروق والاتراك بعضهم
ببعض مع السلطان محمد على ما سنذكره في السنة الآتية ان شاء الله
تعالى....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والتسعين بعد الاربعائة

ذكر ماجرى على يميند الفرنجي من ابن الدانشمند:

وابن الدانشمند هذا اسمه كمشتكين، وانما سمي ابوه بالدانشمند لانه كان معلما للتركمان، والمعلم عندهم اسمه الدانشمند، وكان اسمه فتقلبت الأحوال بابن الدانشمند حتى ملك ملطية وسيواس وغيرهما، وقصده الفرنج مع مقدمهم يميند في خمسة آلاف فلقهم ابن الدانشمند بالقرب من ملطية، وقاتل معه قتالاً شديداً، فهزمه وظفر المسلمون بالفرنج، وأسر يميند، فاجتمع الفرنج وارادوا الخليصة ولم يقدرُوا.

وفي تاريخ ابن كثير: وفي هذه السنة اقبل ملك الافرنج في ثلاثمائة الف مقاتل، فالتقى كمشتكين المعروف بالدانشمند.

قال ابن كثير: واظنه اتابك الجيوش بدمشق الذي يقال له امين الدولة، واقف الامينية التي بدمشق وبصرى، لا التي ببلبك، فهزم الافرنج وقتل منهم خلقاً بحيث لم ينج منهم إلا ثلاثة آلاف واكثرهم جرحى، وذلك في ذي القعدة، ولحقهم إلى ملطية فملكها واسر ملكها.

قلت: الظاهر بل الصحيح ان هذه القضية مع الفرنج غير القضية التي ذكرناها، وان كمشتكين الذي ذكره ابن كثير ان هو ذاك الذي ذكرناه آنفاً، فليس يقال له ابن الدانشمند، فافهم.

وفي تاريخ بيبرس: ثم ان الأفرنج بعد انكسارهم من ابن الدانشمند ساروا الى قلعة تسمى انكوريا^(٢) فاخذوها، وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا الى قلعة اخرى فيها اسماعيل بن الدانشمند وحصروها، فجمع جمعاً كثيراً وقاتلهم وجعلهم كميناً فخرج عليهم الكمين فقتلهم وهزمهم

وكانوا ثلاثة آلاف فلم يفلت منهم سوى ثلاثمائة مجرحين.

ذكر بقية الحوادث

منها: ان جماعة من اهل الشام اتوا مصر هربا من الافرنج والغلاء والوباء، ومات بمصر في هذه السنة خلق كثير.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والتسعين بعد الاربعمئة

ذكر ماجرى من الفرنج:

وفي صفر منها أغار الفرنج من الرها على سرح الرقة وقلعة جعبر، فاستاقوا المواشي، وأسروا من وقع في أيديهم من المسلمين، وكانت جعبر والرقة لسالم بن مالك سلمها إليه السلطان ملكشاه.

وفي المرأة خرجت الأفرنج من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصدوا حران، والآخر الرقة، ونزل سقمان بن أرتق من ماردين، وكان سالم بن بدران العقيلي في بني عقيل نازلا على عين العروس فالتقوه واقتتلوا قتالا شديدا، واسر سالم بن بدران، وكانت الدائرة على الأفرنج، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها غزا سقمان وجكرمش الأفرنج، فلما استطال الأفرنج بها ملكوا من البلاد التي هي للمسلمين باشتغال عساكر الاسلام وملوكهم بقتال بعضهم بعضا، وكانت حران لقراجا، أحد مماليك ملكشاه، فاستخلف عليها محمد الأصفهاني، فعصى عليه، وقعد في بعض الأيام في مجالس الشراب فلما سكر قتله مملوك يسمى جاولي من مماليك قراجا، فعند ذلك سار الأفرنج إلى حران وحصروها، فلما

سمع سقمان صاحب مارددين وغيرها وجكرمش اجتمعا وسارا إلى الخابور، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ فاقتتلوا قتالا شديدا، فأظهر أهل الاسلام الانهزام، فتبعهم الفرنج نحو فرسخين، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا، وامتلأت أيدي العسكر من الغنائم، لان سواد الافرنج كان قريبا، وكان معهم يميند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردوا وراء جبل ليأتوا المسلمين من وراء ظهورهم، فلما خرجا رأيا الافرنج منهزمين فانهزموا معهم، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهم كثيرا، وأفلتا في ستة من الفرسان، وكان القمص بردويل صاحب الرها معهم فأسر وجاءوا به إلى الموصل، ففدى نفسه بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين اسيرا، وكانت عدة القتلى من الافرنج والاسرى اثني عشر ألف رجل، ثم رحل جكرمش إلى حران فتسلمها وعدة حصون.

وفي تاريخ ابن كثير: وفيها قصد الأفرنج - لعنهم الله - الشام، فقاتلهم المسلمون فقتلوا خلقا كثيرا.

وفي تاريخ النويري: وفيها سار صنجيل - وقد وصله مدد الفرنج من البحر - إلى طرابلس فحاصرها وتسلمها بالأمان، ثم سار إلى عكا ووصل إليه جمع من القدس فحاصروها، وكان الوالي فيها من جهة خليفة مصر زهر الدنيا نبا، وجرى بينهم قتال عظيم، وآخر الامر ان الافرنج ملكوها بالسيف وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة، وهرب نبا إلى الشام ثم إلى مصر، ثم إن الافرنج قصدوا حران، فاتفق جكرمش وسقمان بن أرتق والتقيا مع الافرنج على نهر البليخ، فذكره إلى آخر ما ذكره الآن.

وفي المرأة: وفيها نزل بغدوين وقيل بردويل صاحب القدس على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركبا فحاصروها من جميع الجهات،

وقاتل أهلها حتى ضعفوا عن القتال، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي، فعجز عنهم وطلب الأمان له وللمسلمين الذين بها، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان وقيل في شعبان، وجاء زهر الدولة منهزماً إلى دمشق، فأحسن إليه اتابك طغتكين، ثم مضى إلى مصر.

وفي المرأة أيضاً: وفيها في رجب وردت مراكب الافرنج اللاذقية مشحونة بالمقاتلة في البحار، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل، وأقاموا أياماً ورحلوا إلى جبيل، فأمنوا أهلها ودخلوها، ثم غدروا بأهلها فقتلوهم، وكان صنجيل صاحب أنطاكية^(٣) قد بنى على طرابلس حصناً ليأخذ به طرابلس وشحنه بالرجال والأموال والسلاح، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة وهجم الحصن على غره فقتل من فيه ونهبه وأخذ منه المال والسلاح، والمتاع وكل شيء فيه، وهدمه وعاد إلى طرابلس سالماً غانماً.

ذكر بقية الحوادث:

منها ان بلك بن بهرام بن أرتق، وهو ابن أخي ايلغازي شحنة بغداد استولى على مدينة عانة الحديثة، وكان له مدينة سروج، فأخذها الفرنج منه، فسار عنها إلى عانة وأخذها من بني يعيش بن عيسى، فقصد بنو يعيش صدقة بن مزيد فاسترجعها منه في المحرم، وسلمها إلى أصحابها...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

شمس الملوك أبو نصر دقاق بن تاج الدولة تثن بن السلطان ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب دمشق، توفي في ثامن عشر شهر رمضان من هذه السنة ودفن بمسجد

قبة الطواسين بظاهر دمشق الذي على ظهر بردى، وكان قد حصل له مرض تطاول به وقيل إن أمه سمته في عنقود عنب فلما توفي قام بالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج بأمه في حياة أبيه، زوجه أياها، وهو عتيق تتش المذكور.

وقال النويري: لما توفي الملك دقاق صاحب دمشق خطب طغتكين الأتابك بدمشق لابن دُقاق وكان طفلا عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة، ثم قطع خطبة بكتاش وأعاد خطبة الطفل، واستقر طغتكين في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة - والله أعلم - وأحسن مع الناس السيرة، وبث فيهم العدل.

وفي المرأة: وفي هذه السنة عرض لدقاق صاحب دمشق مرض تطاول به، ووقع معه تخليط في الغذاء فأوجب انتقاله إلى علة الدق، فهازال به حتى أشفى، فلما وقع اليأس عن برؤه وانقطع الرجاء من عافيته تقدمت إليه والدته الخاتون صفوة الملوك بأن يوصي بها في نفسه ولا يترك أمر الدولة وولديه سدى، فنص على أتابك طغتكين والحضانة لولده الصغير تتش بن دقاق حتى يكبر، ويتولى طغتكين أمور دمشق، وأعمال دقاق، وتوفي في اليوم الثالث والعشرين من رمضان ودفن على الشرف الشمالي بدمشق بالخانكاه التي يقال لها قبة الطوايس، وبعد قليل توفي تتش بن دقاق الذي أوصى بالملك إليه، ودُقاق بضم الدال المهملة وبالقافين بينهما ألف.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والتسعين بعد الأربعمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، ومات فيها السلطان
بركياروق، والأمير اياز، والأمير سقمان، وصنجيل ملك الأفرنج،
فلنذكرهم واحدا واحدا.

الأمير سقمان بن أرتق مات في هذه السنة، وسبب ذلك ان فخر
الدولة ابن عمار صاحب طرابلس كان قد كاتب سقمان يستدعيه الى
نصرته على الأفرنج، وبذل له المعونة بالمال والرجال، فبينما هو يتجهز
للمسير إذا أتاه كتاب الاتابك طغتكين صاحب دمشق يخبر أنه مريض
قد أشفى على الموت، وأنه يخاف وليس بدمشق من يحميها من الأفرنج،
ويستدعيه ليوصي اليه بما يعتمده في حفظ البلاد، فلما سمع ذلك أسرع
في السير عازما على أخذ دمشق، فلما وصل القريتين مات بالخوانيق،
وحمله أصحابه وعادوا به إلى حصن كيفا.

وفي تاريخ المؤيد: وفي هذه السنة توفي سقمان بن [ارتق بن] أكسب -
بالباء الموحدة - وقيل اكسك - بالكافين - وهو الأصح، وكانت وفاته
في القريتين في صفر من هذه السنة، وقام ابنه ابراهيم موضعه، وحمل
سقمان في تابوت إلى حصن كيفا فدفن به، ولما مات سقمان كان مالكا
لحصن كيفا وماردين.

أما ملكه ل حصن كيفا فقد ذكرناه من تسليم موسى التركماني صاحب
الموصل لما استنجد به على جكرمش، وأما ملكه لماردين فهو أنه كان
السلطان بركياروق وهبها هي وأعمالها لانسان مغن، ووقع حرب بين
كربوغا صاحب الموصل وبين سقمان، وكان مع سقمان ابن أخيه ياقوتي
وعهاد الدين زنكي بن آق سنقر، وهو إذ ذاك صبي، فانهزم سقمان وأخذ

ابن أخيه ياقوتي أسيراً، فحبسه كربوفا في قلعة ماردين، وبقي مدة، فمضت زوجته أرتق الى كربوفا وسألته في اطلاق ابن ابنها ياقوتي، فأجابها كربوفا إلى ذلك، وأطلقه، فأعجبت ياقوتي ماردين، وأرسل يقول لصاحبها المغني: إن أذنت لي سكنت في ربض قلعتك وجيت إليها الكسوبات وحميتها من المفسدين، ويحصل لك بذلك النفع فأذن له المغني بالمقام في الربض، فأقام ياقوتي بما ردين وجعل يغير من باب أخلاط إلى بغداد، ويستصحب معه حفاظ قلعة ماردين ويحسن إليهم ويؤثرهم على نفسه، فإطمأنوا إليه وسار مرة ومعه أكثرهم فقبضهم وقيدهم وأتى الى باب قلعة ماردين ونادى من بها من أهليهم وقال: إن فتحتم الباب وسلمتم الى القلعة وإلا ضربت أعناقهم جميعهم، فامتنعوا فأحضر واحدا منهم وضرب عنقه ففتحوا الباب له، وتسلم ياقوتي القلعة وأقام بها، ثم جمع ياقوتي جمعا وقصد نصبيين ولحقه مرض حتى عجز عن لبس السلاح وركوب الخيل، وحمل الى فرسه وركبه، فأصابه سهم فسقط ياقوتي منه ومات، ثم ملك ماردين بعده اخوه علي وصار في طاعة جكرمش صاحب الموصل، واستخلف على ماردين بعض أصحابه، وكان اسمه عليا ايضا، فأرسل علي يقول لسقمان: إن ابن أخيك يريد ان يسلم ماردين الى جكرمش فسار سقمان بنفسه وتسلم ماردين، فطالبه ابن اخوه علي باعادتها اليه فلم يفعل سقمان ذلك، واعطاه جبل جور عوضها، واستقرت ماردين وحصن كيفا لسقمان حتى سار إلى دمشق ومات بالقريتين، فصارت ماردين لأخيه ايلغازي بن ارتق، واستقرت لولده - قال المؤيد - إلى يومنا هذا، وهو سنة خمس عشرة وسبعمئة.

صنجيل ملك الأفرنج: هلك في هذه السنة، وكان صاحب أنطاكية، وكان قد صالح ابن عمار صاحب طرابلس وهادنه علي ان يكرن لصنجيل ظاهر طرابلس، ولا يقطع الميرة والمسافرين عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: هلك صنجيل في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقال: وفي هذه السنة - أعني سنة تسع وتسعين - هلك صنجيل عليه اللعنة في مدينة جبلة، وذلك انه ملكها في هذه السنة - أعني سنة تسع وتسعين - ثم سار وأقام على طرابلس محصرها، وبني بالقرب منها حصنا وبني تحته ريبضاً، وهو المعروف بحصن صنجيل، فخرج الملك إسماعيل بن عمار، صاحب طرابلس، فاحرق الريبض، ووقف صنجيل على سقوفه المحترقة فانخسفت به، فمرض من ذلك عشرة ايام، وهلك وحمل الى القدس ودفن فيها، وقام بالحصار بعده ابنه، ودام الحرب بين أهل طرابلس والأفرنج خمس سنين، وظهر من صاحبها ابن عمار صبر جميل، وقلت الأقوات بها، وافتقرت الأغنياء.

وذكر بيبرس في تاريخه هلاكه في السنة الآتية وقال: لما احرق ابن عمار ريبض الحصن الذي بناه صنجيل عامه ذلك، فمرض ومات. وأمر ملك الروم أصحابه الذين باللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الذين يحاصرون طرابلس، فخرج إليهم اسطول طرابلس فجرى بينهم قتال شديد، فأخذوا الميرة والمراكب فتقووا بها إلى ان ملك السلطان محمد البلاد.

ذكر بقية الحوادث:

منها انه كانت حروب كثيرة بين عساكر مصر والأفرنج فقتلوا منهم خلقا كثيرا.

وفي تاريخ بيبرس: وسبب ذلك ان الافضل وزير مصر، كان قد سير ولده شرف المعالي في السنة الماضية إلى الساحل، فقهر الافرنج وأخذ الرملة، ثم اختلف المصريون والعرب وادعى كل واحد منهما ان الفتاح له، فأتاهم سرية من الافرنج فتقاعد كل فريق منهما عن الآخر، وكاد الافرنج ان يظهروا عليهم، فرحل شرف المعالي إلى والده بمصر، ثم سير

ولده سناء الملك حسين في جماعة من الأمراء، منهم: جمال الملك نائب عسقلان، وأرسلوا إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجدونه، فأرسل إليهم أصبهيد صبارو ومعه ألف وثلاثمائة فارس، وكان المصريون خمسة آلاف فارس، فقصدتهم بردويل صاحب القدس وعكا ويافا في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، فوقع المصاف بينهم بعسقلان ويافا، فلم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان، ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك صاحب عسقلان، فعند ذلك وضعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان وعاد أصبهيد صبارو إلى دمشق، وكان مع الأفرنج من المسلمين بكتاش بن تتش، وكان طغتكين قد عدل عنه بالملك إلى ولد أخيه دقاق وهو طفل، فدعاه ذلك إلى قصد الفرنج والركوب معهم.

ومنها: أنه كانت وقعة بين تنكري صاحب أنطاكية وبين الملك رضوان صاحب حلب، وسببها أن تنكري حاصر حصن أرتاح وبه نائبه، فأرسل إلى الملك رضوان يعلمه ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الرجال والخيلة تقدير عشرة آلاف، فلما قرب من الأفرنج ورأى تنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد أن يجيب فمنعه أصبهيد صبارو وكان قد قصده وسار معه بعد قتل إياز، فامتنع من الصلح، واصطفوا للحرب، فانهزمت الأفرنج من غير قتال، واشتغل المسلمون بالنهب فعاد الأفرنج فحملوا على المسلمين، فلم يشوا وانهزموا، وقتل من المسلمين خلق كثير مقدار عشرة آلاف نفس، وفتح المسلمون الحصن وأخلوه وتوجهوا إلى حلب فملكه الأفرنج، وهرب أصبهيد إلى طغتكين أتابك دمشق فصار في خدمته.

ومنها أنه كان استيلاء الأفرنج على عكا، وذلك أن بردويل ملك الأفرنج سار بجموعه إلى ثغر عكا ومعه الجنويون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها برا وبحرا وحاصروها وملكوها بالسيف، وكان

متوليها حيثئذ زهرة الدولة الجيوشي من جهة صاحب مصر، فخرج منها هاربا إلى دمشق.

ومنها أنه جرت وقعة بين طغتكين الأتابك وبين الفرنج، فكسر طغتكين الأفرنج على بعلبك وفتح رفيه وهدم أبرجتها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والتسعين بعد الأربعمائة

ذكر ما جرى بين المسلمين والأفرنج من الحروب والوقائع:

منها انه كانت الحرب بين طغتكين متولي دمشق وبين الفرنج ، فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، ففي آخر الأمر بنى بردويل حصنا بينه وبين دمشق فخاف طغتكين من عاقبة ذلك، فجمع عسكره وخرج ليقاتلهم ويقدم إليهم، فاقتلوا قتالا شديدا وفيهم ملكهم القمص، فكانت الهزيمة على الأفرنج، فتبعهم طغتكين بالقتل والأسر إلى أن دخلوا الحصن الذي لهم، فحاصره طغتكين وأخذه بالسيف، وقتل كل من كان فيه، واستبقى من الفرسان مائتي فارس في الأسر، وعاد طغتكين إلى دمشق مؤيدا منصورا، فزين البلد سبعة أيام.

ومنها ان الفرنج ملكوا في هذه السنة حصن أفامية من بلاد الشام، وسبب ذلك أن خلف بن ملاعب الكلابي، كان قد تغلب على حمص، وكان الضرر به عظيما، ورجاله كانوا يقطعون الطريق فكثرت الحرامية عنده فأخذها منه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنها، وتقلبت به الأحوال إلى أن دخل مصر فلم يلتفت إليه من بها، فإن المتولي بأفامية من جهة الملك

رضوان أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، فاستدعى من يسلم إليه الحصن منهم، وهو من أمنع الحصون، فطلب ابن ملاعب أن يكون هو المقيم به، وقال: إني راغب في قتال الأفرنج ومؤثر للجهاد، فسلموه إليه واخذوا رهائنه، فلما ملك خلع طاعتهم، وأرسلوا إليه يتهددونه بما فعل بولده الذي عندهم، فأجاب الجواب.. إني لا أنزل من مكاني وأبعثوا إلي بعض أعضاء ولدي حتى آكله حتى أيسوا من رجوعه إلى الطاعة، وأقام بأفامية يقطع الطريق، ويخيف السبيل، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله، ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب، وأهلها يتغالون في التشيع، فلما ملكها الأفرنج تفرق أهلها وتوجه القاضي إلى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه واحبه ووثق به، فأعمل الحيلة إليه، وكتب إلى أبي طاهر المعروف بالصائغ، وهو من أعيان الملك رضوان، ووجهه الباطنية ودعاتهم بالفتك بابن ملاعب وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان، فأتى أولاد ابن ملاعب إليه، وكانوا قد تسللوا من مصر وقالوا له: قد بلغنا عن القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر، وأحضره ابن ملاعب فأتاه وفي يده المصحف لأنه رأى امارات الشر فقال: أيها الأمير قد علم كل أحد أني جئتكم خائفا فأمنتني وأعتنتي فصرت ذا مال وجاه، فإن كان أحد ممن يحسدني منزلتي عندك وماغمرتني به من نعمتك سعى بي إليك، فأسألك أن تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت، فحلفه على الوفاء له والنصح وخلي سبيله، وأعاد القاضي مكاتبته إلى أبي طاهر الصائغ وأشار عليه أن يوقف ثلاثمائة رجل من أهل سرمين وينفذ معهم خيلا من خيول الأفرنج من رؤسائهم، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة، ويشكون من معاملة رضوان وأصحابه وأنهم فارقوه، فلقيتهم طائفة من الأفرنج فظفروا بهم، وكانوا قد اتفقوا على أنهم يحملون جميع ما معهم إليه، فإذا أذن لهم في المقام اتفقت آراءهم على أعمال الحيلة ففعل الصائغ ذلك، ووصل القوم إلى أفامية وقدموا إلى ابن

ملاعب مامعهم من الخيل فقبل ذلك منهم، وأمرهم بالمقام عنده وأنزلهم في ربض أفامية، فلما كان في بعض الليالي نام الحرس بالقلعة فقام القاضي ومن بالقلعة من أهل سمرين ودلوا الحبال وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم وقصدوا ابن ملاعب وبني عمه ليقتلوهم، وأتى القاضي ومعه جماعة إلى ابن ملاعب فأحس به، فقال: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت جئت لأقبض روحك وقتل أصحابه، وهرب ابنه فلحقا بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

ولما سمع الصائغ خبر أفامية سار إليها وهو لا يشك أنهاله، فقال له القاضي: إن وافقتني وأقمت معي فعلى الرحب ونحن نحكمك وإلا فارجع من حيث جئت، فأيس منه، وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين غضبان فهرب إلى الأفرنج واستدعاهم إلى أفامية، وقال لهم: ليس فيها قوت غير شهر واحد، فأقاموا عليها يحاصرونها، فجاء أهلها فملكها الأفرنج وقتلوا القاضي المتغلب عليها والصائغ، وكان هذا هو الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام...

فصل فيما وقع من حوادث في السنة الثانية بعد الخمسة

ذكر ما فعله الأفرنج لعنهم الله:

منها ان طنكريد فتح حصن بانياس وسلمه إلى المازوير.

ومن هنا ان الأفرنج اخذوا طرابلس في هذه السنة، وقيل في السنة الآتية؛ اجتمع عليها ملكهم بيمند بن صنجيل في ستين مركبا في البحر مشحونة بالمقاتلة، وطنكريد صاحب أنطاكية، وبغدوين صاحب القدس وشرعوا في قتالها وضايقوها من أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة، وايقنوا بالهلاك مع تأخر الاسطول عنهم من مصر، وكان كلما سار

الاسطول نحوهم دفعته الريح إلى جهة مصر، فلما كان في يوم الاثنين هجمها الا فرنج ونهبوها، واسروا رجالها وسبوا نساءها، وساروا الى جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، فتسلموها بالامان في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وخرج منها ابن عمار سالما، ووصل حينئذ الاسطول المصري، وجاء ابن عمار الى شيزر، فأكرمه صاحبها علي بن منقذ واحترمه وعرض عليه المقام عنده فأبى وتوجه الى دمشق فأكرمه طغتكين صاحب دمشق وانزله في داره، وأقطعه الزبداني وأعماله، ووقعت مهادنة بين بغدوين صاحب القدس وبين طغتكين صاحب دمشق على ان يكون السواد وجبل عوف مثالثة: الثلث للفرنج، والثلثين للمسلمين.

ومنها أنه كانت الحرب بين طغتكين صاحب دمشق والأفرنج.

ومنها أن طغتكين سار إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت بردويل صاحب القدس فتحاربا واقتتلا، وكان طغتكين في ألفي فارس وكثير من الرجال، وكان الفرنجي في أربعمئة فارس وألفي راجل، فلما اشتد القتال انهزم المسلمون ونادى طغتكين: يا للمسلمين فشجعهم فعادوا للحرب وكسروا الأفرنج، وأسر ابن أخت الملك وحمل إلى دمشق فعرض عليه طغتكين الا سلام فامتنع وبذل في نفسه مالا ثلاثين ألف دينار، واطلاق خمسمئة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الاسلام، فلما لم يسلم قتله بيده، وأرسل إلى الخليفة والسلطان الأسرى إلى بغداد ثم وقع الصلح بين بغدوين ملك القدس وبين طغتكين على أن توضع الحرب (أوزارها) أربع سنين، وكان ذلك لطف الله بالمسلمين.

ومنها أنه في شعبان انهزم المسلمون من الأفرنج، وسبب ذلك أن حصن عرقة من أعمال طرابلس الشام كان بيد غلام القاضي فخر الملك ابن عمار، فعصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الأفرنج في نواحيها، فأرسل إلى طغتكين ليرسل إليه من يتسلم

الحصن: فقد عجزت عن حفظه لئلا يأخذه الأفرنج والمسلمون أحق به، فسار إليها فاجتمع الفرنج الذين كانوا يحاصرون طرابلس وغيرها وكسروا طغتكين، وانهزم المسلمون إلى حمص، فغنم الأفرنج أثقالهم ودوابهم، ثم حصروا عرقة، فطلب من بها الأمان فأمنهم الأفرنج، وكان في الأسر مقدم يسمى اسرائيل، فقالوا له: لانخليك تروح حتى يسير إلينا طغتكين فلانا الأفرنجي بذلك، ففدى به طغتكين واطلقا جميعا.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها في عيد الفصح للنصارى نزل الأمراء بنو منقذ أصحاب شيزر للتفرج على عيد النصارى، فثار جماعة من الباطنية في حصن شيزر فملكوا قلعتها، وبادر أهل المدينة إلى الباشورة وأصعدهم النساء بالحبال من الطاقات وأدركهم الأمراء بنو منقذ، ووقع بينهم القتال فانخذلت الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد.

ومنها في شوال ملك الأمير سقمان القطبي صاحب خلاط مدينة ميفارقين بالأمان بعد أن حصرها وضيق على أهلها حتى عدمت الأقوات فسلموها بالأمان...:

ومنها أن الأمير مودود استولى على الموصل هو والعسكر الذين أرسلهم السلطان محمد، وأخذوها من أصحاب جاوي سقاوة، وقد ذكرنا استيلاء جاوي عليها في سنة خمسمائة وما جرى بينه وبين جكرمش والملك قليج أرسلان، وكان سبب غضب السلطان على جاوي أنه كان استولى على البلاد ولم يحمل إليه منها شيئاً، ولما وصل السلطان إلى بغداد لقصد سيف الدولة صدقة أرسل إلى جاوي يستدعيه إليه بالعساكر، وتكررت الرسل إليه فلم يحضر وغالط في الانحذار إليه، فلما فرغ السلطان من أمر صدقة وقتله كما تقدم أمر بتجهيز العساكر لقصد

الموصل فتقدم الى الامراء وهم: بنو برسق، وسقمان القطبي، ومودود، وأقسنقر البرسقي، ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي، وأبي الهيجاء صاحب إربل، بالمسير إلى الموصل وأخذها منه فتوجهوا فوجدوا جاولي عاصيا قد شيد سور الموصل وحصنها، وأعد الميزة والأقوات، فنزلوا عليها. في شهر رمضان من هذه السنة وحاصروها وضايقوها، فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين ومقدمهم يعرف بسعد، فأتوا وقت صلاة الجمعة وصعدوا برجاً وقتلوا الجند الذين به، وأغلقوا بابه ونادوا بشعار السلطان محمد، وطلع مائتا فارس من العسكر فرمواهم بالنشاب ونادوا بشعار السلطان، فعند ذلك زحف العسكر من كل مكان على البلد فملكوه ودخله الأمير مودود فنادى بالسكون ورفع النهب وأن يعود الناس إلى دورهم، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام فراسلت الأمير مودود في أن يفرج لها عن طريقها ويتسلم القلعة فأجاب إلى ذلك، فحلف لها وخرجت إلى أخيها برسق بن برسق ومعها أموالها وما استولت عليه، وولي مودود الموصل وما انضاف إليها.

وأما جاولي فإنه لما وصل عسكر السلطان إلى الموصل خرج عنها وأخذ القمص صاحب الرها الذي كان أسره سقمان وسار به إلى نصيبين وهي للأمير إيلغازي بن أرتق، وسأله الاجتماع به واستدعاه إلى معاضدته فلم يجبه إيلغازي إلى ذلك، فرحل عن نصيبين وسار إلى ماردين وقصد دار إيلغازي، ولم يشعر إلا وجاولي معه في القلعة وحده، وقصد أن يتألفه ويستميله، فلما رآه إيلغازي قام وخدمه، ولما رأى جاولي محسنا به الظن نزل معه وعسكر بظاهر البلد، فسار نحو الرحبة وإيلغازي يظهر لجاولي المساعدة ويطن الخلاف وينتظر الفرصة لينصرف عنه، فلما وصلا إلى عريان من الخابور هرب إيلغازي، فسار جاولي إلى الرحبة، فلما وصل ماكسين أطلق القمص الفرنجي واسمه بردويل، وكان صاحب الرها وسروج وكان مقامه في الأسر خمس سنين وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق المسلمين الذين أسرههم وأن

ينصره متى طلبه بنفسه وعسكره، فلما اتفق الحال سير القمص إلى قلعة جعبر فسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك، وأقام جوسلين في قلعة جعبر رهينة عن القمص، فلما أطلقه سار إلى أنطاكية فأعطاه طنكريد صاحب أنطاكية ثلاثين ألف دينار وسلاحاً وخيلاً وغير ذلك، وأطلق القمص من أسارى المسلمين مائة وستين نفراً كلهم من سواد حلب فكساهم وسيرهم، وكان صاحب أنطاكية قد تسلم الرها من أصحاب القمص حين أسروا، فلما وصل طلب ردها من صاحب أنطاكية، فلم يفعل، فخرج من عنده غضبانا إلى تل بشار، ثم إن جاوي من على جوسلين باطلاقه من الأسر لأنه فدى نفسه بهما، فاجتمعا على تل بشار واتفقا على محاربة صاحب أنطاكية، فسار إليهما بعساكره فاقتلوا وعاد طنكريد إلى بلاده من غير فصل حال، فتوسط البترك بينهما وقال له جماعة من البطارقة والقسيسين: إن يميند لما أراد ركوب البحر قال إن تعاد على القمص الرها إذا خلاص من الأسر، فأعادها عليه في تاسع صفر، وعبر الفرات ليسلم إلى أصحاب جاوي المال، وكان بسروج ثلاثمائة مسلم ضعفاء، ولما أطلق جاوي القمص سار إلى الرحبة، فأتاه أبو النجم بدران، وأبو كامل منصور ابنا سيف الدولة صدقة، وكانا بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك بقلعة جعبر فتعاهدوا على المساعدة والمعاضدة، ووعدهما أن يسير معهما إلى الحلة، وعزموا أن يقدموا عليهم بكتاش بن تكش بن ألب أرسلان، فعندما عزموا على هذا الأمر وصل إليهم اصبيهذ صبارو الذي كان قصد السلطان محمداً، واقطعه الرحبة فاجتمع بجاوي وأشار عليه أن يقصد الشام فإن بلاده خالية من الجند، والافرنج قد استولوا على أكثرها، ومتى قصد العراق والسلطان بها لم يأمن من شر يصل إليه، فقبل قوله، وأصعد عن الرحبة، فوصل إليه رسل سالم بن مالك صاحب جعبر يستغيث به من بني نمير، وكانت الرقة بيد ولده علي بن سالم فوثبوا عليه فقتلوه، فبلغ ذلك الملك رضوان صاحب حلب، فسار إلى صفين، فصادف في صفين الذين معهم مال القمص صاحب الرها قد

سيره الى جاولي فاخذه واسر الافرنج، واتى الرقة فصالحه بنو نمير على مال فرحل عنهم الى حلب، فاستنجد عند ذلك سالم بن مالك جاولي، فقصد الرقة وحصرها سبعين يوماً، فضمن له بنو نمير مالا وخيلاً، ورحل عنهم، ثم وصل إليه الأمير أتابك، حسين بن قتلغ تكين يأمره بتسليم البلاد، وطيب قلبه عن السلطان، وضمن له كل جميل إذا سلم البلاد، فقال جاولي: سر إلى الموصل ورحل العسكر عنها، وأنا أرسل معك من يسلم ولدي رهينة وينفذ السلطان من يتولى امرها، ففعل حسين ذلك، وسار ومعه صاحب جاولي، فلما وصل إلى العسكر قبض الأمير مودود على صاحب جاولي، وأقام على الموصل حتى فتحها كما ذكرنا، وعاد حسين إلى السلطان فأحسن القول عن جاولي، فسار جاولي إلى مدينة بالس فملكها، وهي من أعمال حلب، فعند ذلك كتب الملك رضوان إلى طنكريد صاحب أنطاكية يعلمه أنه قاصد حلب وأنه إن ملكها لا يبقى للأفرنج معه مقام بالشام، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه، فأجابه ولحق به وهو بمنبج، فوصل الخبر وهو في هذه الحالة أن الموصل أخذت، واستولى عليها عسكر السلطان، وملكوا خزائنه وأمواله فاشتد ذلك عليه، ففارقه أكثر عسكره، ومنهم أتابك زنكي وبكتاش، وبقي مع جاولي نفر يسير، فلما تقاربوا وتصافوا وكان صاحب أنطاكية في عسكر كثيف من المسلمين والأفرنج، فلما وقعت العين على العين لم يثبت لهم جاولي، فانهزم عسكره منهم، وتوجه نحو بلاده، وقتل من المسلمين خلق كثير، ونهبت الأفرنج دوابهم وأموالهم، وأما جاولي فقصد الرحبة، فلما رأى الحال كذلك علم أنه لا يقدر يقيم في الجزيرة ولا بالشام، ولا يقدر على شيء يحفظ به نفسه ويرجع إليه غير قصد باب السلطان محمد شاه، وكان واثقاً من الأمير حسين بن قتلغ تكين، فرحل وسار إلى عسكر السلطان، وكان بالقرب من أصفهان، فوصل إليه في سبعة عشر يوماً، لأنه جد السير، فلما وصل العسكر قصد الأمير حسينا، فحمله إلى السلطان وكفنه في يده، فأمنه فأتاه الأمراء

يهنونه، وطلب منه السلطان الملك بكتاش بن تكش فسلمه إليه واعتقله بأصفهان...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة بعد الخمسائة

ذكر ماجرى من الافرنج لعنهم الله في هذه السنة:

من ذلك ان الافرنج اخذوا مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال وغنموا الأمتعة والأموال، ثم أخذوا مدينة جبيل.

وفي تاريخ بيارس: وفي سنة ثلاث وخمسمائة ملكت الافرنج طرابلس وبيروت من الشام، وسبب ذلك انهم حاصروها خمس سنين، فلما طال المقام عليها وصاحبها فخر الملك ابن عمار سار إلى السلطان محمد شاه يستنجده، فلما خرج منها سلمها إلى ابن عمه أبي المناقب، فكاتب الأفضل وزير مصر وسلمها إليه كما ذكرنا، وكانت النجدة والميرة تتواصل من مصر والحكم لصاحب مصر وهو نائبه، فلما كان في أول شهر رمضان وصل اسطول كبير، واجتمع عليها ملوك الفرنج، وجاء ييمند بن صنجيل في ستين مركبا وطنكريد صاحب انطاكية وبغدوين صاحب القدس وضايقوها وزحفوا عليها لمساعدة السرداني ابن أخت صنجيل، فلما شاهد ذلك الجند وأهل البلد سقط في أيديهم وذلت نفوسهم لتأخر الاسطول المصري، لتغير الريح اليهم وتعذر الوسول اليهم (ليقضـي الله أمرهم) كان مفعولا [الانفال ٤٢] فشد الافرنج عليهم القتال والزحف فهجموا البلد وملكوها قهرا في يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ونهبوا مافيها واسروا وقتلوا وسبوا النساء والاطفال، ونهبوا

الامتعة والأموال، وسلم الوالي الذي كان فيها وسلم الأموال، وسلم قوم من أهلها وجماعة من جندها كانوا قد التمسوا الأمان، ثم رحلوا الى دمشق، واخذت الافرنج دفائن اهل طرابلس وذخائرهم، وعاقبوا أهلها فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

ولما فرغ الافرنج من طرابلس سار طنكريد صاحب انطاكية الى بلباس وحصرها فافتتحها، ثم نزلوا على جبيل وبها فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس، وكان القوت بها قليلا، فحاصروها وطلب أهلها الأمان فخرجوا منها وملكها الافرنج في الثاني والعشرين من ذي الحجة، ثم سار فخر الملك الى دمشق وانزله طغتكين عنده فأكرمه واقطعه الزبداني من عمل دمشق، وكان ذلك في المحرم من سنة اربع وخمسة.

وفي هذه السنة - أعني سنة ثلاث وخمسة - ملكت الافرنج بيروت، ومقدمهم بغدوين صاحب القدس، ثم ساروا الى صيدا فصالحوهم على ستة آلاف دينار فرحلوا عنها، وسار بغدوين الى القدس.

وفي هذه السنة ايضا سار طنكريد صاحب أنطاكية الى طرطوس واخذها، ثم بعد ذلك قرر على شيزر عشرة آلاف دينار، ثم تسلم حصن الأكراد وعاد الى انطاكية.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت مدة حصار الافرنج سبع سنين، واستولت عليها الافرنج بعد ان فني من فيها من المسلمين من شدة المضايقة والجوع، وكانت مدينة عظيمة مملوءة من المسلمين والعلماء، وملكنا ايضا في هذه السنة حصن عكار، وحصن المنيطرة، وقرروا على حصن مصيات، وحصن الأكراد قطيعة معينة في كل سنة، وفيها ايضا ملكنا الافرنج بيروت بعد حصار شديد.

وفي المرآة: وفي هذه السنة نهضت الأفرنج على رمنية، وعرف أتابك طغتكين فسار بالعسكر وخيم بازائهم بحمص، فلم يقدرُوا على منازلة رمنية، وترددت بينهم مراسلات أفضت إلى تقرير المودعة على أن يكون للأفرنج ثلث مغل البقاع، ويسلم إليهم المنيطرة وحصن عكار، وأن لا يتعرضوا لحصن مصيات وحصن الأكراد وأن يحمل إليهم عنهما مالا، وكذا عن حصن الطوبان، فأقاموا مدة يسيرة، ثم عاد الأفرنج إلى الفساد في البلاد، ونزل بغدوين صاحب القدس وابن صنجيل على بيروت، وسار إليهم جوسلين صاحب تل باشر لمعاونتهم، وجاء الاسطول المصري وفيه الرجال والميرة فدخلوا بيروت فقتلوا نفوس أهلها، وبعث بغدوين إلى الجنوية فجاءوا في أربعين مركباً فزحفوا برا وبحرا فدخلوها قهراً بالسيف فقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا كما فعلوا بطرابلس واستصفوا الأموال والذخائر، ثم رحل بغدوين فنزل على صيدا وراسل أهلها بتسليم البلد فاستمهلوا مدة عینوها فأجابهم واخذ منهم مالا، وعاد إلى القدس بسبب الحج.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير قراجا صاحب حمص توفي في هذه السنة فملكها بعده رجل يقال له خيرخان... وفي تاريخ ابن العميد: لما مات قراجا صاحب حمص ملكها بعده صمصام الدين خيرخان ولد قراجا، والله أعلم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة بعد الخمسة

ذكر ما جرى من الافرنج لعنهم الله:

وقال بيبرس: وفي هذه السنة ملك الافرنج مدينة صيدا من ساحل الشام في ربيع الآخر، وكان ذلك بالأمان، وقال بيبرس: وسبب ذلك انه وصل في البحر الى الشام ستون مركبا للافرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحج الى بيت المقدس، ويغزو بزعمه المسلمين، فاجتمع بهم بغدوين صاحب القدس، وتقررت القاعدة بينهم ان يقصدوا بلاد الاسلام، فرحلا من القدس، ونزلا على مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر، فحاصروها وضايقوها برا وبحرا، وكان الاسطول المصري مقيما على صور، فلم يقدرُوا على انجادهم، فعمل الفرنج برجا من خشب واحكموه وجعلوا عليه مامع من الحجارة والنار، وزحفوا فلما عاين أهل البلد ذلك ضعفت قلوبهم واشفقوا ان يصيبهم ما أصاب أهل بيروت وغيرها، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الافرنج وطلبوا الامان، فامنهم ملكهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذين عندهم، ومن أراد المقام يقيم، ومن أراد المسير عنهم لا يمنعون، وحلف لهم على ذلك، وخرج الوالي وجماعة كبيرة من أعيان البلد في العشرين من جمادى الاولى، فوصلوا دمشق، وأقام بالمدينة خلق كبير تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما، ورحل عنها الى القدس، ثم عاد الى صيدا فقرر عليهم عشرين ألف دينار، وأقرهم في بلدهم.

وفي هذه السنة أيضا سار صاحب أنطاكية مع من اجتمع إليه من الافرنج إلى الأثارب، وهو بالقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم، ثم ملكوها بالسيف، وقتلوا من أهلها ألفي رجل، وأسروا الباقين، ثم

ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى على أهلها ماجرى على أهل الأثارب، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوها وقد أخلاهما أهلها، فعادوا عنهما، وصالح الملك رضوان صاحب حلب الأفرنج على ثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الأفرنج، فبذل لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم، فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار.

وفيها غدر بغدوين صاحب القدس ونزل طبرية، وخرج طغتكين صاحب دمشق فنزل على رأس الماء، ثم استقر الأمر على أن يكون ماكان من البلاد مناصفة.

وفي تاريخ بيارس: لما جرى ماذكرنا من الأفرنج عظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا بأن الفرنج يستولون على سائر الشام لعدم المحامي عنهم، فشرع أهل البلاد الإسلامية من الشام في الهدنة معهم، فاستنع الأفرنج إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة معلومة يسيرة أو إلى الحصاد، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وخيول وثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، فخرجت مركب تجار من مصر، فلما أقلعت خرج عليها مراكب الأفرنج، وأخذوا البضائع وأسروا التجار، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد يستنفرون الناس على الأفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بتجهيز العساكر للجهاد، وأرسل من دار الخليفة منبراً إلى جامع السلطان، فلما كانت الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد، فمنعهم صاحب الباب من الدخول فغلبوا عليه، ودخلوا الجامع

وكسروا الشباك، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة، وأرسل الخليفة إلى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورقعه، فتقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولده الملك مسعود مع الأمير مودود صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا إلى قتال الأفرنج.

وفي المرأة: وفي سنة أربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر إلى الشام لقتال الأفرنج. منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا إلى قتال الأفرنج.

وفي المرأة: وفي سنة أربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر لقتال الأفرنج، منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، والأمير أحمديل صاحب مراغة، والأمير سقمان القطبي صاحب ديار بكر، والأمير ألبى والأمير زنكي ابنا برسق، والأمير ايلغازي صاحب ماردين، فاجتمعوا في حران، وكتب إليهم ابن منقذ صاحب شيزر وعرفهم أن طنكريد صاحب انطاكية قد نزل بأرض شيزر وشرع في بناء تل في مقابل شيزر، ويريد أن يبنيه حصناً، فقطعوا الفرات ونزلوا على تل باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان، فوصل وهو مريض، اختلفت آراؤهم، ومرض سقمان وطمع أحمديل في بلاده، فعادوا عن تل باشر إلى حلب، وعاثوا في البلاد من أعمال حلب، وفعلوا أقبح من فعل الأفرنج، وتوقعوا خروج الملك رضوان صاحب حلب إليهم، أو خدمة يبعثها إليهم، فلم يلتفت وأغلق أبواب حلب، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة، واستعد للقتال، وقد كانوا لما قطعوا الفرات كاتبوا طغتكين صاحب دمشق بالوصول إليهم ليدبروا الأمور، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك، فجمع وحشد رجاله ورجال حمص وحماة ورفنية، وسار في جمع كثيف طلباً للجهاد، فوصل إليهم على حلب، فسروا بوصولهم، وقويت

نفوسهم، فلم يرميهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد، وأما سقمان فعاد الى بلاده ومات في طريقه قبل وصوله في الطريق الى الفرات، وأما البرسقي فكان به نقرس فحمل في محفة ولاقول له ولافعل، وأما أحمديل فإن عزمه قد قوي على العود لأجل بلاد سقمان وطمعه في اقطاعه يأخذه من السلطان.

فقال طغتكين لأتابك: ارحلوا الى المعرة، فرحلوا على كره، فقال: انزلوا على طرابلس، فتوقفوا ثم تسللوا وتفرقوا تفرق أيدي سبأ، ولم يبق منهم سوى شرف الدين مودود، وكان مصافيا لأتابك طغتكين مصافاة صدق، فنزلا على العاصي، وكان الأفرنج قد تفرقوا الى مواضعهم، فلما تفرق المسلمون رجعوا وصاروا يدا واحدة على الاسلام، ونزل ابن منقذ من شيزر الى طغتكين ومودود وخدمهما، وحمل إليهما، وجاء الأفرنج فنزلوا على تل معشر مقابل شيزر لينوا عليه حصنا، ونازلهم طغتكين ومودود، وطمع الترك وتخطفوههم، ومنعوا احدا منهم ان يخرج من خيمته، وقتلوا وأسروا، فلما رأوا أحوالهم ناقصة انكفأوا راجعين الى انطاكية وطرابلس والترك في آثارهم قتلا وأسرا، واستحكمت المودة بين طغتكين ومودود صاحب الموصل.

وذكر بيبرس في تاريخه اجتماع من ذكرناهم من الأمراء أصحاب البلاد وعبورهم من الفرات في سنة خمس وخمسمائة، وقال: لما اجتمعوا ساروا الى بلد شبختان ففتحوا عدة حصون من بلاد الأفرنج وقتلوا من بها منهم، وحصروا مدينة الرها مدة، ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها، وسبب ذلك ان الأفرنج اجتمع فارسهم وراجلهم وساروا ليعبروا الفرات، ويمنعوا الرها من المسلمين، فلما بلغوا الفرات بلغهم كثرة المسلمين فلم يتقدموا، وبلغ المسلمين ذلك، فرحلوا الى حران ليعبر الأفرنج الفرات، فلما عبروا ووصلوا إلى الرها ومعهم الميرة والذخائر، فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن أشرفت على ان تؤخذ، وأخذوا منها كل من عجز

ورجعوا فعبروا الفرات الى الجانب الشامي، وطرقوا بلاد حلب فنهبوا وأفسدوا فيها وأسروا وقتلوا خلقا كثيرا.

وأما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعود الافرنج عن الرها الى الفرات، رجعوا الى الرها وحاصروها، فرأوا سورها محكما، وقد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم، فلم يجدوا فيها مطمعا، ونزلوا على تل باشر، فلم ينالوا منها غرضا، ورحلوا الى حلب، فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ولم يجتمع بهم، ومرض الامير سقمان وتوفي في بالس فحملوه في تابوت إلى بلادهم، فقصدتهم ايلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحملوا تابوته في القلب وقاتلوا فانهزم ايلغازي وغنموا ما معه، وأراد الأمير أحمديل أن يطلب من السلطان ما كان لسقمان، ولما سمع الافرنج تفرق عساكر السلطان وابن منقذ صاحب شيزر، فسار الى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الافرنج وحرصهما على الجهاد، فرحلا الى شيزر، ونزلا عليها بالقرب منهم، وضيقوا على الافرنج الميرة ولزوهم بالقتال، والافرنج يحفظون نفوسهم، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا الى أرامية وتحصنوا فيها، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوهم في ساقاتهم، وعادوا الى شيزر.

وفي هذه السنة ايضا نزل الافرنج مدينة صور، واجتمعت عساكرهم عليها عندما تفرقت العساكر الاسلامية، وساروا اليها مع بغدوين صاحب القدس، ونازلوها وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب، علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل، وألصقوا أحدها بسور البلد، وكانت صور للآمر بأحكام الله صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الاعز، فأحضر أهل البلد وسألهم في حيلة يدفع بها شر الابراج، فقام شيخ من طرابلس وضمن احراقها، فعمد الى ألف رجل فألبسهم السلاح، ودفع الى كل واحد منهم حزمة حطب، فقاتلوا الافرنج حتى وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة، فالقى الحطب من جهاته، والقى فيه

النار، ثم خاف ان يشتغل الفرنج الذين في البرج باطفاء النار ليتخلصوا، فرماهم بجرار مملوءة من العذرة كان أعدها لهم، فلما سقطت عليهم اشتغلوا بئاناهم من بين الروائح، فتمكنت النار منه، فهلك كل من به الا القليل، وأخذ المسلمون منه ماقدروا عليه بالكلايب، ثم أخذ قففا كبارا ملاءها بالخطب المسقي بالنפט والزفت، والزيت والكتان والكبريت، فرماهم بسبعين سلة منها، فأحرق البرجين الآخرين، ثم ان أهل صور حفروا سراديب تحت الارض ليسقط فيها الفرنج اذا زحفوا اليهم، فاستامن الى الافرنج من أهل البلد نفر من المسلمين واعلموهم بما عملوا فحذروا.

وأرسل أهل البلد الى اتابك طغتكين صاحب دمشق يستنجدونه ويطلبون ان يسلموا اليه البلد، فسار في عسكره الى نواحي بانياس، وسير إليهم نجدة مائتي فارس، فدخلوا البلد، فامتنع من فيه بهم واشتد القتال من الافرنج خوفا من النجدات، وفني النفط، وظفروا بشيء منه في شرف من الارض لا يعلم من خزنه.

ثم إن عز الملك صاحب صور أرسل الى طغتكين ليكثر من تجنيد الرجال ويقصدهم ليملك البلد، فأرسل طغتكين طائرا فيه رقعة يعلمه بوصول المال، ويأمره ان يقيم بمكان ذكره ليجيء الرجال إليه، فسقط الطائر على مركب للفرنج، فأخذه رجلاان: مسلم وأفرنجي، فقال المسلم: نرسله لعل ان يكون فيه فرج لهم، فلم يمكنه الافرنجي من ارساله وحمله الى الملك بغدوين، فلما وقف عليه سير مركبا الى المكان الذي ذكره طغتكين، وفيه جماعة من المسلمين الذين استأنوا إليه من صور، فوصل إليهم العسكر وكلموهم بالعربي، فلم ينكروهم، فأخذوهم أسرى، وحملوهم الى الافرنج فقتلوهم وطمعوا في أهلها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن شمس الخلافة نائب عسقلان مات في هذه السنة، وسبب ذلك أن شمس الخلافة كان نائباً بعسقلان من جهة الأمر بأحكام الله، خليفة مصر، وكان الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش رتبة فيها، فلما كان في هذه السنة استولت الافرنج على البلاد اولا فاولا، فخاف منهم النائب شمس الخلافة، فراسل بغدوين صاحب القدس، وأهدى إليه هدايا وهادنه وامتنع من تحكم المصريين عليه الا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك، فوصلت الاخبار الى مصر بذلك فجهز جيشاً وأمره سرا ان يقبض عليه إذا نزل إليه، وأمره ان يقول: إنه تجهز للغزاة ويعلمه الحال، فلما وصل الجيش إليه امتنع من الخروج وجاهر بالعصيان، فلما علم الأفضل امتناعه أرسل إليه يطيب قلبه، وأقره على عمله، فلم يزل على هذه الحال، وأنكر أمره أهل البلد، فوثبوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر، ونهبوا داره، وأرسلوا إلى الأفضل بصورة الحال فشكرهم على ذلك، وأرسل واليا عليهم عوضه، ووصاه بالرفق بهم والاحسان إليهم، فزال ماكانوا يخافونه.

ومنها أنه ورد رسول ملك الروم إلى السلطان محمد يستنفره على الافرنج ويحيشه على قتالهم ودفعهم عن البلاد، وكان وصولهم قبل وصول أهل حلب، وكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تستحي ان يكون ملك الروم اكثر حمية للاسلام منك حتى أرسل إليك في جهاد الافرنج؟ وكانوا يحرضونه بهذا القول ومثله.....

ذكر من توفي فيها من الاعيان

الأمير سقمان.. ويقال له سقمان أيضاً بالكاف موضع القاف - بن أرتق ، صاحب ديار بكر وخلاط، قد ذكرنا أنه مات في بالس عند

- ١١٠٤١ -

رجوعه من بلاد حلب الى بلاده، وكان قد مرض ومات فيها، فحمل
تابوته الى خلاط ودفن بها، وقيل دفن في ميفارقين، وكان ملكا عادلا
مجاهدا خيرا، وقيل مات في ميفارقين ودفن بها، والله أعلم، وكان أبوه
أرتق مات بالقدس.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة بعد الخمسة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب البلاد على حالهم والعساكر السلطانية في بلاد الشام لأجل قتال الأفرنج صحبة الأمير مودود، صاحب الموصل، وجرى لهم مذكرناه في السنة الماضية، وكانوا قد تفرقوا كما ذكرنا.

وكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها، وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق، وهو للفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل من كان فيه، وعاد إلى الأفرنج الذين على صور، وكانت الميرة تقطع عنهم في البر، فاحضروها في البحر، وخذلوا عليهم، ولم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا، وأغار على ظاهرها، وقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركبا على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر، والفرنج يلزمون قتالهم، وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات، فخاف الأفرنج أن يستولي طغتكين على غلات بلادهم، فساروا عن البلد إلى عكا، وعاد عسكر طغتكين إليه، وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها، ثم أصلحوا ما تشعث من سورهم وخذلهم، وكان الأفرنج قد طموه.

وفي المرأة: وفي سنة خمس وخمسة جمع بغدوين وحشد لقصد صور، فكتب إليها وأهلها إلى أتابك طغتكين يستنجدونه ويسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الأفرنج لأنهم أيسوا من نصرة أهل مصر، فبعث إليهم أتابك الفرسان والرجالة وسار إليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فقطع أشجارها وقتلها أياما وعاد خاسرا وخرج طغتكين من دمشق وخيم ببانياس، وجهز الخيالة والرجال إلى صور نجدة، فلم يقدرُوا على الدخول، فسار إلى السواد ونزل على الحبيس

وهو حصن عظيم وحاصره وفتحته عنوة، وقتل من فيه، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور، وزحف إليهم أتابك ليشغلهم عن صور، فخذقوا عليهم وهجم الشتاء، ولم يبال الافرنج لانهم كانوا في ارض رملة والمسلمون في ارض وعرة، وكانت المادة تصل إلى الافرنج من صيدا، فسار إليها أتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية، وغرق المراكب، ومع هذا فإنه يواصل أهل صور المكاتبة ويقوي قلوبهم، وعمل الافرنج برجين عظيمين، وزحفوا بهما إلى السور، وكان طول البرج الكبير زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير نيفاً وأربعين ذراعاً، وزحفوا أول يوم من رمضان، وخرج أهل صور بالنفط والقطران لحريق البرجين، ورموا بها، فنزلت النار، فهبت الريح فأحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير، فأطفأها الافرنج، وأشرف أهل البلد على الهلاك، فتصدر شخص من المسلمين وتحيل في حريق البرج فاحترق وخرج المسلمون، فأخذوا منه من الآلات والأسلحة ما لا توصف (كثرت) فحينئذ وقع يأس للفرنج فرحلوا وأحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعلوفات وغيرها، وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلد ولا وفوا له، فقال: أنا مافعلت مافعلت إلا لله تعالى، لا لرغبة في حصن ولا مال، ومتى دهمكم أجبتكم بنفسي ورجالي، وكان من سعادته أنهم لم يسلموا إليه، لانه كان عاجزاً عن حفظ صور ودمشق، وصور ما كان لهم بد من أخذها، ورحل عنها.

وذكر في المرأة أيضاً ان أهل صور لما كتبوا إلى طغتكين بتسليم البلد إليه من شدة ما قاسوا من الحصار والقتال وعدم نصرة أهل مصر، وكان والي صور عز الملك أنوشتكين الأفضلي، فجاء رسولهم إلى بانياس، وواليها سيف الدين مسعود فأخبره، فسار مسعود معه إلى دمشق، فوجد أتابك قد مضى إلى ناحية حماة ليتفق مع الملك رضوان صاحب حلب، فخاف مسعود ان يتأخر الامر إلى حين عودة أتابك من حماة فيسبق

بغدوين فينزل على صور، فيفوت الغرض، فتحدث مع تاج الملك بوري بالسير معه الى بانياس، وانتهاز الفرصة في تسليم صور، فأجاب، فسار معه الى بانياس، وتم مسعود الى صور ومعه من يعتمد عليه من العسكر، وبلغ أتابك فبعث قطعة من الأتراك إلى تقوية صور، فساروا إليها ودخلوها، وطابت نفوس أهل صور، ثم كتب إلى الأفضل وزير مصر بأن الأفرنج نزلوا على صور، وشارفوا على أخذها، وبعث أهلها الي يستنجدونني، واني أنجدتهم بنفسي، ومالي ورجالي، ومتى وصل إليهم من مصر من يذب عنها سلمتها إليه، فلا تهمل حال الاصطول.

وجاء بغدوين، فبلغه الخبر فتوقف وفات غرضه، ولما فات غرضه شرع في الغارات على حوران والسواد، وكثر فساد، ثم كتب أتابك إلى مودود صاحب الموصل يخبره بالخبر، ويطلب نجده، وكانا قد اتفقا وتصادقا وتحابا محبة عظيمة كما ذكرنا.

فسار مودود بعساكره فقطع الفرات، وخرج إليه أتابك طغتكين، فتلاقيا عند سلمية واتفق رأيهما على قصد بغدوين، وسارا من حمص ومعهما عساكر الشرق وعساكر حمص وحماة ودمشق، وجاءوا على البقاع فنزلوا الغور عند الاقحوانه، وجمع بغدوين ونزل على جسر الصنبرة، فتقدم بعض المتلفة فالتقوا الأفرنج، ونشب القتال، وجاء أتابك وقطع الجسر واقتتلوا، فانهزم الأفرنج وقتل منهم نحو ألفي فرنجي من الفرسان والشجعان والأبطال، وغنموا أثقالهم، وأفلت بغدوين بعدما قبض وأخذ سلاحه، وغرق أكثرهم في البحيرة، وبعث أتابك ومودود إلى السلطان محمد شاه يخبرانه بهذا الفتح العظيم وبعث سلاحهم، ثم أغار المسلمون على الضياع التي بين القدس وعكا، وأخربوا ونهبوا وعادوا إلى دمشق، ونزل مودود في قصر الميدان الأخضر، وبذل أتابك طغتكين جهده في التقدمة، ودخل يوم الجمعة الجامع، وزار المصحف العثماني، ثم ودعه وعاد إلى بلاده.

وذكر بيبرس هذا الذي ذكرناه.

وفي المرأة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين إلى ههنا في سنة ست وخمسمائة... ومنها أن العظيمي ذكر في تاريخه أن الأفرنج فتحوا المرقب في سنة خمس وخمسمائة وهو الحصن المنيع الذي لا يرام ولا يقدر عليه، وذلك بسبب أن الغارات توالى عليه أربع سنين حتى ضعف أهله وهربوا وأخذ البلد من باقيهم بعد أن حوَصر مدة، ثم فتحه الملك المنصور قلاوون من أيدي الأفرنج سنة أربع وسبعين وستمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة بعد الخمسمائة:

وفيهما سار الأمير مودود صاحب الموصل إلى الرصافة ورعى عسكره زرعها إلى سروج، وأهمل أمر الأفرنج ولم يحترز منهم، فلم يشعر إلا وقد كبسهم جوسلين صاحب تل باشر، وكانت دواب العسكر منتشرة، فأخذ الأفرنج كثيرا منها، وقتلوا كثيرا من العسكر، فلما تاهب المسلمون للقاءه عاد عنهم إلى سروج.

قلت: هذا جرى على الأمير مودود بعد أن عاد من بلاد الشام.

وفيهما عاد جواب الأفضل وزير مصر إلى أتابك طغتكين في حديث مدينة صور برسول من عنده، وبعث بالاسطول فيه الميرة، ومال للنفقة للعساكر وغلات، وكان مقدم الاسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الأفرنج لها، فرخصت الأسعار واستقامت الأمور، وزال طمع الأفرنج عن صور، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لأتابك طغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه، ولمسعود الوالي بصور، وأرسل بغدوين إلى مسعود يسأله الموادة والمسالمة

لتنحسم أسباب الأذى من الجانبين، فأجابه الى ذلك، وانعقد الامر بينهما على السداد واستقامت الأمور وأمنت السبل، ومشيت التجار من جميع الأقطار.

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ومعرة النعمان ومعرة مصرين على حصن شيزر في عيد فصيح النصارى، فوثب فيه مائة رجل على حين غفلة من أهله، فملكوا الحصن وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا أبوابه، وكان بنو منقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وبلغهم الامر فجاءوا، وكانوا قد أحسنوا الى هؤلاء الذين وثبوا، وإنما رتبوا ذلك في المدة الطويلة، ودلت الحرم الجبال من القلعة وتسلفت رجال ونزلوا وفتحوا الأبواب، ودخل بنو منقذ فقاتلوهم وقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية، ووقع الاحتراز بعد ذلك، فما كان يغيب منهم واحد إلا ويحضر الآخر.

وقيل كان بنو منقذ خرجوا إلى الصيد، وفعلت الباطنية ما ذكرنا لانتهازهم الفرصة... ..

الأمير سقمان بن أرتق، قد ذكرنا وفاته في هذه السنة، ثم أربع وخمسمائة، وذكر المؤيد وفاته في تاريخه في هذه السنة، ثم قال: ولما توفي سقمان ملك خلاط بعده ابنه ظهير الدين ابراهيم بن سقمان، وسلك سيرة أبيه، وبقي في ملك خلاط إلى أن توفي سنة احدى وعشرين وخمسمائة، فتولى مكانه أخوه أحمد بن سقمان الى ان توفي في الولاية بعد أحد عشر شهراً، ثم تحكمت والدتها اينانج خاتون ابنة أركماز، وبقيت مستبدة بمملكة خلاط ومعها ولد ولدها سقمان بن ابراهيم بن سقمان، وكان عمره ست سنين، فقصدت اعدامه لتنفرد بالمملكة، فلما رأى كبراء الدولة سوء نيتها لولد ولدها المذكور اتفق جماعة منهم وخنقوها في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، واشتغل ابن ابنها شاه أرمن سقمان بن

- ١١٠٤٧ -

ابراهيم بن سقمان في الملك إلى سنة تسع وتسعين وخمسمائة على
ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

بسيل الأرمني صاحب بلاد الأرمن، هلك في هذه السنة، فقصدها
صاحب أنطاكية الأفرنجي ليملك بلاد الأرمن المعروفة الآن ببلاد سيس
غيات في الطريق وملكها سيرجال.

طنكريد الأفرنجي صاحب أنطاكية، هلك في هذه السنة وهو قاصد
بلاد الأرمن كما ذكرنا الآن، وتولى أنطاكية بعده ابن أخيه سيرجال
الأفرنجي.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب
البلاد على حالهم، غير أن صاحب حلب رضوان، وصاحب الموصل
مودود ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاة رضوان صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته، هو فخر الدولة، ويقال فخر الملك رضوان بن
الملك تاج الدولة تتش ابن السلطان أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن
ميكال بن سلجوق-صاحب حلب، ملك حلب في السنة التي قتل أبوه
فيها وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

الثاني: في سيرته، وكانت سيرته قبيحة، وأموره غير مرضية، وكان قد
قتل أخويه قبل موته، وهما: أبو طالب، وبهرام، وكان يستعين بالباطنية
في كثير من أموره لقلّة دينه.

وفي المرأة: وكان ظالماً بخيلاً شحيحاً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة ولاشفقة على المسلمين، وكانت الأفرنج تغير وتسبي وتأخذ من باب حلب، ولا يخرج إليهم، وهو أول من بنى بحلب دار الدعوة، وكان المستولي على أمره جناح الدولة حسين ففارقه، وقتل خواص أصحابه واحداً بعد الواحد.

الثالث: في وفاته، مرض أمراضاً مزمنة ورأى العبر في نفسه، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وقال ابن خلكان: مات رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الأفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولما مات كان في خزائنه من العين والعروض ستماية ألف دينار.

ذكر ولاية ألب أرسلان بن رضوان:

ولما توفي رضوان المذكور، ولي بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم، وكان الأمر والحكم إليه، ولم يكن لألب أرسلان غير الاسم، ولم يكن أخرساً، وإنما كان في لسانه حبسه أو تمتمة، وكانت أمه بنت ياغي سيان صاحب أنطاكية، وعمره حين ولي ست عشرة سنة، وكان يلقب بتاج الدولة، وكان فعله كفعل أبيه، فإنه قتل أخوين كانا له، اسم أحدهما ملك شاه، واسم الآخر مبارك قتلها مكافأة لأبيه مثلما فعل بأخويه، وكانت الباطنية قد كثروا في حلب في أيام أبيه حتى خافه رئيسها ابن بديع وأعيان أهلها، فلما توفي رضوان قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والايقاع بهم فأمره بذلك فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصائغ وعلى أصحابه، وقتل أبا طاهر وأخذ أموال الباقيين وأطلقهم ففرقوا، فمنعهم من قصد الأفرنج، ومنهم من توجه حيث شاء.

وفي تاريخ العظيمي: ووثب صاعد بن بديع رئيس حلب على الباطنية ومقدمهم أبو طاهر وخواصه اسماعيل، وقتل منهم جماعة، وملاً منهم السجون، وقتل من مقدميهم جماعة ظفروا بهم، مقدار مائة وخمسين رجلاً، وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام رضوان، فقال إليهم خلق كثير من حلب إلى جبل السماق وسرمين والمعرة وتلك النواحي، فلما مات رضوان قرر ابن بديع رئيس الأحداث بحلب مع ألب أرسلان بن رضوان على قتلهم وجرى ما ذكرنا.

ذكر مقتل مودود صاحب الموصل:

والكلام فيه على أنواع، الأول في ترجمته: هو الأمير مودود بن الطنطاش التركي، وكان الطنطاش من مماليك السلاجقة، وملك الأمير مودود الموصل وغيرها في سنة اثنتين وخمسمائة، أخذها من الأمير جاولي، كما ذكرنا.

الثاني في سيرته: كان رجلاً خيراً عادلاً، صاحب سيرة حسنة.

الثالث في مقتله: وقصته أنه اجتمع في هذه السنة المسلمون، وفيهم الأمير مودود هذا وغيزك صاحب سنجار والأمير اياز بن ايلغازي، وأتابك طغتكين صاحب دمشق، ودخلوا بلاد الأفرنج وجمع الأفرنج مع بردويل ملك القدس، وجوسلين صاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين، وكان سبب اجتماع المسلمين أن بردويل تابع الغارات على بلد دمشق، فأرسل طغتكين صاحبها إلى الأمير مودود يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه، فجمع العساكر وسار فعبّر الفرات، فخاف الأفرنج، وسمع طغتكين فسار إليه ولقيه بسلمية، واتفق رأيهم على قصد صاحب القدس، فساروا فنزلوا عند الأقحوانة على الأردن، ونزل الأفرنج

على الصنبرة بينهم نهر الأردن، وهم مع ملكهم بردويل صاحب القدس، فاقتتلوا بالقرب من طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الأفرنج انهزموا وكثر فيهم القتل، وأسر ملكهم بردويل ولم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجاء، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الأفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقبهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت قلوبهم وعادوا إلى الحرب، فأحاط المسلمون بهم من كل جانب، فأقاموا ستة وعشرين يوما والمسلمون يرمونهم بالنشاب فيصيبون من قرب منهم، ومنعوا المير عنهم، فلم يخرج [أحد] منهم، فسار المسلمون إلى بيسان فنهبوا بلاد الأفرنج ما بين عكا والقدس وحرقوها، وقتلوا من ظفروا به من النصاري، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم فعادوا ونزلوا مرج الصفر، وأذن الأمير مودود للعساكر بالعود والاستراحة والاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه ودخل دمشق في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وأقام بها عند طغتكين إلى الربيع، فدخل هو وطغتكين الجامع فوثب عليه باطني فقتله وجرح الباطني أربع جراحات وقتل وقطع رأسه وأخذ فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائما فقبل له أفطر، فقال: والله لا لقيت الله الا صائما، فمات من يومه رحمه الله.

وقيل إن الباطنية خافوه فقتلوه، وقيل إن طغتكين وضع عليه من قتله، وهذا بعيد، والله أعلم، وكتب ملك الأفرنج الى طغتكين: « إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها»، وتسلم غيزك صاحب سنجار ما معه من الخزائن، وحملها الى السلطان، ودفن مودود بدمشق في تربة الملك دقاق بن تتش صاحب دمشق كان، وحمل بعد ذلك إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة رضي الله عنه، ثم نقل إلى أصفهان.

وفي تاريخ المؤيد: ودخل مودود الجامع ومعه طغتكين وأصحابهما فصلوا الجمعة، وخرج طغتكين ومودود يمشيان في صحن الجامع، فوثب باطني على مودود وضربه بسكين، وقتل الباطني وحمل مودود إلى دار طغتكين ومات من يومه ذلك.

وفي المرأة: لما عاد مودود من قتال الأفرنج نزل في دمشق في الميدان الأخضر، وكان يدخل في كل جمعة إلى دمشق فيصلي في الجامع، ويتبرك بمصحف عثمان رضي الله عنه، فدخل إلى الجامع على عادته، ومعه طغتكين والغلمان حوله بالسيوف المسنلة وأنواع السلاح وأتابك طغتكين بين يديه خدمة له، فلما حصلا في صحن الجامع وثب رجل من بين الناس لايؤبه له، ولا يحفل به، فقرب من مودود كأنه يدعو له ويطلب الصدقة، وضربه بخنجر أسفل سرتة ضربتين أحدهما نفذت إلى خاصرته، والأخرى إلى فخذه، والسيوف تأخذه من كل ناحية، وقطع رأسه ليعرف شخصه وما عرف، فأحرق، وعدا أتابك خطوات وقت الكائنة وأحاط به أصحابه، ورجع إلى مودود وهو يمشي متماسكا حتى وقع عند الباب الشمالي من الجامع، وحمل إلى دار أتابك وخيط جرحه، فعاش ساعات يسيرة ومات في يومه، فقلق أتابك لوفاته على هذا الوجه، وحزن حزنا شديدا، وكذا سائر الناس، ودفن في مشهد داخل باب الفراديس، وشرع أصحابه في العود إلى الموصل وغيرها من البلاد، وأمر لهم باطلاق استدعونه لسفرهم واستصحبوا معهم أمواله وجواريه وأسبابه، ولم يزل مدفونا حتى وصل من زوجته وولده من الموصل - في شهر رمضان - من حمله في تابوت إلى الموصل، وشيعه أتابك إلى الثنية، وبلغني أن أتابك سأله أن يفطر في ذلك اليوم، وكان صائما فلم يفعل، وقال: والله مالقيت الله إلا صائما، وكتب بغدوين ملك الأفرنج إلى طغتكين: «ان أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله ان يبيدها» وقول بغدوين: «يوم عيدها» يعني «يوم الجمعة» وقيل انها كانت في سنة خمس وخمسة، وذكر بعضهم ان أتابك

- ١١٠٥٢ -

خاف منه، فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان
أحب الناس إليه، وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد، وشق ثوبه
عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بهال جزيل.....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والستين بعد الخمسة:مائة:

استهلت هذه السنة والخليفة ببغداد المستنجد العباسي، وبمصر العاضد العلوي، ووزيره بمصر شاور، ولكنه قتل في هذه السنة على يد أسد الدين شيركوه حين فتح مصر على ما ذكره الآن، إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح مصر على يد شيركوه وما جرى من أحداث له، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في سبب توجه شيركوه إلى مصر وسفره إليها، وهي المرة الثالثة، وقد ذكرنا سافرتين له قبل ذلك، وكان السبب في ذلك أن الفرنج لما جعلوا لهم شحنة بالديار المصرية تحكموا في أبوابها وسكنها أكثر شجعانهم على ما ذكرنا، وطغوا وبغوا، واستحوذوا عليها، وأخرجوا منها غالب أهلها من دورها، ولم يبق إلا أن يملكوها بالكلية، ومع ذلك ركبتم أمدادهم من كل ناحية، وصاروا صحبة مري ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ما أخذوا مدينة بلبس فقتلوا منها خلقا كثيرا وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم وجعلوها موثلا ومعقلا، وكان ذلك في مستهل صفر من هذه السنة، ثم صاروا من بلبس، ونزلوا على القاهرة عاشر صفر من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس إلى القاهرة، فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوما، فأرسل العاضد إلى الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله يستغيث به،

وأرسل في الكتب شعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نساء المسلمين من أيدي الأفرنج، والتزم له بثلاث خراج مصر على أن يكون أسد الدين

شيركوه مقيماً عندهم وله اقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية.

وفي تاريخ بيارس: قدم الفرنج من الساحل إلى مصر طامعين في ملكها لما بلغهم أن نور الدين بن زنكي فرق عساكره وانشغل بالشام فيما هو بصدده، ورأوا خلو مصر من الجند وأن ليس بها مانع، وراسلوا ملكهم مري في ذلك فلم يجبههم إليه، فقالوا: إن لنا بها قوة، وإن شاور كان لما فارقه الفرنج ترك عنده بمصر جماعة منهم يحرسونه ممن يأتي إليه من عسكر الشام، فقال لهم مري: فهذا لا يتم لنا وإن ملكناهم لم تطعنا العامة والفلاحين، ويجيء عسكر نور الدين فيأخذونها فيكون ذلك دماراً على الفرنج ووهناً، فساروا وأظهروا أنهم قاصدوا حمص، فلما سمع نور الدين بذلك جمع عساكره وسار الفرنج من الساحل، فقدموا بلبس ونازلوها، فأرجف الناس بذلك، وشرع شاور في بناء حصن على مصر استعمل فيه جميع أهل مصر، وحفر خندقاً، وكان في عسكر الفرنج جماعة من الأمراء المصريين ممن هرب من شاور: يحيى بن الخياط، وابن قزلباش، وعلم الملك ابن النحاس، فملكوا بلبس عنوة وسبوا أهلها وقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا ابن شاور، وساروا طالين القاهرة، ولما قربوا منها أمر شاور باحراق مصر فأحرقت، وانتقل بعض أهلها إلى القاهرة، وتفرق بعضهم في البلاد، ونهبوا أقبح نهب، وذهبت أموال أهلها، وبقيت النار مستمرة الحريق فيها أربعة وخمسين يوماً، ولما علم أهل القاهرة عجزهم عن مقاومة الفرنج سير العاضد وشاور إلى نور الدين بن زنكي يستغيثون به من الفرنج، وأرسلوا إليه شعور النساء في طبي الكتب، وأرسل شاور إلى مري ملك الافرنج يبذل له مالا على أن يرسل ويخرج الافرنج عن القاهرة، وتقرر الحال على ألف ألف دينار، فقال مري لأصحابه: نأخذ هذا المال نتقوى به ولانبالي بعد ذلك بنور الدين، واستوثق شاور منه بالايان، وعجل له من المقرر مائة ألف دينار وأخذ

يماطله بالباقي ويمنيه، وشرع شاور يجمع من أهل القاهرة مالا، فلم يحصل له شيء لضعف أهلها، ولم يجتمع له بالجهد والمصادرات سوى خمسين ألف دينار، وفي خلال ذلك كانت الرسل متواترة إلى نور الدين للاستعانة به والاستغاثة إليه، فجهز أسد الدين شركوه.

وفي المرأة: وفي صفر خرج الأفرنج من عسقلان والساحل طالين الديار المصرية، فنزلوا على بليس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج، وقتل البعض وهرب الباقون، ثم سار الفرنج من بليس، فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق فلم يجد شاور بدا من أن كاتب نور الدين بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرتين الأوليتين اطلعوا على عوراتها، وطمعوا فيها، ولما علم نور الدين بذلك استرجع وخاف عليها، فقال لشركوه: خذ العساكر وتوجه إليها، وقال لصلاح الدين: اخرج معه، فامتنع وقال: يامولانا يكفي مالقينا من الشدائد، فقال: لا بد من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين، فساروا إلى مصر.

وفي تاريخ الدولتين: لما أتى رسول العاضد إلى نور الدين بذلك أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، فأتى من حمص إلى حلب في ليلة واحدة، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسر، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في الخزائن وأمر العساكر، فاختر من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين لكل فارس من العسكر

الذي مع أسد الدين عشرين دينار معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصر الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنصرين من الله عز وجل وذلك في منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه على رأس الماء، فأقام ينتظر بورود المبررات، فوصل المبرر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدتين إلى بلادهم، لما سمعوا بورود عسكر نور الدين ووصولهم.

وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان - يعني - صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ [البقرة ٢١٦].

وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه، وقال صلاح الدين: لما قال لي عمي: تجهز يا يوسف فكأننا ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت إليه الضائقة وقلّة الدواب وما احتاج إليه، فأعطاني ما تجهزت به، وكأننا أساق إلى الموت،

وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها مالا كنت أتوقعه، وحرضه أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة يمدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلا
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا
ولاعدا لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءكم مصر تهادي
عروس بعلها هزبر هصور
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الاجناد سيرا
وراء لوائه تلقوا رشا
فما كل امرئ صلى مع الناس
مأموما كمن صلى فرادا^(٣)

فلما سافر صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة الى داره، فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي^(٤)

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش
جوا قيسارية القصاع وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله.

الثاني: في وصول شيركوه إلى البلاد المصرية، كان وصوله مع العساكر
إلى بلاد مصر في السابع من ربيع الآخر من هذه السنة، ولما وصلوا
وجدوا الفرنج قد انشَمروا عن القاهرة خائبين، فدخل شيركوه على
العاضد في ذلك اليوم وخلع عليه خلعة سنية فلبسها وعاد إلى مخيمه
بالخلع العاضدية بظاهر البلد، وفرح المسلمون بقدومه إليهم، وأجريت
عليهم الجرايات، وحملت إليهم التحف والكرامات، وخرج وجوه الناس
إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان ممن جاء إلى المخيم الخليفة العاضد
متنكراً فأسر إليه أموراً مهمة منها قتل الوزير شاور، فقرر ذلك معه،
وعظم أمر شيركوه بمصر، ولم يقدر الوزير على منع شيء من ذلك لكثرة
الجيش الذي مع أسد الدين، ولكن شرع يماطل فيما كان قرر لهم
وللملك نور الدين بما كانوا التزموا له ولهم، وهو مع ذلك يتردد إلى أسد
الدين، ويركب معه ويعده ويمنيه.

وفي تاريخ بيارس: ولما قرب شيركوه من القاهرة عاد الفرنج عنها إلى
بلادهم، ومعهم من الأسرى اثني عشر ألف نفس من الجند والعامّة
وغيرهم، ودخل أسد الدين القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع
الآخر من هذه السنة، فلتقاه العاضد وأجلسه إلى جانبه، وخلع عليه،
وضربت النشائر، وشرع في إطفاء النار بمصر، وتقدم العاضد بأن ينزل
على شاطئ النيل بالمقس، وقام شاور بعسكر شيركوه، وأقام لهم
الضيافات، وأظهر له وداً كثيراً، واعتمد أن يتردد إليه كل يوم، فطلب
شيركوه منه ما لا ينفقه في عسكره، فدافع في ذلك، فسير إليه الفقيه
عيسى الهكاري يذكر له أن العسكر جياع، وقد طال مقامهم وأنا أخشى
عليك منهم، فلم يكثرث شاور بكلامه، فلما طال مطالبتهم له عزم
على أن يعمل دعوة لأسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه، ويقبض

عليهم ويستخدم من معه من الجند، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وقال: لئن عزمتم على هذا لأعرفن شيركوه، فقال له شاور: لئن عرفته ليقتلنا عن آخرنا، فقال له: صدقت، ولئن يقتلنا ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكنا الأفرنج فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحيثئذ لومشى العاضد لنور الدين ما أغاثه، ولأرسل أحدا ويملكون البلاد، فترك ما كان قد عزم عليه، فسير العاضد أعلم شيركوه بذلك، ولما رأى الأمراء النورية مماطلة شاور خافوا شره، فاتفقوا مع صلاح الدين يوسف على قتله، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه.

وفي المرأة: وكان أرباب الدولة كل يوم يترددون إلى خدمة شيركوه، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة عساكره وميل العاضد إليه، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر، وبلغ أعيان دولة المصريين فاجتمعوا عند شيركوه، وقالوا: شاور هو فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج، فشرع في عمل دعوة لاسد الدين على مذكرناه.

الثالث: في مقتل شاور.

ولما صدر من شاور مذكرناه من سوء العزم في حق شيركوه، ورأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم عنه، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار في بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رحمه الله، وقصد شاور على عادته للاجتماع به، فلقية صلاح الدين وعز الدين ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه،

فسار وهما معه قليلا، فألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيرا، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً، ولم يمكنه الا اتمام ماعملوه، وأرسل الـاضد صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين، يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتتابع الرسل بذلك فقتل شاور في يومه وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ماخاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدوا الناس ينهبونها، ففارقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شداد: وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بهال في قبالة ماخسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئا، وأنه يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وعلموا أنه لاسييل للاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فاجتمع أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين، وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر منهم على قبضه إلا السلطان نفسه، يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل في خيمة مفردة، وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته، وأنفذ رأسه إليهم.

وفي المرأة: واختلفوا في كيفية مقتل شاور على أقوال: أحدها أن الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبتة الفرنج، وأن أسد الدين تمارض، وكان شاور يخرج إليه كل يوم والطبل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه.

والقول الثاني أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله، وأخبرا أسد الدين فنهاهما عن ذلك وسكتا، واتفق أن أسد الدين ركب إلى زيارة الشافعي فأقام عنده، وجاء شاور على عادته إلى أسد الدين، فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالوا: انزل هو في الزيارة فامتنع فجذباه فوق إلى الأرض فقتلاه.

والقول الثالث: أنها لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، وسجنه الغلمان في الخيمة وانهم أصحابه إلى القاهرة ليجهشوا عليهم، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا، وجاء رسول من العاضد برقة يطلب من أسد الدين رأس شاور، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول له: في رقبتك أيان وأنا خائف عليك من الذين عندي فلا تجيء، فلم يلتفت وجاء على عادته فجذبوه وألقوه عن فرسه، وأدخله جرديك إلى الخيمة وحز رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به، ودعا العاضد ولد شاور الكامل، فقتله في الدهليز، وقتل أخاه، واستوزر شيركوه على مأنذره الآن، ان شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: ودخل أولاده إلى القصر مستجيرين بالخليفة، فأخذوا وعوقبوا أشد العقاب، ثم قتلوا وهم: الكامل، والمعظم، وركن الاسلام.

الرابع: في ترجمة شاور.

هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث ابن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يحنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليلة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وفي هذا نظر لقصر هذا النسب بالنسبة إلى بعد المدة، والله أعلم، قلت: أبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصره بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، السعدي، وكان شاور يلقب بأمير الجيوش، وهو الذي انتزع الوزارة من أيدي بني رزيك - كما قلنا - وهو أول من استكتب القاضي الفاضل، استدعى به من اسكندرية من باب السدرة، فحظي عنده، وانحصر منه الكتاب بالقصر لما رأوا من فضيلته، وكان شاور على توليه الصعيد، ولاه الملك الصالح طلائع بن رزيك - كما ذكرنا - ولما جرح الصالح، وأشرف على الوفاة كان يعد لنفسه ثلاث غلطات: أحدها تولية شاور، والثانية بناء الجامع المعروف به على باب زويلة، وكان قد بقي عوناً لمن يحاصر القاهرة، والثالثة خروجه إلى بليس بالعساكر ورجوعه بعد أن أنفق عليهم أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم سيره إلى بلاد الشام ويفتح البيت المقدس، ويستأصل شأفة الفرنج، وقد ذكرنا أن شاور قد تمكن في الصعيد، وكان ذا شهامة وفروسية، وكان قد قدم الصعيد على الواحات، واخترق تلك البراري إلى أن خرج عند تروجه بالقرب من الاسكندرية، وتوجه إلى القاهرة ودخلها يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وهرب العادل رزيك وأهله من القاهرة ليلة العشرين من المحرم وقتل العادل بن صالح وأخذ شاور موضعه من الوزارة واستولى، ثم لما خرج أبو الأشبال ضرغام بن عامر توجه إلى الشام مستنجدا بنور الدين محمود، وذلك في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة - كما ذكرناه - وتولى ضرغام الوزارة مكانه، فأنجده نور الدين بالأمير أسد الدين، والقصة مشهورة، ثم آل الأمر إلى أن قتل شاور يوم الأربعاء السابع عشر، وقيل الثامن عشر من ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، ودفن في تربة ولده طي، وهي في القرافة الصغرى بالقرب من تربة الفاضل القاضي، وللفقيه عمارة فيه مدائح من جملتها قوله من قصيدة:

- ١١٠٦٣ -

ضجر الحديد من الحديد وشاور
من نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حتت يمينك يا زمان فكفر

وقال عماره اليميني: قضى قدوم الغزّ برحيل الأفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغزّ بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يُربّ أحد رجال الدولة مثلاً رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته مدة تسعة أشهر، مدة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور، وهو الذي أطمع الغز والفرنج في الدولة حتى انتقلت من أهلها، ولما عاد من اسكندرية أكثر سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم يسحب القتلى إلى خارج الدار.

الخامس: في وزارة أسد الدين شيركوه.

ولما جرى على شاور ما ذكرناه دخل شيركوه على العاضد، وخلع عليه خلعة سنينة وولاه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلعة إلى دار الوزارة، وهي الدار التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وأمر بنهب ما في دار شاور، وعظم شأنه، وقوى أمره، وأرسل أسد الدين يطلب إلى القصر كاتباً له، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل، رجاء أن يقتل معه إذا قتل، فيما كانوا يؤملون، وشرع في بعث العمال إلى الأعمال، وأقطع الاقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حمامه وانقطع أمله.

وفي تاريخ بيارس: لما قتل شاور أرسل العاضد فاستدعى أسد الدين من المخيم، فدخل القاهرة من وقته، ودخل القصر، فرأى اجتماع الناس، وكثرة العوام فخافهم على نفسه، فقال لهم: إن مولانا العاضد أمركم بنهب دور شاور فتفرقوا عنه، ومضوا إليها فنهبوها، ومثل شركوه بين يدي العاضد فخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليدا.

وفي تاريخ الدولتين: وزارة أسد الدين عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر.

أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيراً، وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاور ومن قبله من الوزراء، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصالح الدين مباشر للامور مقرر لها، وزمام الأمر مفوض إليه لكان كفايته ودرايته وحسن تأتبه وسياسته.

وقال ابن خلكان: وكانت ولايته الوزارة يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة.

السادس: في نسخة التقليد المنشأ عن العاضد بتفويض الوزارة إلى أسد الدين شركوه: «الحمد لله القاهر فوق عباده، الظاهر على من جاهر بعناده، القادر الذي يعجز الخلق عن فهم ما أودع ضمائر القلوب من مراده، القوي على تقريب ما قضت الهمم باستبعاده، المليء بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده، يؤت الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر ارشاده، ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده، ينجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم، واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم، وفعلت له المهابة مالا تفعله الهمم، وخلعت آثاره على

الدنيا تخلعة الأنوار على الظلم، وعدمت أنظاره بها وجد من محاسنه التي فاق بها ملوك العرب والعجم، وانتقم الله به من ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم، وزاد عن موارد الدين من هو بها أولى، ويأبى الله الا امضاء ما حتم، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينه، وقضى على يده من نصرة الدين دينه، ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال ٦٣] والحمد لله الذي خص جدنا محمد بشرف الاصطفاء والاجتباء، وانفضه من الرسالة بأثقل الاعباء، ووفر له من شرف المقام المحمود أوفر الانصباء، وأقام به القسطاس، وطهر به الادناس، وأمدّه بالصابرين في البأساء والضراء «وحين البأس» وألبس شريعته من مكارم الافعال والاقوال أحسن لباس، وجعل منه النور ساريا في عقبه لاتنقصه كثرة الاقتباس، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، والحمد لله الذي اختار لأمر المؤمنين من يقوم في أمته مقامه ويهدي بمرشد نوره الى دار المقامه، وأوضح به منار الحق وأعلامه، وجعله شهيد عصره، وحجة أمره، وباب رزقه، وسبيل حقه، وشفيع أوليائه، والمستجار في الخطوب بلوائه، والمضمونه له وبه العقبى، والمسؤول له الأجر في القربى، والمفترض له الطاعة على كل مكلف، والغاية التي لا يقصر عنها بولائه من تأخر في مضمار النجاة وتخلّف، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم، والهادي الى الحق والى صراط مستقيم، لا يقبل عمل الا بخفارة ولائه، ولا ينجح أمل الا بسفارة آلائه، ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعة، ولادين ولا دنيا الا معه، ليتضح النهج للقاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد، وليتبين الذين اختلفوا فيه، وليعلموا انها هو إله واحد، يحمدّه أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبه، وانتشر فعم نفعه البشر، والاستظهار الذي استنزل فيه جنود السماء والأرض، الذي عقد الله منه عقدا لاتدخل عليه أحكام التقض، والانتصار الذي أبان به معنى قوله: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ (البقرة ٢٥١) ونسأله أن يصلي على جده

محمد الأمين المبعوث رسولاً في الأميين، الهادي إلى دار الخلود، والمستقل باستقلال عوائر الجدود، وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وامام شيعته، وباب علمه، وسيف نصره، ولسان حكمه، وقسيمه في النسب والسبب، ويد الحق التي حكم لها بالقلب، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم، ومصاييح الظلم، ومفاتيح النعم، وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله إليه من آيالة الخليقة، ومنحه من كرم السجية وشرف الخليقة، وظاهر له من الكرامات التي زادت على أمانة كل من تمن، واثمنه من أسرار النبوة التي رآه لها أشرف مودع وأكرم مؤتمن، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب، وتسهيل الطلاب، وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب، يواصل شكر هذه النعم التوائم، ويعرف بعوارفها الفرادى والتوائم، ويثق بوعد الله إذا استهلكته المصابر، ويضرع إلى الله إذا فرغ الصابر، فما اعترض ليل كربة إلا انصدع له عن فجر وضاح، ولا انتقض عهد غادر إلا عاجله الله بأمر فضاح، ولا انقطعت سبيل نصره إلا وصلها عزه، يرسل إرسال الرياح، ولا انصدعت عصا ألفة إلا تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح، وإذا أعدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والآيات المعلومة، والكفايات المحتومة، والسعادات المقسومة، والعادات المنظومة، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً، وأعلاها حضراً، وأقضاها للامة وطراً، فليهنئك أنك حزب الله الغالب وشهاب الله الثاقب، وسيف الله القاضب، وظل أمير المؤمنين الممدود، ومورد نعمته المورود والمقدم في بيته، وماتأخرت إلا لأجل معدود، نصرت حين تناصر الضلال، وهاجرت إليه هاجرا برود الزلال وبرد الظلال، كشفت الغماء وهي مطبقة، ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقة، وغضضت أعنة الطغيان وهي مطلقة، وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابها المونقة، وأنقذت الاسلام وهو على جرف هار، ونفذت حين لاتنفذ السهام عن

الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار، ونصرت حق الله بنصرتك له،
وكم من أناس لا برؤيته بأنصار، وأجلت طاغية الكفر وسواك اجتذبه،
وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لا يتيقنه وكذبه، وما يومك في نصر
الاسلام بواحد، ولا أمسك بمجحود وإن رغم أنف الجاحد، أوجبت
الحق بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائما بها في غمرة بعد غمرة،
واقترعت صهوة هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك،
وأما الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات في لحاقك، وكنت
البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ نجحه، المذعورة أعداء أمير
المؤمنين إن فوق سهمه وأشرع رحمه، ولقد استشرفتك الصدور،
وتطلعت اليك عيون الجمهور، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من
المهور، نصرت الاسلام بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين
كله، وناهضت الكفرة بالباع الأشد، ونادتهم سيوفكك «ولا قرار على
زئير سن الأسد» فأدال الله بك ممن قدم على قدم، وندم فما أغنى عنه
الندم، حين لج في جهالته، وتمادى في ضلالته، واستمر في استطالته،
وتوالت عنه عثرات ما أتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدولة رجالا، وضيق
من أرزاقهم مجالا، وسلب من ذخائرها ذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من
أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتسعت هفواته عن التعديد،
وما العهد منها ببعيد، وقد نسخ الله بك حوادثها فوجب أن تنسخ
أحاديثها، وأتى الامامة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها،
ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار، وتحقق أنك ممن
يتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار، واختارك على بينة من أن
الله يحمد فيك عواقب الاختيار، وكنت حيث رجا وأفضل، ووجدت
بحيث دعا وأعجل، وقدمت فكتب الله لك العلو وكبت بك العدو،
وجمع على التوفيق لك طر في الرواح والغدو، ولو لم يلبس الكافر
لسهامك جنة الا الفرار، وكان ﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض
مالها من قرار﴾ [ابراهيم ٢٦] فله درك حين قاتلت بخبرك قبل

عسكرك، ونصرت بأثرك قبل طلوع عثرك، وأكرم بك من قادم خطواته مبروزة وسطواته للاعداد مبيرة، وكل يوم من أيامه بعد يسيرة، فإنك المبعوث الى بلاد أمير المؤمنين بعث السحاب المسخر، والمقدم في تقدم النية وإن كنت في الزمان المؤخر، ولما جرى من جرى ذكره على عادته في ايجاشك والايحاش منك بكواذب الظنون، وقرب رجعتك عن الحضرة وقد قربت الدار وقرت العيون، وكان كما قال الله في كتابه المكنون: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر اسم الله وهم كارهون﴾ [التوبة ٤٨]، وأخذه من أخذه ألم شديد، وعدل فيه من قال: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت ٤٦] ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق ٣٧].

قال العماد الكاتب: وكتب لأسد الدين منشور من القصر، بسيط الشرح، طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرته بخطه، ولاشك انه باملاء كتابه: «هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بها أوضحه لك من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة، واتخذة للفوز سيلاً، ﴿ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ [النحل ٩١] ونسخة المنشور.

«من عبد الله ووليه محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الاجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وداعي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع ببقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله الا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، والأئمة المهديين، وسلم تسليماً». ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل، على عادة الكتاب المتأخرين

الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بجوامع الكلم».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية، فولي كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة، ثم اتصل بالكامل بن شاور، فاستكتبه وزاحم به كتاب القصر، فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً، أرسل به إليه، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه، فنخلص من مزاحمته لنا، فكان من أمره ماكان، واستمر في الدولة، ولم يزد كل يوم الا تقدماً، بصدقه ودينه، وحسن رأيه، وأنفذ العباد قصيدة طويلة تهتة لأسد الدين، أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب

كم راحة جنيت من دوحة التعب

يا شيركوه بن شادي الملك دعوة من

نادى فعرف خير اب بن بخير أب

جرى الملوك وما حازوا برخصهم

من المراقبي العلى ما حزت بالخيب

تمل من ملك مصر رتبة قصر

عنها الملوك فطالت سائر الرتب

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها

ميسر افتح بيت القدس عن كذب

أنت الذي هو فرد من بسالته

والدين من عزمه في جحفل لجب

في خلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى

والقلب في شجن والنفس في شجب

إلى أن قال:

من شر شاوَر أنقذت العباد فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطمع الأفرنج في بلد الـ
اسلام حتى سعو اللقصِد والطلب
وما غضبت لدين الله منتقم
الأنيل رضى الرحمن بالغضب
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا
نصرت نصر رسول الله بالعرب
يا محيي الأمة الهادي بدعوته
للرشد كل غوي منهم وغبي

إلى أن قال:

فالجد والجد مقرونان في قرن
والحزم في العزم والأدراك بالطلب
فظهر المسجد الأقصى وحوزته
من النجاسات والأشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا
وفي القيامة تلقى خير منقلب^(٥)

السابع: في وفاة أسد الدين شيركوه.

لما استقر شيركوه في الوزارة ولم يبق له منازع واستعمل على الأعمال
من يثق به من أصحابه وأزلامه عرض له مرض شديد بعلّة الخوانيق،
وكانت وفاته في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة،
فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام، وحملت جثته إلى المدينة النبوية على
ساكنها الصلاة والسلام، ودفن بها.

وفي تاريخ الدولتين: توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تنزيه اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله.

وفي المرأة: ودفن بظاهر القاهرة، إلى أن مات أخوه نجم الدين أيوب، فحملا جميعا إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فدفنا في رباطيهما.

وفي تاريخ ابن كثير: ويقال إنه مات يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بالقاهرة، ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول عليه السلام بعد مدة بوصية منه، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر.

الثامن: في ترجمة شيركوه.

هو أبو الحارث، أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب بالملك المنصور، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان هو ونجم الدين أخوين ابنا شادي المذكور، وكان أيوب أكبرهما، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهم من بلد دوين، بلدة من أعمال أخلط.

وقال ابن خلكان: وكان شادي بن مروان من أهل دوين، ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور،

وكان بينهما من الاتحاد كما بين الاخوين، فجرت قضية لبهروز في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها وخصاه، فلما مثل به لم يقدر على الإقامة بالبلد، وقصد خدمة بعض الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن السلطان محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الأمور، فتقدم عنده، وتميز، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاده، فأنكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه، وشكر دينه وعفته ومعرفته، ثم صار يسير إلى السلطان في الأشغال، فخف على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه وأرصده لمهمات، وسلم إليه أولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ما صار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما خوله الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه مانسيه، فلما وصل بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق ان السلطان رأى توجيه مجاهد الدين المذكور الى بغداد، واليا عليها ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي المذكور، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، وتولى ولده نجم الدين أيوب

المذكور، فنهض فسي أمرها، وسكن بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه شيركوه - كما ذكرنا - ثم اتفق ان بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين وأخيه شيركوه، وهي تبكي، فسألاها عن ذلك، فقالت: أنا داخلة في الباب الذي للقلعة فتعرض لي الاسفسهلا، فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للاسفسهلا وضربه بها فقتله.

فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى بهروز وعرفه بصورة الحال ليفعل فيه ما يريد ومايراه، فوصل إليه جوابه: لأبيكما علي حق،

وبيني وبينه مودة متأكدة، وما يمكنني ان اكافيكما بحالة سيئة تصدر مني في حقكما، ولكن اشتهي منكما ان تتركا خدمتي وتخرجا من بلدي، وتطلبا الرزق حيث شئتما، فلما وصلهما الجواب ماأمكنهما المقام بتكريت وقصدا والد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وذلك لما كان قد تقدم لهما عنده، وذلك ان زنكي دخل تكريت عندهما حين هرب من قراجا الساقى، وأحسننا إليه وخدماه خدمة بليغة، ولما دخل أيوب وشيركوه عند أتابك زنكي في الموصل أحسن هو أيضا إليهما، وزاد في اكرامهما والانعام عليهما، واقطعها اقطاعا حسنا، ثم لما ملك زنكي قلعة بعلبك استخلف بها نجم الدين ايوب، واقره بعده نور الدين محمود ولده، فحظيا عند نور الدين كما كانا عند والده زنكي، وصار شيركوه أكبر امراء نور الدين وأخصهم عنده، وكان قد أقطعه الرحبة وحمص مع ماله عنده من الاقطاعات، وذلك لشهامته وصرامته وجهاده في أعداء الله الفرنج وغيرهم في أيام معدودات، ووقعات معتبرات، ولاسيما يوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك ما فعله بديار مصر.

ثم أرسله نور الدين إلى مصر مرة بعد أخرى كما ذكرنا حتى ملكها وتولى الوزارة فيها عوضا عن شاور يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي في التاريخ الذي ذكرناه.

وفي تاريخ الدولتين: وكان شيركوه شجاعا بارعا قويا جلدا في ذات الله، شديدا على الكفار، وطاعته عظيمة، في ذات الله صولته، عفيفا ديناً، كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الايثار، حذبا على أقاربه وأهله، وكان فيه امساك، وخلف مالا كثيرا، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف خمسمائة مملوك، وهم الاسدية، وكان مشيدا قواعد الدولة الشادية والمملكة الناصرية رحمه الله.

وقال ابن عساكر: ولي أسد الدين دمشق مدة، وأقام يحارب الفرنج، وفتح حصونا كثيرة، وكان شجاعا مقداما، صارما مهيبا، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وقال الشيخ شهاب الدين: وإلى أسد الدين شيركوه تنسب الخانقاه الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين، والمدرسة الاسدية بالشرف القبلي رحمه الله، وشيركوه بكسر الشين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف، وكسر الراء المهملة، وضم الكاف، وسكون الواو، وهو في آخره هاء، وهو لفظ أعجمي مركب من: شير يعني الأسد، وكوه، يعني الجبل، وشادي بالشين المعجمة وبعد الألف الساكنة دال مكسورة، وفي آخره ياء، آخر الحروف، وهو اسم أعجمي، ومعناه بالعربي فرحان.

التاسع: في وزارة صلاح الدين.

لما توفي أسد الدين شيركوه طمحت نفوس الامراء النورية الذين كانوا صحبتهم الى الوزارة، وخطبها كل منهم إلى نفسه، وهم: عين الدولة الياروقي، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين يوسف، فأشار على العاضد خاصته ونصحائه بتولية صلاح الدين لطواعيته، وماجرت به الاقدار من سعادته، فاستدعاه وجلده وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك الناصر، فأنف الأمراء المذكورون من طاعته والإقامة في خدمته، وفارقوه إلى الشام الا البعض منهم، فإن الفقيه عيسى الهكاري سعى في الصلح بينه وبينهم واستمالهم بالعطاء وبذل الأموال لهم ولسائر الأجناد، فاجتمعوا عليه، ومالت قلوبهم إليه، وتخلوا عن العاضد، فضعف أمره.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما توفي شيركوه في التاريخ المذكور أشار الامراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه،

فولاه الخليفة العاضد الوزارة، وخلع عليه ولقبه الملك الناصر، وأطاعه جميع الامراء النورية غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: لأأخدم صلاح الدين، وعاد الى الشام، وثبتت قدم صلاح الدين في الوزارة، على أنه نائب لنور الدين محمود صاحب الشام، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما له.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم: عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي ابن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه لا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين، وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها: «إن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل» فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الامر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فقال

إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه، فلا يصل إليك، ولم ينزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له، ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، فعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعدته وزاد إقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضا، وعدل إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا، فلم ينفعه رقاؤه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبدا، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه، وقد فات الأمر، ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ [الأنفال ٤٢] وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكتب إليه: «الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا»، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئا يخرج به فلم يمكنه منعه، فقال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر، والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم فيفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد البلاد، وأحضر كحيث وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما

تخدمني فسر إليه وساعده على ماهو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد الكاتب: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لايتنظم، والخلل لايلتئم، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعده، وعقدوا لصالح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السيادة بتليته، وشرع في ترتيب الملك، وتربيته، وفض ختم الخزائن وأمضى رسوم المزاين، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته، وأنارت على منار العلى انارة آياته [ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبوه ولم تزل محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقرييهم]^(٦) كأنهم ذوو قرابته، وضم من أمر المملكة ماكان منشورا، وكتب له العاضد صاحب القصر منشورا، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال والعذب الزلال، ثم ذكر العماد عبارات حسنة وقال: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبدلت عقودها وما انتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام بما تسنى له من المرام، وترددت كتب صلاح الدين بذكر الأشواق، وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش و برح القلوب العطاش، فإن أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمة لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألّفونها، ورأوا وجوها هنالك لهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتابا أوله: يا أيها الغائبون عني وأن كنـ

تم لقلبي بذكركم جيرانا

إنني مذفقدتكم لاراكم

بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه ان اكتب جوابه فقلت:

- ١١٠٧٨ -

أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لا يفارق الأظعاننا
ملكوا مصر مثل قلبي وفيه
إذا وتلك أصبحوا سكاننا
فاعدلوافيهما فانكم اليوم
ملكتم عليهما سلطاننا
لاترعوأبالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقاننا

الآيات:

وبعد فإن وفود الهناء وامداد الدعاء متواصلة على الولاء، صادرة عن
محض الولاء الى عالي جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس، فليهنيه
الظفران بالملك وبالعدو، وفرع هضاب المجد والعلو، وكيف لا يكون
النصر مساوقا لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم به نجاحه وفلاحه:
فالشام يغبط مصر مذحلت بها
كما الفرات عليكم يحسد النيل
نلتهم من الملك عفواً الملوكة
عنوا قديماً وراموه فمانيلاً

وقال العماد: ورثت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين،
وعزيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تضعض في هذا المصاب المباغت
من الدين لولا نوره كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة
لنا خلفاً من كل مود وفائت
فما بالنابدي التصام غفلة
وداعي المنايا ناطق غير صامت

_ ١١٠٧٩ _

نؤمل في دار الفناء بقاءنا
ونرجو من الدنيا صداقة ماقت
وما الناس الا كالغصون يد الردي
تقرب منها كل عود لناحت
لقد ابلغت رسل المنايا واسمعت
ولكنها لم تحظ منا بناصت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين
محمد:

ما بعد يومك للمعنى المدنف
غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجزأ الحدثان كيف سطاعلى الا
سد المخوف سطا ولم يتخوف
من ذارأى الأسد الهصور فريسة
أم ابصر الصبح المنير وقد خفي
من ثابت دون الكماة سواه ان
زلت بهم اقدامهم في الموقف
ما كان اسنى البدر لو لم يستتر
ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف
ما كنت اخشى ان تلم ملمة
يوما وأنت لكربها لم تكشف
أيام عمرك لم تزل مقسومة
لله بين تعفف وتعرف
متهجدا لعباده او تاليا
من آية او ناظرا في مصحف
فجع الندى والباس منك بحاتم
وبحيدر والحلم منك بأحنف
بالمك فزت وحزته عن قدرة
ومضيت عنه بسيرة المتعفف

- ١١٠٨٠ -

ووصفت يا أسد الدين محمد
مدحاً بما ملك به لم يوصف

وفي تاريخ الدولتين: فوض الأمر لصلاح الدين بعد أسد الدين،
واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذلت الأموال،
وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر،
وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وماعاد عنه،
وما ازداد إلا جدا إلى أن توفاه الله إلى رحمته.

العاشر: في صفة خلعته التي خلعت عليه للوزارة.

قال الشيخ شهاب الدين في الروضتين: صفة الخلعة التي لبسها
صلاح الدين رحمه الله: عمامة بيضاء تنسية بطرف ذهب، وثوب ديبقي
بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر
بعشرة آلاف دينار، وسيف محلي بخمسة آلاف دينار، وحجرة بثمانين ألف
دينار، وعليها سرج ذهب وسرفسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة
جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة بذهب، وفيها
مشدة بيضاء بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى،
ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الاثنين
الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان يوما مشهودا،
وسار الجيش بكماله في خدمته، ولم يتخلف عنه منهم سوى عين الدولة
الياروقي - كما ذكرنا - وسار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على
ذلك، وأقام صلاح الدين بصفة نائب الملك نور الدين يخطب له على
المنابر بالديار المصرية.

الحادي عشر: في نسخة التقليد المنشأ بتفويض الوزارة لصلاح الدين:

«من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى

السيد الأجل الملك الناصر مصطفى الأئمة، منجد الأمة، صلاح الدين،
كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي المظفر يوسف العاضدي،
عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، سلام عليك فإن
أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله الا هو، ويسأله أن يصلي على
محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الأئمة الطاهرين المهديين،
وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فالحمد لله مصرف الاقدار، ومحصي الأعمال والأعمار، وعالم سر الليل
وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا دوارا تتعاقب فيه أحوال
الأقمار بين انقضاء واستقبال سرار، وروضاء إذا ذوت فيه الدوحات
أينعت الفروع، سابقة النوار، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة
بفضل أصولها، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها، والقائم بنصر
دولته، فلا تزال حتى يرث الارض ومن عليها قائمة على أصولها.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار، وأغنائه
باقتضاب الالهام عن رؤية الاختيار، وعضد به الدين الذي ارتضاه،
وعضده بمن ارتضاه، وأنجز له من وعد السعادة ما قضاه قبل اقتضاه،
ورفع محله عن الخلع فكلهم مضاف إلى الخلق غير مضاه، وجعل مملكته
الأسد وشبله ونعمته ميراثا أولى به ذوي الارحام من بني الاولاد وأهله،
وأظهر في هذه القضية ما أظهر في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين
وعدله، فأولياؤه كالأيات التي سبق ذراري أفقها المنير، ونسق درر
عقدتها النظم النضير، ﴿مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو
مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة ١٠٦] والحمد لله
الذي أتم له الرشاد، وجعله أولى من خلق ساد وللحق شاد، وأثره
بالمقام الذي لا ينبغي الا له في عصره، وأظهر له من المعجزات لنصره
مالا يستقل العدد بحصره، وجمع له ولمن والاه من رفع قدره، ووضع
أصره، وجعل الامامة موضوعة في عقبه، والمعقبات تحفظه بأمره، وأودعه

من الحكم التي رآه لها أحوط من أودعه، واطلع من وجهه أنوار الفجر الذي جهل من ظن ان من غير مطلع، وآتاه ما لم يؤت أحدا، وأمات به غياً وأحيا رثداً، وأقامه للدين عاضدا فأصبح به معتضداً، نحمدته على ما آتاه من توفيق يذلل الصعب الجامح ويديني البعيد النازح، ويخلف على الدين من صلاحه الخلف الصالح، ويلزم آراءه جدد السعود الواضح، ويؤتية آيات الارشاد فأية نار قدح القادح، ونصلي على النبي محمد الذي أنجى أهل الايمان ببعثه، وطهر بهديه من رجس الكفر وخبثه، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادت يده بلسان ذي النعال الحاد^(٧) وعلى الائمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الاحاد.

ومنه:

وإن الله سبحانه وتعالى ما أخلى دولة أمير المؤمنين التي هي محط الهدى، من لطف تلافى الحادثة بشعبها، ولما لم تكد تنسى الحادثة في الأجل الملك المنصور أسد الدين شيركوه رضي الله عنه، نظر أمير المؤمنين في اصطفاك أيها السيد الاجل الملك الناصر لخدمته بعده لتسد في مقدمة الجيوش مسده، وتلحق به في المجد أولك، ونحمد فيك العواقب ولك، فاعلم هذا من أمره ورسمه، واعمل بموجبه وحكمه إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الثاني عشر: في مجيء نجم الدين أيوب الى ولده صلاح الدين بمصر.

لما ملك صلاح الدين الديار المصرية بالوزارة أرسل الى نور الدين يطلب أباه أيوب وأخوته وقرباته، فأرسلهم مكرمين مع جماعة من الزامهم وأهل مودتهم، وشرط عليهم السمع والطاعة له واستقر أمره هنالك، وتمكن سلطانه، وخرج العاضد بنفسه للقاء أبيه أيوب، وبالف في احترامه والاقبال عليه وقال: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾

[يوسف ٩٩] ولما اجتمعوا قرأ بعض المقرئين: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ إلى قوله: ﴿توفني وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠٠ - ١٠١].

ثم بعد ذلك أخذت دولة المصريين في الضعف، والدولة الايوبية في القوة، ولما اجتمع صلاح الدين يوسف مع أبيه سلك معه الأدب، وفوض إليه الأمر كله، فقال له: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت جدير به، فلا ينبغي أن تعبر مواقع السفارة، وحكمه في الخزائن كلها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على الخليج، وأعطاه وأهله الاقطاعات الجليلية بمصر، وتمكن صلاح الدين من البلاد، وضعف أمر العاضد بالكلية.

الثالث عشر: في ذكر ماجرى بين نور الدين وصلاح الدين.

قال صاحب تاريخ الدولتين: إن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين، ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري، فكتب في ذلك عدة كتب فلم يلتفت إليه الملك الناصر صلاح الدين، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه مافارق قبول رأيه وإشارته.

وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب، ولما ملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله، وأعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر ذلك، ويقال: إنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت إلى

أصحابه فقال: إذا ما مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها.

وقال ابن أبي طي ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أن يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب، قال صلاح الدين: ولقد كان يعتمد نور الدين في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يصبر على مثلها لعلني أتصور أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

وقال صاحب تاريخ الدولتين: قد وقفت على كتاب بخط نور الدين يشكر فيه من صلاح الدين، وذاك ضد ما قاله ابن أبي طي، كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته:

«حسبي الله وكفى، وفق الله الشيخ الامام شرف الدين إلى طاعته وختم له بخير غير خاف عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين وما يقربني إلى الله، والله ولي التوفيق، والمطلع على نيتي، وأنت تعلم نيتي كما قال عز من قائل ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد ٤٣].

أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمتنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، الله تعالى جعلها دار اسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق، فله المنة والحمد، الا ان المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر واقليمها ماهي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع، وما تدخر الدموع الا للشدائد، وأنا ماكنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك، والان قد تعين علي وعليك أيضا ان ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها الا انت، ولا اقدر اولي امورها واقلدها

الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ماتعلم أنه يقربك الى الله، وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لاتبقى علي حجة، تصل أنت وولدك إلى عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام .

بموافقة صاحبي واتفاق منه، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيرا وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام، الله تعالى يكثر من الاخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً

الرابع عشر: فيما فعله صلاح الدين من المعروف بعد توليته.

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابه سجل به من ديوان الانشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين تتقدمه، آخرها سنة أربع وستين وخمسة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف اردب غلة، فسامح بجميع ذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، وأنهى إليه ما يستأدى بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع، فأغاث أهل الحجاز وأوسعهم من العين والغلة، وذلك كله بإشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

الخامس عشر: في قتل المؤتمن الطواشي زمام الدار.

قال العماد: وشرع صلاح الدين يوسف في نقص اقطاع المصريين،

فقطع منهم الزوائد من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى مؤتمن الخلافة متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسديه والصلاحية، لأن صلاح الدين يخرج بمن معه، فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائه، فتكون عليهم الدائرة، فكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلا من التركمان عبر بالبئر البيضاء، فرأى مع انسان ذي خلقان نعين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبه الفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط، فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه، نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، وثبت اعتصامه وعرف استسلامه، ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي، وخشي أن يشق على شق العصي العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه غضب، وعنه غض لا يأمر فيه ببسط ولا قبض، إلى أن استرسل واستسبل، وظن أن مانسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية، وهي بقرب قليوب، فخلافه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعته بانقضاء دولته، فأنهض صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع من حياته لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وستين وخمسة.

وفي تاريخ بيبرس: خرج مؤتمن الخلافة ذات يوم إلى بستان له بقلوب، فسير إليه جماعة من أصحابه فقتلوه وأتوا برأسه، ثم استعمل على أذمة القصور قراقوش، وهو خصي من ممالك عمه أسد الدين ليطالعه بها يجري في القصور.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان له قصر على النيل بالخرقانية من أعمال قليوب ذو بساتين، فخرج إليه للتنزه، فعلم صلاح الدين بذلك، فأرسل إليه جماعة فقتلوه وأتوا برأسه في التاريخ المذكور الآن. ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يلون خدمة القصر، واستتاب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش الأسدي.

السادس عشر: في وقعة السودانية.

ولما قتل مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، ثار السودان عند القصر ونادوا، وكانوا يزيدون على خمسين ألف، فنهض إليهم صلاح الدين، وكانت الوقعة بين القصرين، وقامت الحرب بينهم يومين، وصار السودان كلما التجأوا إلى محلة أحرقت عليهم، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورة، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم جميعاً، فلما أتاها الخبر بذلك هزموا وركبتهم السيوف، وقتل منهم خلق كثير، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك، فمضوا إلى الجيزة، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، وضعف أمر العاضد بالكلية، وتلاشى حاله، وخربت محلتهم، واتخذت بستاناً، فأصبح أمرهم كأن لم يكن، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصياً أبيض، وبقي لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين، وكان صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئاً من المال والرقيق والخيل، حتى أنه أرسل إليه يوماً، وهو في بستان له يسمى الكافوري، يطلب منه فرساً، فقال: والله ما عندي إلا هذا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما، وأرسل الفرس إليه، ولزم العاضد بيته من ذلك اليوم حتى كان منه ما كان.

وقال ابن كثير: وحين قامت الحرب بينهم، كان العاضد ينظر من القصر، وقد قذف الجيش الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقليل كان ذلك بأمر العاضد، وقيل لم يكن بأمره، فأمر شمس الدولة تورانشاه، وكان حاضرا للحرب باحراق منظره العاضد، ففتح بابها ونودي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بلادكم، فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا.

وفي تاريخ بيبرس: وأقاموا على الحرب أربعة أيام ليلا ونهاراً، وقتل من الجمعين خلق كثير، ولما علموا المغلوبة هربوا بأجمعهم إلى الجيزة، فندب إليهم صلاح الدين أخاه تورانشاه فقاتلهم وهزمهم ولم ينج منهم الا الشريد، وأرسل إلى نواب البلاد بقتل من وجد منهم، وكان جوهر هذا سببا لزوال ملك الفاطميين، وكان سبب ملكهم اولا جوهر أيضا، وهو جوهر القائد الذي أرسله المعز من المغرب، كما ذكرنا مفصلا.

وقال العماد: ولما قتل مؤتمن الخلافة غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، فحسبوا ان كل بيضاء شحمة، وان كل سوداء فحمة، فثار أصحاب صلاح الدين الى الهيجاء ومقدمهم أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاطت به العسكرية من الجانبين، ودام الشر فيه يومين حتى حس الاساحم بالحين، وكلما لجأوا الى محلة احرقوها عليهم، وحووا ماحواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من شدة، ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا، وأينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة وكانت لهم المعمرة المعمورة، فأتى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبل هذه النوبة أخوه الأكبر
فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أنفذه إليه نور الدين من
دمشق يشد أوده بمصر لما سمع بحركة الفرنج، وأهل القصر، فوصل
القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وياشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها اثر عظيم.

السابع عشر: فيما مدح به صلاح الدين.

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئة له
بالمملك وتغزية له:

أيأيوسف الحسن والاحسان خير من
حوى الفضل والافضال والنهي والأمر
ومن للهدى وجه النجاح برأيه
تجلى وثغر الثغر من عزمه أقترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه
من الخالق الحسني ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى الالعلاء وعمه
بمعروفه عم السورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله
وما شاركوه فى العلى فحوى الفخرا
بنو الأصفر الافرنج لاقوا ببيضه
وسمر عواليه من اياهم حمرا
وما ابيض يوم النصر واخضر روضه
من الخصب حتى اسود بالثقع واحمرا
رأى النصر فى تقوى الاله وكل من
تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب
انبائه فيها كتاب ضمنه هذا البيت:
ماكنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابها أبياتا منها:

يا همل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة محمودة ورجوع
مذغبتكم عن ناظري ما أذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع
كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت اطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل منه كتاب ايضا ضمنه هذا البيت:
وأثر دمع الدر من قبل أيضا
وقد حال مذبتكم فاصبح يا قوتا
فنظمت في جوابه أبياتا منها:

هنيئاً لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قبل يوسف شاورا
يماثل الا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي ابشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ما شئت

- ١١٠٩١ -

ومما كتبه العهاد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها:

بالمملك الناصر استنارت
في عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فروض
شكر الما جاد من نوافل
يوسف مصر الذي إليه
تشدد آمنا الرواحل

أجريت نيلين في ثراها
نيل نجيع ونيل نائل
ومانقت السودان حتى
حكمت البيض في المقاتل

الآيات:

قال العهاد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الأعيان،
وأنفذ للعهاد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:
يا صلاح الدين الذي أصلح الفنا
سد بالعدل منه خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر الى الشا
م نوالا أم سال نيل ثاني
وعلى نيلها الكفيك فضل
فهما بالنضار جاريتان
وصلت أعطياتك الغر غزرا
فتلقت أمنا بالتهاني
خلع راقى العيون وراعت
وغلا وصفها عن الامكان

- ١١٠٩٢ -

مذهبات كأنها خلع الرضوان
قد أهديت لاهل الجنان
مشرفات بطرر زها الذهبيا
ت الحسان الرفيعة الاثان
فالعمامات كالغمامات والطر
ز تروق كثيرة اللمعان
والموالي بهام من التيه والفخ
ر على الدهر ساجبوا الاردان
كيف خص العباد بالادون المخ
لق من دون عصابة الديوان

الآيات:

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبدك شمس الدولة المرتجا
متظنر تشريفك المذهبيا
وأعتب صلاح الدين في حالتي
عساه بالاصلاح ان يعتبا
عرفه ماتم فإني أرى
من فضله للفضل ان يغضبا
وكيف يرضى ذاك بعض الرضى
ومجده بأباه كل الابا
وقل له جاءته ملبوسة
تخلفت من تبع في سبا
عمامة رقت ورثت فما
نشرتها الا وطارت هبا

قال المؤرخ: فوصل من صلاح الدين عمامة مذهبة، وكتب يعتذر عن
العمامة التي قبلها.

وقال عرقلة في صلاح الدين وقد أنفذ له من ديار مصر ذهباً ولغيره
سلاماً:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا
شقي لم يبت الا حريصاً
أتى منك السلام لنا عموماً
وجودك جاءني وحدي خصوصاً
وكننت كيوسف الصديق لما
تلقى منه يعقوب القميصاً^(٨)

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق،
فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره
بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي
زماناً على الحر الكريم يحور
تري أبصر الألف التي كنت واعدي
بها في بيدي قبل الممات تصير
وهيهات والافرنج وبينكم
سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الأيام انك ذو غنى
بمصر ومثلي بالشام فقير^(٩)

وقال ايضاً:

قل للصلاح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الالف دينار
أخشى من الاسر ان حاولت ارضكم
ومات في جنة الفردوس بالنار
فجدها عاضديات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغى أبو الطاري

هرا كاسيافكم غبرا كخيلىكم
عتقا ثقالا كاعدائي وأطهاري^(١٠)

وأنفذ له عشرين دينارا من مصر فقال:
يا مالكا ما برحت كفه
تجود بـ المال على كفى
أفلح بالعشرين من لم يزل
في رأس عشرين من الكهف
يا ألف مولاى ولكنها
محسوبة من جملة الألف^(١١)

وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر،
فأعطاه ذلك، وأخذ له من أخوته مثل ذلك، فعاد إلى دمشق وهو مسرور
محبور، وكان ذلك ختام حياته، ودناء أجل وفاته، ومات بدمشق في سنة
ست أو سبع وستين وخمسة رحمه الله.

الثامن عشر: في أشياء ملتبطة فيما يتعلق بالأبواب المذكورة في أمر
شاور.

وكان متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دفن الصالح طلائع بن
رزيك واستوزر ابنه رزيك أرسل إلى عمه العاضد فخنقها، واجتمع إلى
رزيك أولاد عمته ومن جملتهم عز الدين حسام، فعزل شاور، فعصى
عليه، وجمع العربان وأهل الصعيد، وسار إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة
من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك تحت الليل فضل الطريق وتاه،
فوقع عند أطفيح وثم بيوت عرب، فقبضوا عليه وحملوه إلى شاور،
وأخرجت إليه خلع الوزارة وتم أمره، وأكرم شاور رزيك وصلب الذي
أتى به، ونادى عليه: هذا جزاء من لا يرعى الجميل، وكان للصالح إليه
احسان، وتفرق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك

بني رزيك، بأموال، وصار إلى حماه فأقام بها، واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردوها عليه، ثم أراد تقي الدين أخذها منه فقال: من العجب أن الفرنج تفي لي بردها وتأخذها أنت مني فكف عنه.

وكان لشاور ثلاثة أولاد: طي، والكامل، وسليمان، فتبسطوا على الناس فمجوهم، وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك، فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذوا منه ما أسلوا رزيك بن الصالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الوراره، وبلغ ذلك طيا، فدخل على أبيه فأخبره بهذا، ثم قال: تلاف حالك بقتلك رزيك، فأنكر عليه، فتركه ولده طي، ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور فقامت قيامته، ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحل فاه من الأمراء وزحفا بالعساكر إلى شاور، فانهزم وخرج من باب القاهرة، وهرب إلى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلها وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم وحفظ له جميلا، واستقر ضرغام في الوزارة، وخلع عليه ولقب بالملك المنصور، ثم بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه وكتبوا شاور وهو في الشام، فأخذ في أعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا، ولم يتعرض إلى أموالهم ولا لمنازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميرا، ويقال إنه جعلهم في توابيت، وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه وخروج دولة المصريين، لانه اضعف عسكر مصر بقتل الأمراء.

وأما شاور فإنه لما وصل إلى بصرى اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة إلى تلقيه، وأنزله بجوسق الميدان الاخير، وأحسن ضيافته، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أمر نور الدين لجماعة من أعيان دمشق أن يذهبوا

إليه ويسأله عن حاجته، فاجتمعوا به، وقال بعد كلام طويل: ان رأى نور الدين أطل الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فأجاب نور الدين الى ان يكون الاجتماع على ظهر الميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته في أحسن زي، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقى في وه . الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين الى قلعة دمشق، واخذ في وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الامر أنشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك ابن النحاس يظهر فيه الطاعة، فظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وأخذ جميع ما كان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار إلى مصر.

التاسع عشر: فيما يتعلق بأسد الدين.

ولما توجه أسد الدين إلى مصر وقرب منها نزل بمن معه على تل في الجوف قريب من بليس يعرف بتل بسط، وضربوا خيامهم هناك، ولما علم ضرغام بذلك جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجمع العساكر، وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر، وهو على يومين من القاهرة فإنهم لا يثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، فأمر ضرغام الأمراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر قال لشاور: يا هذا لقد غررتنا وقلت: إنه ليس

بمصر عسكر فجئنا في هذه الشريعة، فقال شاور: لايهولنك ماتشاهده من كثرة الجموع فأكثرهم الحماله والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب، وأما الامراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم وقف الفريقان مصطفىين من غير حرب، إلى أن حمي النهار، والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس فنزلوا على القاهرة وقتلوا أياما وارسل شاور الى العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وأما ضرغام فإنه خرج من باب زويلة، والعامه تلعه وتصبح عليه، فلحقه رجل من أهل الشام قطعنه وأرداه ونزل إليه وحز رأسه، وحمله إلى أسد الدين فصعب على أسد الدين، وأوجعه ضربا وأراد قتله، فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملها أخوا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم، وكان معتقلا فيها، وكذلك خرج معه القاضي الفاضل، وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيام، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه: شاور ثلاثين ألف دينار، وقال: ترحل الآن في أمن الله وودعته فلما سمع أسد الدين ذلك ارسل اليه: 'ن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيا عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، وقال شاور: أنا ماقررت شيئا، أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا الى الشام، وقد سيرت إليكم نفقة

فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين: انا لايمكنني مخالفة نور الدين ولا انصرف الا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق أبواب القاهرة، واخذ في الاستعداد للحرب، واستعد أسد الدين ايضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش الى بليس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، ويكون جميع ذلك في بليس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الأفرنج مري يستنجده ويقول له: ان أسد الدين طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصل في البلاد طمع فيها، ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يكن لكم معهم عيش ولاقرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار، وقرر له شيئا لقضيم دوابه وشيئا لاستباريته، فخرج مري من عسقلان في جموعه الى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرون ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة جاء إلى بليس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر، واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بليس وأحاط بها محاصرا لاسد الدين يياكر الحرب ويرأوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، فتشوش من ذلك، ثم عمل حيلة حيث جمع أعلاما للفرنج، وكان قد أخذها منهم وأعطاهم الى نجاب وقال له: تحيل حتى تدخل إلى بليس وتعطي هذه الاعلام لاسد الدين ينشرها على أسوار بليس، فإن ذلك مما يفت في اعضاء الكفار، ففعل ذلك، فلما رأى الأفرنج الاعلام خافوا على بلادهم وسألوا الاذن من شاور في الانفصال، فانزعج شاور لذلك واستمهل منهم أياما وجمع أمراء المشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل الامير شمس الخلافة بذلك، فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى، وأقام أسد الدين بظاهر بليس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصدا الشام، وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك خرج

يتربح خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، فأحسَّ أسد الدين بذلك، وسلك طريقاً من خلف المكان الذي هو فيه، وشق إلى الغور، وخرج إلى البلقاء، وسلمه الله منه، ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين، وأخبره بالاحوال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، وتبع من علم أنه بينه وبين أسد الدين معرفة أو صفة، وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشتين الكردي، وأقطعه شطنوف وقتل جماعة من أهل مصر وشرذ آخرين، ثم توجه أسد الدين في ربيع الأول لسنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية، وكتب أخباره، فما راع شاور إلا ورود كتاب مري يعرفه فيه بأن أسد الدين قصد ديار مصر وخرج عن دمشق، فطلب شاور منه إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على ما كان في العام الماضي، فسار مري في عساكر الفرنج إلى مصر، وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع به، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين، وعلم أسد الدين باجتماعهم على بليس، فنكب عن طريقهم وأم الجبل، وخرج على أطفح وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره، فسار في عساكره والفرنج صحبتته يقفون أثره، ولما علم أسد الدين بذلك اندفع من بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها، وعدى إلى البحر الغربي، وأدرك شاور بعض ساقته ومسقطي عسكره فأوقع بهم، وأحضر أيضاً مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الجعفريون واللاحيون القرشيون، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلف بالله وبكل يمين أني لأقيم ببلاد مصر ولا أعاد إليها أبداً، وما أساء منك إلا نصر الإسلام فقط، وهذا العدو قد حصل في هذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير فتجتمع معي نستأصل شأفته، وما

أظن ان يكون غنيمة أبدا في الاسلام مثل هذه، فقتل شاور الرسول وقال: ماهؤلاء فرنج هؤلاء فرج، ثم أعلم الفرنج بذلك، ونزل شاور بعد ذلك في اللوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجزيرة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك، كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل ادخاله الفرنج الى دار الاسلام، فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين ابن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيا، فظهر في هذه الفتنة، وكان قد أرسل الى أسد الدين خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف، ثم وصل الى أسد الدين رسول ابن مدافع وأخبره بقرب شاور، وبأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وماتقل حمله، وسار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة، فأمر بنهبها فنهب، وسار ليلا بالمشاعل حتى أتى على الأشمونين، وأمر عسكره أن يقفوا على تعبئة وأصبحوا على ذلك والتقوا، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة، وانهزموا وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين: فريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فداخلهم الضعف من هذا الطريق، ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا ان لا منجى لهم الا الصبر، فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلم تزل الحرب قائمة الى الليل، فولت عساكر الفرنج والمصريين الادبار، وكاد ملك الفرنج مري أن يؤسر، وصار شاور ومن معه الى منية ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم الى الاسكندرية فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسره، وكان فيها ابن الزبير متوليا ديوانها، فحمل الى أسد الدين الأموال وقواه بالسلاح، وخاف أسد الدين أن يحصره شاور والفرنج، فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر، ومن به مرض أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية، ورحل في أقوىاء العسكر قاصدا الى الصعيد، ونزل

الفرنج وشاور على الاسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال، ولما سار أسد الدين بالصعيد حصّل من تلك البلاد أموالاً عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام رمضان، واتصل به اشتداد الأمر على الاسكندرية فرحل من قوص الى جهتها، واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد، وبلغ ذلك شاوراً، فرحل هو والفرنج واضطروا الى الصلح، وضجرت الفرنج أيضاً، وتوسط ملك الأفرنج في ذلك، فتقرر أمر الصلح على أن شاوراً يحمل الى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفارة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم الى بلاده، وطلب صلاح الدين من ملك الأفرنج مركباً يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ اليه عدة مراكب.

قال الشريف الإدريسي: كنت في الجملة ممن خرج في المراكب، فلما وصلنا الى ميناء عكا اخذونا واعتقلونا في معصرة القصب الى أن وصل الملك مري فأطلقنا، فخرجنا الى دمشق، وخرج صلاح الدين من الاسكندرية [الى عمه] ثم سارا من بلاد مصر وفي قلب أسد الدين من مصر، لما شاهدها وشاهد من مغلاتها.

العشرون: في ذكر عود الفرنج إلى مصر، وعود أسد الدين إليها وما جرى بعد ذلك.

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين طمع مري ملك الأفرنج في مصر فعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الداوية والاستبارية فأجابوا إلى الخروج معه، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخياطته وفرق قراها على أجناده، وكان اللعين لما دخل ديار مصر أقام من أصحابه من كتب له أسماء القرى جميعها، وتعرف له خبر ارتفاعها، ثم سار حتى نزل الداروم، فلما سمع شاور بذلك قامت قيامته وأرسل أميراً من أمرائه يقال له بدران فسأله عن

سبب مجيئه فتلكاً عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضىخة على أن يوري عنهم ولايكشف لشاور حالهم، ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم الحيلة على المصريين ويعلم شاورا إنه انما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما سمع شاور بذلك أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار، وقال له: بدران غشني ولم ينصحنني وأنا واثق بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مري، وكان بينهما مؤانسة، فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغدار، والا ماالذي أقدمك الينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى زوج أخت الملك الكامل ابن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض العهد، فقال له الملك: القول الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على آرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخننا من ذلك، فخرجنا نتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة: فأى شيء طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له الملك: نحن ننزل على بليس إلى ان تعود، ثم انه سار خلفه لايلوي على شيء حتى خيم على بليس في شهر صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم: علم الملك ابن النحاس، وابن الخياط يحيى وابن قرجلة، ثم قاتل بليس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب أكثرها، وأحرق جل أدرها، ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد، وحمل في وسطهم برمح ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته قد أطلقتمكم شكرا لله عز وجل على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فأنني قد ملكتها بلاشك، ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل إلى جهة مينة حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى

فاقتسموهم، وبقي أهل بلبس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في ملك الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير، والملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبس على كثرته على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبس بخراجهم إلى آخر أيامه.

ولما جرى ذلك وبلغ شاور، اجتمع بالعاضد وقال: إن البلاد قد أخذت منا فاكتب إلى نور الدين واطلب منه العونة، فكتب جميع ذلك، وسخّم شاور أعالي الكتب بالمداد، ولما بلغ نور الدين ذلك انزعج انزعاجاً عظيماً وانفذ أسد الدين وكان من ذلك ما ذكرناه.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وبلغ أجرة الجمل ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهب واحرقّت مصر في تاسع رجب كما ذكرنا، ثم إن الأفرنج نزلوا في بركة الحبش وتخطفوا من ظفروا به، ثم رحلوا فنزلوا على باب البرقية نزولاً قاربوا به البلد حتى صارت سهام الجرح تقع في خيمهم، فقاتلوا البلد أياماً، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة إلى أن تصل عساكر الشام، فأنفذ إلى مري لعنه الله رسالة طويلة وفيها: إن هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه إليك ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وماتعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة، والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصل شيئاً ادفعه لك، واستقرت المصانعة على أربعمائة ألف دينار، وقيل ألف دينار، فعجل له منها مائة ألف دينار فأجاب مري إلى ذلك، وانعقدت الهدنة، ورحل إلى بركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار، ثم أخذ يماطله بالباقي انتظاراً لقدوم العساكر، ويوهم أنه يجمع الأموال، فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهم، فلما رأوهم رحلوا إلى بلبس، ونزل أسد الدين بالمقس، ثم رحل ملك الأفرنج ونزل على فاقوس، واتبعه أسد الدين ونزل على بلبس، ثم لما رحلت

الفرنج بالكلية نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق، وأخرج إليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ثم بعد ذلك جرى مذكرنا في الابواب الماضية.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن نور الدين محمود بن زنكي ملك قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام ملكشاه، وهي من أمنع القلاع مطلة على الفرات من الجانب الشرقي وسبب ملكه إياها أن صاحبها نزل يتصيد فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه الى نور الدين في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به إلى الشدة والعنف وتهده فلم يفعل، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه فخر الدين مسعود بن ابي علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء، فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين ابن الداية، وهو رضيع نور الدين وأكبر أمرائه، فحصرها أيضا فلم يبد لها فيها مطمع فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه بأن يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر بنفسه في حفظها فقبل قوله وسلمها، وأخذ العوض عنها: سروج وأعمالها، والملاحاة التي من بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، وكان مالك العقيلي هذا آخر بني مالك بالقلعة المذكورة.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

ياروق بن ارسلان التركماني: توفي في هذه السنة، وكان مقدما كبيرا واليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة، وكان

يسكن بظاهر حلب، وبنى على نهر قويق هو واتباعه عمائر كثيرة، وتعرف الآن بالياروقية، وهو مشهور هناك.

وقال ابن خلكان: ياروق بن ألب ارسلان التركماني، كان مقدما جليل القدر في قومه، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبليّة، وبنى على شاطئ نهر قويق، فوق تل مرتفع هو وأهله واتباعه ابنية كثيرة وعمائر متسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي مسكونة أهلة يتردد أهل حلب إليها في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضر، وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والانس، وياروق بفتح الياء آخر الحروف، وبعد الالف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي آخره قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء آخر الحروف، وفي آخره قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف.

مجير الدين أبى بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مات في هذه السنة ببغداد، ودفن بداره التي عند النظامية، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والستين بعد الخمسة

استهلت هذه السنة والخلقة هو المستنجد بالله، وصاحب مصر العاضد، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد كتب الى نور الدين محمود بن زنكي يستنجد على الفرنج لانهم حاصروا مدينة دمياط في صفر من هذه السنة خمسين يوما بحيث ضيقوا على أهلها وقتلوا منهم خلقا لا يحصون، وهم في أمم لا يحصون كثرة، قد اجتمعوا من البر والبحر

رجاء ان يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف.

وكتب صلاح الدين الى نور الدين يطلب منه ان يرسل اليه بامداد من الجيوش فانه ان خرج من مصر خلفه اهلها بسوء، وان غفل عن الفرنج اخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم يتقوون به على اخذ مصر، فارسل اليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضا، واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد اليها في جيشه فجاس خلال الديار، وقتل من رجالهم وسبى من نسائهم واطفالهم شيئا كثيرا، واجلت الفرنج عن دمياط لانه بلغهم ان نور الدين رحمه الله قد حصر بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم وسبى كثيرا من نسائهم، وغنم مالا جزيلا من اموالهم.

ولما اجلت الفرنج عن دمياط فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحا شديدا، وانشد الشعراء في ذلك كل منهم قصيدا.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها، وذلك أن أسد الدين لما ملك مصر خاف الفرنج بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال فنزلوا دمياط ظنا أنهم يملكونها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برا وبحرا، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك، ويشكو إليه أنه إن خرج من القاهرة ما يأمّن أن تنقض الشيعة أمرنا، فسير إليه نور الدين عسكرا نجدة، وسار بنفسه لقصد الفرنج، فصعد إلى الكرك وحاصرها، وجاءت الفرنج، إلى بيسان، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم، فرجعوا إلى عكا، فعاد نور الدين إلى دمشق، ولما سمع الفرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا واشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار

من المسلمين، واسروا صاحبه، وكان مملوكا لنور الدين يسمى ختلج العلم دار وأولاده.

وفي المرأة: وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر، وجدوا في القتال وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمجانيق، ويزحفون اليها ليلا ونهارا، ووجه اليها صلاح الدين العساكر مع شهاب الدين خاله، وطلب من العاضد مالا فبعث اليه بشيء كثير، فكان صلاح الدين يقول: مارأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

واشعل نور الدين بلاد الفرنج بالغارات، ووقع فيهم الفناء فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير وكان رحيلهم في ربيع الآخر، وفي شعبان سار نور الدين الى الكرك فنازله وضربه بالمجانيق، واجتمع ملوك الساحل وجاءوه، فتأخر الى البلقاء.

وقال القاضي ابن شداد: لما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان، وقصده فرنج الساحل فرحل عنها، وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الداية بحلب في رمضان فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيرا من البلاد، وسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط، أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال الفرسان والميرة والآلات والسلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالف في العطايا والهبات، وكان وزيرا متحكما لايرد امره في

شيء، ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين رحلوا خائين خاسرين، فأحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد، بحمد الله تعالى.

وقال العماد: وأقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان إلى دمياط فدخلها، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها، وابتصل الحصار، وتواصلت الأنصار، ودب في الفرنج الفناء وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي عشرين من ربيع الأول.

قال صاحب تاريخ الدولتين: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لاستحي من الله تعالى أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة فقال: يارسول الله ربها لا يصدقني فأذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولا تنصر محموداً، ومن هو محمود الكلب حتى تنصره، قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغلس ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: أذكر العلامة كلها، والحق علي في ذلك، فقلتها

فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا، وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل
الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وأرسل نور الدين الى العاضد كتابا يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر
دمياط، وقد كان ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك في مصر،
والاقتصار على أسد الدين وألزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين
يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليه الا لعلمه بأن
قنطاريات الفرنج ليس لها الا سنهام الاتراك، فان الفرنج لا يرعبون الا
منهم، ولولاهم لزداد طمعهم في الديار المصرية ولحصلوا منها على
الامنية، فلعل الله ان ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التي
لا تحصى ولعمارة اليمنى قصيدة منها قوله:

من شاكر والله اعظم شاكر
ما كان من نعمى بنى ايوب
طلب الهدى نصرافقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلب
جلبوا الى دمياط عند حصارها
عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة
لو لم يجلوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها
عتقاؤهم من نازح وقريب

ان لم تظن الناس قشرا فرغا
وهم الباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتان الشاغوري من قصيدة:

- ١١١١٠ -

مصرييوسفهاأضحت مشرفة
وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها
فللمصالح من أيامه نمط (١٢)

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه أبطل الأذان بمصر «حي على خير العمل» وأمر صلاح الدين أن يذكر في الخطبة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ومنها أن شهاب الدين محمد بن ايلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة، سار في عسكره، وهوماتا فارس الى نور الدين، وهو بعشتر، فلما وصل الى قلعة اللبوة من عمل بعلبك ركب متصيذا، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد شنوا الاغارة على بلاد الاسلام فانفصلوا واقتتلوا فانهمز الفرنج، وأكثر شهاب الدين فيهم القتل والاسر، فلم يفلت منهم الا من لا يعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى الى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر للقائه، وكان في جملة تلك الرؤوس رأس مقدم الاستار صاحب حصن الاكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، ولانه كان شجا في حلوق المسلمين، وكذلك ايضا كان فيها رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازدادوا سرورا، وكان ذلك في سابع عشر شوال من هذه السنة.....

ومنها أن في ليلة عيد الفطر رزق السلطان صلاح الدين ولده الملك الافضل نور الدين علي، وفرح به فرحا عظيما، وخلع واعطى وتصدق بها بهر به العقول.

ومنها أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان مسيره من دمشق

الى ولده صلاح الدين بمصر في هذه السنة وقد ذكرناه في السنة الماضية،
ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم في ذلك قوله:
في مشرق المجد نجم الدين مطلعته
وكل أبناءه شهب فلا أفلوا
جاءوا كي عيوب والاسباط إذ وردوا
على العزيز من ارض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزع ولا زلل
وملكوا ملك مصر في شاخته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

ومنها ان نور الدين رحمه الله خرج في هذه السنة إلى داريا فأعاد
عمارة جامعها، ومشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

قال في المرأة: وفي هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم
الآن، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني فأحرقه الفرنج لما نزلوا على
داريا في أيام مجير الدين أبى، فعمر نور الدين - في هذه السنة - هذا
الجامع في وسط القرية.

ذكر الأمور المزعجة:

منها الزلزلة الكبرى:

قال ابن الأثير : وفي ثاني عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة
عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة
والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت
بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها،
وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد

والاحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد وبخراب أسوارها وخلوها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج، ولاسيما بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا، ثم أتى إلى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها قد أتت عليها، وكانوا لا يقدرُونَ يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهرها من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال ما لا يقدر قدره.

وأما بلاد الفرنج - خذلهم الله - فإنها أيضا فعلت فيها الزلزلة قريبا من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الافرنج المجاورة لبعرين كحصن الاكراد وصافيتا والعريمة وعرة وقد وافقت الزلزلة الفرنج يوم عيدهم في الكنائس، ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ [النحل ٢٦]، وذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة:

هل لعاني الهوى من الأسر فادي
ولساري ليل الصبا بهادي

- ١١١١٣ -

جنبوني خطب البعاد فسَهَل
كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من الين حتى
صاح يوم الاثيل بالين حادي
قد حللتهم من مهجتي في السويدا
ومن قلبي محل السوواد

إلى أن قال:

أتمنى بالشام أهلي ببغداد
وأين الشام من بغداد
وما اعتياضي عن جبههم يعلم الله
تعالى الا بحب الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العادل
محمدود الكرريم الجواد
أنا منه على سريهر سروري
راتع العيش في مراد مرادي

إلى أن قال:

هم نعم الملاذ من نائب الدهر
ونعم المعاذ عند المعاد
جل رزء الفرنج فاستبدلوا من
به بلبس الحديد لبس الحديد
فرق الرعب منه في أنفاس الكف
أربين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأرض
وهدت قواعدا الطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس
تركتهم صرعى صروف العوادي

- ١١١٤ -

خففت من قلاعها كل عال
وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض
مظهر سر غيبه فهو وبادي

وفي المرأة: وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا أخرجت قلاع المسلمين
وبلادهم بالشام وحلب والعواصم وأنطاكية، ونزلت الى اللاذقية وجبلة،
وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل
أصابه حجر وهو على درج جيرون لان أهلها خرجوا الى الصحراء، ثم
امتدت الزلزلة، وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وسنجار ونصيبين
والرها وحران والركة وماردين وغيرها، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة
وجميع بلاد العراق، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم.

ومنها نزول الافرنج على دمياط وقد ذكرناه مفصلاً...

**فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والستين
بعد الخمسة:**

ماجريات نور الدين محمود:

وهي أنه سار الى الرقة فأخذها، وكذلك نصيبين، والخابور، وسنجار،
وسلمها الى زوج ابنته ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي،
ثم سار الى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يوماً وأقرها لابن أخيه سيف
الدين غازي بن مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الاخرى، وأمر بعمارة
جامعها وتوسعته ووقف على تأسيسه بنفسه وجعل له خطيباً ودرسا
للفقه، وولى التدريس للفقير أبي بكر البرقاني تلميذ محمد بن يحيى تلميذ
الغزالي، وكتب له منشوراً بذلك، ووقف على الجامع قرية من قرى
الموصل، وذلك كله بإشارة الشيخ الصالح العابد عمر الملاء، وكانت له

زاوية يقصد فيها، وله في كل سنة دعوة في شهر المولد، يحضر عنده الملوك والامراء والعلماء ويحتفل بذلك، وقد كان الملك نور الدين صاحبه يستشير في اموره ومايعتمده من المهمات، وهو الذي أشار عليه في مدة مقامه بالموصل بجميع ما فعله من الخيرات، وأسقط عنهم المكوسات والضرائب، وأخرج من بين أهلها الظالم الغاشم فخر الدين عبد المسيح، وسماه عبد الله، وأخذ معه الى دمشق، فأقطعه اقطاعا حسنا وكان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهر الاسلام، وكان يقال: ان له كنيسة في جوف داره، وكان سيء السيرة في حق العلماء. وخاصة المسلمين، وكان نور الدين لم يدخل الموصل حتى قوي الشتاء فأقام بها كما ذكرنا أربعة وعشرين يوما، فلما كان آخر ليلة أقام بها، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال اعداء الله، فنهض من فوره الى السفر، وما أصبح الا وهو سائر الى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان على سنجار ونصيبين والخابور فاستناب فيها ابن أبي عصرون نوابا من أصحابه.

وفي تاريخ بيارس: وفي هذه السنة اتصل بنور الدين أن شهاب الدين غازي ابن أخيه صاحب الموصل قد فوض أموره الى فخر الدين عبد المسيح، وأنه استولى وقام بالامر وتحكم، فأنف لذلك وكرهه وعظم عليه لانه كان يبغض فخر الدين المذكور لما بلغه من خشونة سياسته، وقال: انا أولى بتدبير اولاد أخي، وسار عند انقضاء الغزاة جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك نصيبين، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا، وكثر جمعه، وكان قد ترك عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المناجيق وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين، وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول إليهم، فسار الى

الموصل فأتى مدينة بَلَد، وعبر الدجلة فسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى، ويوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي ابن أخيه قد أرسل عز الدين مسعود بن قطب الدين أخاه إلى أتابك شمس الدين، أيلدكز صاحب همدان وأذربيجان وبلد الجبل وأصفهان والري وتلك الأعمال يستنجد به على عمه نور الدين، فأرسل أيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهيه عن التعرض للموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لآلاد أخى منك، فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همدان، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا بالفرنج، وهم أشجع العالم، ولي مثل ربع بلادك، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم ولا يحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا حفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

وعزم من بها من الأمراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد لنور الدين، فعلم ذلك فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد إليه على أن يقر بيد سيف الدين غازي، ويطلب لنفسه الأمان، فأجابه إلى ذلك وشرط أن يأخذ فخر الدين معه إلى الشام، ويعطيه عهده اقطاعا يرضيه، فسلم البلد في جمادى الأولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر، ثم وهب الموصل لسيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر بعمارة جامعها، ورتب فيها خصيا له يقال له كمشتكين، وأمره بأن لا ينفرد عن سيف الدين غازي بقليل من الأمور ولا بكثير، وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يوما، وعاد إلى الشام.

وفي تاريخ الدولتين: وجعل نور الدين سعد الدين كمشتكين دزدارا في قلعة الموصل، ثم قسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده

بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخلها خلعها على سيف الدين.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال: أنست بك، وأمنت إليك، وأنا غير مختار لفرقتك، وأمره ان يروح في الرسالة الى الخليفة، فمضى وسار على البرية بخفير من بني خفاجة، فوصل الى الخليفة، وقضى حاجته، ثم رجع الى نور الدين، وهو يحاصر سنجار، فأخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

قال: وحضر مجاهد الدين قياز صاحب اربل الى خدمة نور الدين بالموصل.

ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب:

منها: أن صلاح الدين عزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، واستتاب في سائر الاعمال شافعية.

وفي تاريخ قضاة مصر: ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمداني الماراني الكردي الموصللي، وكان قاضي الغربية، قدم من المشرق الى مصر فولاه صلاح الدين رحمه الله، وكان عنده بمكان.

وفي تاريخ الدولتين: ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ومنها: ان صلاح الدين خرج الى الغزاة واغار على الرملة وعسقلان،
وهجم ربض غزة، ثم رجع الى القاهرة.

وفي تاريخ بيبس: في هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير الى
الساحل غازيا، فمضى واغار على عسقلان والرملة، فأتاه ملك الفرنج
فقاتله وهزمه، ونجا بنفسه، ثم رجع الى القاهرة.

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق
فيها أهله، فأشفق عليها، وأحب ان يجتمع بها شمله، فخرج في النصف
من ربيع الاول، وكانت بأيلة قلعة في البحر، قد حصنها أهل الكفر،
فعمر لها مراكب حملها الى ساحلها على الجمال، وركبها الصنائع هناك
وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الاول من ربيع الآخر، واستحلها
واستباح بالاسر والقتل أهلها، وملاها بالعدد والعدد وحصنها بأهل
الجهاد والجلاد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة،
ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الاولى.

ومنها أنه سار الى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان
ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه،
وعم أهلها باحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

ومنها انه كان بمصر سجن يعرف بدار المعونة، فهدمها صلاح الدين،
وبناها مدرسة للشافعية، وبنى بها أيضا مدرسة للمالكية، وكانت دار
العزل، وكان ذلك في النصف من محرم هذه السنة، واشترى ابن أخيه
تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارا كانت تعرف بمنازل العز،
فجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة وحمام الذهب وغيرها،
وكان ذلك في النصف من شعبان، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار
شمس الدولة أخو السلطان على العربان بالصعيد، ثم دخل القاهرة في
عاشر شهر رمضان.

ومنها أن صلاح الدين شرع في هذه السنة في عمارة سور القاهرة لانه كان قد تهدم اكثره وصار طرقا لا يرد داخلا ولا خارجا، وولى أمره لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الاذان «حي على خير العمل» وشرع في تمهيد اسباب الخطبة لبني العباس كذا ذكره ابن أبي طي.

ومنها أن شمس الدولة طلب من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وزاد على اقطاعه نويش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

ومن جملة الحوادث في هذه السنة أن في نصف شعبان هبت ريح شديدة عظيمة، ورعدت السماء بقعقة لم يسمع بمثلها، فخر الناس على وجوههم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والخليفة بمصر العاضد، والوزير بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ولكنه في الحقيقة سلطانها، وليس لأحد معه كلام لا من أمرائها ولا من أعيانها، والعاضد تحت حكمه وقهره، ومع هذا قطعت الخطبة باسمه وخطب باسم المستضيء الخليفة، وعقيب ذلك مات العاضد، والكلام فيه مفصلا على أنواع:

الأول: في قطع خطبته:

قطعت خطبته من ديار مصر في محرم هذه السنة، وسبب ذلك ان صلاح الدين لما ثبت ملكه في البلاد، وأمن السودان والأجناد، وضعف أمر العاضد، وصار قراقوش حاكما في قصره، كتب نور الدين إلى صلاح

الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، وقطع خطبته، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، وكان المستضيء قد راسله في ذلك، ولما وصل رسول الخليفة الى نور الدين بذلك سيرنور الدين كتاب الخليفة وكتابه إلى صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأهله والخطبة للامام المستضيء فجمع صلاح الدين الامراء وشاورهم في ذلك، فمنهم من خوفه، ومنهم من هون عليه، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليسع الجامع يوم الجمعة سابع المحرم وصعد المنبر قبل طلوع الخطيب، ودعا للامام المستضيء فلم ينكر أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضيء.

وفي تاريخ الدولتين: استفتح صلاح الدين سنة سبع وستين وخمسمائة بإقامة الخطبة في الجمعة الاولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها.

وقال فيه أيضاً: إن صلاح الدين لما تمكن في الديار المصرية وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك ليلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك الزاماً لا فسحة فيه، واتفق ان العاضد مرض، واستشار صلاح الدين الامراء فاختلفوا فيه كما ذكرنا، وكان قد دخل في مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم.

قال ابن الأثير: وقد رأيناه بالموصل كثيراً، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: انا ابتدء بها، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد عليه ذلك، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح

فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الايام التي قد بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بذلك على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ولما انتهى الخبر إلى نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة ببغداد يعلمه بذلك مع شهاب الدين أبي المعالي بن أبي عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحا شديدا، وكانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

وقال ابن الجوزي: ووصل يوم السبت ثاني عشرين المحرم ابن أبي عصرون رسولا يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر وضربت السكة باسمه، وخلع على الرسول وأنكمدت الروافض، وقد صنف في هذا كتابا سميته «النصر على مصر» وعرضته على الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

وقال العماد: وشيع نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وأمرني بإنشاء بشارة عليه، تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام في مدينة السلام.

قال: ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:

قد خطبنا للمستضيء بمصر

نائب المصطفى إمام العصر

وخذ لنا النصر العبد الع

اضد والقاهر الدين بالقصر

وأراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء.

وقال العماد في الخريدة: قصدت بالعضد والعضد المجانسة ونصرة
وزير الخليفة كنصرته ثم قال:

وأشعنا بها شعاعاً بنبي العباس
فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا المدعي يدعو ثبورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطب
لله شامي في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله
وجلست عن كل عد وحصر

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين
صندل - وهو من أكابر الخدم - المقتفوي، ومعه الشريف لنور الدين
والكتاب للعماد ليقرأه، فتناوله منه الموفق ابن القيسراني وكان عنده في
مقام الوزير، فقرأه.

وذكر في «عبرة أولى الأبصار»^(١٣) أن الخليفة سير إلى نور الدين الخلع
ومعها سيفان، إشارة إلى تقليد مصر والشام، وسير معها طوقاً زنته ألف
دينار، وبعث أيضاً إلى صلاح الدين تشرifa أقل من تشرifa نور الدين،
فلبس صلاح الدين ذلك التشرifa، فركب به في الديار المصرية، وهي
أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بني عبيد عليها،
وأما نور الدين فكذلك لما لبس التشرifa خرج إلى ظاهر دمشق حتى
انتهى إلى الميدان الأخضر، ثم عاد.

الثاني: في كتاب صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بخط القاضي
الفاضل يهنيه بفتح مصر، أوله:

﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ [ياسين ٥٨] ﴿يشرهم ربهم برحمة منه
ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ [التوبة ٢١] وصلوات الله التي
تنزل بها الروح الأمين وتشيعها الملائكة بالتأمين على مولى الأمة ومولى
النعمة، ووالي الامر المصون بقاؤه في عقبه، وولي الله الذي ﴿لاخوف
عليهم﴾ [البقرة ٢٦٢] ولاخوف به، الخليفة على الحقيقة، والامام الذي
يحمي من دون الله الحقيقة على الحقيقة، ووارث السقايتين: زمزم
والكوثر، والولائتين: السرير والمنبر، والدعائين: اليوم وفي المحشر،
والشرفين: المشعر والمعشر، والطرفين: المشهد الاول والمشهد الاكبر،
والمقامين: مقام ابراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما وسلم أبدا سرمدا،
والشعارين: الابيض في القلب والاسود في اليد، والخلدين: في دار
السلام ودار السلامة، والموطنين: مقام الامامة ودار المقامة، والشفاعتين:
سالف في أهل العمار، وآنفا في أهل النار، والسلامين: سلام لكم من
السنة الابرار و﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد ٢٤]
على الخليفة ابن الخلائف، على رغم من رضي أن يكون مع الخوالف،
وابن الأئمة المشهورين في المناظر والمواقف .

مولينا ومولانا الامام المستضيء بالله أمير المؤمنين، صلوات الله على
تلك الأنوار القدسية يتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية، والحمد لله
الذي وفي الدين دينه المسؤول، وأغمد عن أهله سيف الفتنة المسلول،
فأورث أمير المؤمنين حقا كان به ممطولا، وأطال يده إلى استيفاء طائلة
كان دم الحق بها مطلولا، وكتاب المملوك صادر الى المقر الأشرف
الأصيل، من شرفه لشرف الرسول رسيل، والاسم الشريف المستضيء به
قد صدحت منابره وعروش، وطرزت المدائن والملابس والدنانير

والدراهم رقومه ورقوشه، وجهزت إلى بلاد الكفار في العام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه، والزمن قد وقرته السكينة لا الوجوم، والكواكب قد همت بأن تتساقط ايشار الضرب لا ايشار الرجوم، ونشأة الدعوة المنيفة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ما أجمله، وتحصيل ما منعته الجلالة أن يستوفيه ويستكملها، راجيا أن يناله من الملاحظات النبوية ما يجعل له سلطانا، ويمكن في قلوب الاعداء والاولياء مكانا، حتى يحفظ على الخلافة من لا يعنيه الا إياها، وينفذ على الثقيلين في الخافقين أوامرها وقضايها، ويستضيف لها نصرا الى نصر، ويستنجز لها ما كتب ﴿في الزبور من بعد الذكر﴾ [الأنبياء ١٠٥]، نوه الله باسم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى، وطبق بدعوته المعمورة حتى لا يستثنى مكان بالأا، وقلص به الامة ضلالة ومد عليه ظلا، ان شاء الله تعالى.....»

وفي أيام العاضد وصل اسطول الفرنج الى الاسكندرية، وكان معهم من الخيل الف وخمسمائة فرس، وفي الاسطول ثلاثون ألف مقاتل في مائتي شيني، ومعهم آلات الحرب والحصار، ومعهم أربعون مركبا اخرى تحمل الازواد، وفيها من الرجال والغلمان تمة خمسين الف رجل، وكشفوا المسلمين عن البر، وطلعوا فضربوا خيامهم وكانت ثلاثمائة خيمة، وحاصروا الاسكندرية أياما، ففتح المسلمون أبواب المدينة بالليل وكبسوا الفرنج على غفلة فأفنؤهم قتلا وأسرأ، وغنموا جميع ما أحضروه، وغنموا بعض المراكب واحرقوا بعض المراكب الباقية.....

الثامن: فيما جرى بعد موته.

قال ابن كثير رحمه الله : لما مات العاضد، استحوذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردهاهم، وأجرى عليهم الارزاق والنفقات الهنية عوضا عما فاتهم من

الخلافة، واستعرض حواصل القصرين، فوجد فيها من الحواصل والامتعة والآلات والثياب والملابس شيئا كثيرا باهرا، وأمرا هائلا، فمن ذلك سبعمائة يتيمة من الجواهر وقضيب زمرد طوله اكثر من شبر وسمكه نحو الابهام، وجبل من ياقوت، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، وطبل للقولنج، فاتفق أن بعض أمراء الاكراد اخذه في يده، ولم يدر ما شأنه، فلما ضرب عليه حيق فألقاه من يده فكسره فبطل أمره، وأما القضيب الزمرد فان السلطان كسره ثلاث فلق فقسمه بين نسائه، وقسم بين الامراء شيئا كثيرا من قطع البلخش والياقوت والذهب والاثاث وغير ذلك، واستمر البيع فيما كان هنالك من الاثاث والامتعة نحو من عشر سنين، وأرسل الى الخليفة ببغداد هدايا عظيمة سنية، وكذلك الى الملك العادل نور الدين، وأرسل إليه جانبا كبيرا صالحا، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واجد وثلاثون مثقالا، والاخرى ثمانية عشر مثقالا والثالثة دونهما، مع لآلىء كثيرة وستون ألف دينار وعطر لم يسمع بمثله، ووجد في القصر أيضا خزانة كنب ليس في دار الاسلام مثلها تشتمل على نحو ألفي ألف مجلد، ومن عجائب ذلك انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري^(١٤).

وقال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبا من مائة وعشرين ألف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، وأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قال: وقسم القصر الشمالي بين الامراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في قصر عظيم على الخليج، الذي يقال له اللؤلؤة، الذي فيه بستان الكافوري، وسكن أكثر الامراء في دور من كان ينتمي الى الفاطميين، وصار لا يلقي أحد من الاتراك أحد من أولئك الذين كانوا بها من الاكابر الا شلحوه ثيابه ونهبوا داره حتى تمزق كثير منهم في البلاد وتفرقوا شذر مذر، وصاروا أيادي سبا.

وقال ابن أبي طي: ولم يوجد في القصر من المال كثير، لان العاضد قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات العديدة، ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، فانفذه السلطان الى بغداد.

وجعل السلطان أهل العاضد في موضع خارج القصر، وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حراً، وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الأمراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوب وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستائة ألف كتاب، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الايام بجملتها بعد ان كانوا قد احتوا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريباً من العاضد، يجلس معه ويحدثه، عمل دعوة لشمس الدولة ابن أيوب أخي السلطان، بعد القبض على القصر وأخذ مافيه، وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء، فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم، قال: نعم طلبني العاضد يوماً

وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليها أقيية مثل أقييتكم وقلانس مثل قلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ماهذا الزي، الذي مارأيناه قط؟ قال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا.

وفي تاريخ الدولتين: أخبرني أبو الفتوح أن السلطان جعل أهل العاضد في دار برجوان، في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها وأبعدوا عنها.

التاسع: في ذكر كتاب كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين الى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين أبي المضاء:

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الائمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالى الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد، بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما، وأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا، والخلافة إذا ذكرها أهل الخلاف لم ينجروا عليها صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الامة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الختوف، ونشرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نشر الاقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آتيهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحققت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس

السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير اليهم بنائم، ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر إلى أن يشكر مانصحه، ويقلد مافتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدم حقه ولا يطرح، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفة، وتواصل إليه امداد التقديمات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل عروته بما وصل من عروة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسل اليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها، وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النجعة من سحابها، ووعد آماله الوثيقة بجواب كتابها، وأنهض لا يصال ملطفاته، وتنجز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالامر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الاعظم، املا انه يعود اليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه.....»

ذكر ماجريات نور الدين:

منها أن نور الدين استدعى ابن أخيه صاحب الموصل، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقه فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره وخرج الى عرقة ونازلها وقتلها أياما حتى فتحها واحتوى على مافيها كلها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

وقال ابن الأثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الافرنج

من اللاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم باعادة ماأخذوه فغالطوه واحتجوا بأمر لاطائل تحتها، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فاخذهما وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعركة، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثلما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ماأخذوه من المركبين وتجدد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم.

ومنها أن نور الدين أمر في هذه السنة باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته وبعدت بلاده، وكانت من حد النوبة الى باب همذان لايتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم قد بلغوا الغرض، فحيثئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده واجرى الجرايات لها ولميرتها، فوجد بها راحة كبيرة، كانت الاخبار تأتيه لوقتها، لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوا لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو فيها في ساعته فتقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه، فأنحفظت الثغور بذلك.

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين باسقاط المكوس

والضرائب عن أهل مصر والقاهرة، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس
الاشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر من هذه السنة، والذي
اشتملت عليه المساحة في السنة من العين مائة ألف دينار.

وفي تاريخ الدولتين: قرئت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر على
المنبر بالقاهرة في التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر في أيام نور
الدين، فهو كان الأمر، وذاك المباشر.

ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين:

وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة بلاد الافرنج في السواحل،
فأحل بهم بأسا شديدا، ثم عزم على محاصرة الكرك، وكتب الى صلاح
الدين أن يلاقيه بالعساكر المنصورة الى بلاد الكرك ليجتمعا هناك على
المصالح فيما يعود نفعه على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين،
وخاف أن يكون لهذا الامر غائلة يزول بها ما حصل له من التمكين،
ولكن ركب في جيشه من الديار المصرية ليقصد امثال المرسوم، فسار
أياما، ثم كرّ راجعا معتلا بقلّة الظهر والخوف من اختلال الديار المصرية
إذا بعد منها، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور
الدين، فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه، وعزم على الدخول الى
الديار المصرية وانتزاعها من يد صلاح الدين وتولية غيره فيها، ولما بلغ
هذا الخبر الى صلاح الدين ضاق ذرعه بذلك، وذكره بحضرة الامراء
والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر فقال: والله لو قصدنا نور
الدين لنقاتلنه، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين
يوسف وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ما أقول لك، والله ما هاهنا أحد
أشفق عليك مني، ومن خالك هذا - يعني شهاب الدين الحارمي - ولو
رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الارض بين يديه، ولو كتب الي
ان ابعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف

والذهاب، فلما خلا بابنه قال: أمالك عقل، تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء، ويقول ابن أخيك مثل هذا الكلام، وتقره عليه، فلا يبقى عند نور الدين وجه أهم عنده من قصدك وقتالك، ولكن ابعث إليه وترقق له، وتواضع له، وقل: أي حاجة إلى مجيء مولانا، ابعث إلي بنجاب أجيء معه إلى بين يديك، فانك اذا فعلت هذا تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله تعالى، ففعل صلاح الدين ذلك، وكان كما قال نجم الدين أيوب: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الاحزاب ٣٨].

وقال العماد: وكان صلاح الدين واعدته نور الدين أن يجتمعا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم، فلقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الاول.

وفي تاريخ بيارس: تجهز صلاح الدين من مصر إلى الكرك، وكان قد قدر مع نور الدين أن يخرج من دمشق ويجمعا على غزو الافرنج، فسبق صلاح الدين، وخرج نور الدين من دمشق، فأوجس صلاح الدين في نفسه خيفة منه أن يعزله عن مصر ويوليها غيره، فرجع عائدا وقد بقي بينه وبين الكرك مسافة قريبة، وأرسل إلى نور الدين رسولا وأصبحه هدايا كثيرة، وتحفا جليلة، وكتب إليه يعتذر بأن والده ضعيف، وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكاري، فلاطفه نور الدين وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الدين: حفظ مصر عندنا أهم من غيرها، وفطن لما قصده برجعته، وعز ذلك عليه في باطنه.

وقال ابن الأثير: لما نصح نجم الدين ولده صلاح الدين وأشار عليه بأن يرسل رسولا إلى نور الدين يستعطفه، فأرسل إليه بذلك، عدل نور الدين عن قصده، وكان من جملة ما قال نجم الدين لولده صلاح الدين: الايام تندرج، والله كل وقت في شأن، وكان الامر كما قال، توفي نور

الدين، ولم يقصد صلاح الدين، ولا أزاله، وكان هذا الرأي من نجم الدين من أحسن الآراء وأجودها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والستين بعد الخمسةائة:

ذكر ماجريات نور الدين:

منها: أن نور الدين برز إلى الفرنج وكانوا قد اجتمعوا بالشام لقصد مدينة زرا، فوصلوا إلى سمكين، فهربوا من نور الدين إلى الغور، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث نور الدين سرية إلى طبرية فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا، ورجعت الفرنج خائبين.

ومنها: أن نور الدين فتح في هذه السنة مرعش في ذي القعدة، وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها.

ومنها: أن كلب الروم اللعين خرج في جنوده الشياطين، فقصد الغارة على ناحية زرا من حوران، ونزلوا بقرية تعرف سمكين، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار، ثم إلى السواد، ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين عشرا فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتنموا خلوها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان حتى عبرت السرية، ورحل نور الدين من عشرا فنزل بظاهر زرا.

قال العماد: وكنت راكباً في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي: كيف تصف ماجرى فمدحته بقصيدة منها:

- ١١١٣٣ -

عقدت بنصرك رايسة الايمان
وبسدت لعصرك آية الفرسان
يا غالب الغلب الملوك وصائد الـ
صيد الليوث وفارس الفرسان
ياسالب التيجان من أربابها
حزت الفخار على ذوي التيجان
محمود المحمود وما بين الـ
في كل اقليم بكم لسان
يا واحد في الفضل غير مشارك
اقسمت مالك في البسيطة من ثان

ومنها:

وجلوت نور الدين ظلمة ظلمهم
لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت لاسلام ركنائنا
والكفر منك مضعضع الاركان

وهي قصيدة طويلة مدح فيها أمراءه الحاضرين للجهاد معه.

ومنها أن نور الدين سار قاصدا جانب الشمال، فسار إلى بعلبك،
ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل في كل منها من المصالح ماوجب،
وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم، وكان العماد معه، ووصل إلى
مرعش، وكان الزمان في أطيب فصوله، وهو زمن المشمش، وكتب العماد
إلى صديق له بدمشق:

كتابي فديتك من مرعش
وخوف نوائبها من مرعشي

- ١١١٣٤ -

ومامرّ في طرفها مبصر
صحيح النواظر الا غشي
وما حل في ارضها آمن
من الضر والضيم الا خشي
ترنحني نشوات الغرام
كأنني من كاسه منتشي
اسر وأعلن بـرح الجوى
فقلبي يسر ودمعي يشي
بذلت لكم مهجتي رشوة
فحاكم حاكم مرثي
وكيف يجد الكرم مغرم
بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة، ونمى حديثها الى نور
الدين، فاستشدينها فأنشدتها إياه ونحن سائرون في واد كثير الأشجار
وزدتها بيتين بدهتهما في الحال:
وبالملك العادل استأنست
نجاحا مني كل مستوحش
وما في الانام كريم سواء
فإن كنت تنكر ذا ففتش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك
عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان
السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه واقصرا، عازما على حربه وأخذ
بلاده منه، وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطيه
وسيواس وغيرهما من تلك البلاد، قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده،

وأخرجه عنها طريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً به وملتجئاً إلى ظله، فأكرم نزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك، ووعدته النصر، والسعي في رد ملكه إليه، وأرسل إلى قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ماغلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسوم وبهسنا ومرعش، ومرزبان فملكها ومايينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها، خوفاً وفاقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فأجابه إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين: إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولي، حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تسيره، فأنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فاما ان تكون تنجدي بعسكرك لاقاتل بهم الفرنج، واما ان تجاهد من يجاورك من الروم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث ان تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ابن أخي، وذكر أموراً غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبتة إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح، وعاد نور الدين، ونزل عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى ان مات نور الدين، فرحل العسكر وعاد قليج أرسلان وملكها.

ومنها أن مليح بن لاون، مقدم بلاد الأرمن التجأ إلى نور الدين، وتقوى به على الروم والأرمن، وكانت الدروب تحت اذنة والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح

ابن لاون فكسرهم وقتل وأسر، وساق لنور الدين من مقدمي الروم
ثلاثين أسيراً، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشهرزوري
بالأسرى والهدايا الى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه
الكسره، ومافتح من البلاد.

ومنها أنه وصل شهاب الدين ابن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع
لنور الدين بدرب هارون وصريفين وخمسين ديناراً من دنانير النثار التي
نثرت يوم دخل الشهاب الى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل
دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق
لزنكي والد نور الدين قديماً من انعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين
احياء ذلك الرسم في حقه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما، وكان
مراده رحمه الله ان يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة ارضاً يبني عليها
مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين، فعاقه امر القدر عن قدرته
على الأمر.

ومنها ان نور الدين أرسل الى صلاح الدين الموفق خالد القيسراني
ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلك لانه استقل الهدية التي ارسل بها
إليه من خزائن العاضد، ومقصوده ان يقرر له على الديار المصرية خراج
يحمل اليه كل سنة.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها: أن صلاح الدين بعث الى نور الدين هدية منها: فيل وحمار
عتابي، فبعث بها نور الدين الى بغداد، وخرج الناس للقاءها، وعجبوا من
خلقة الحمار.

وقال العماد: خرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل والحجارة العتائية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر.

قال: ووصل ذلك الينا ونحن بحلب بالميدان الاخضر، وأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين هدية الى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحجارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

ومنها أن صلاح الدين نزل في هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها، وفرق عنها عربها وخرب عمارتها، وبعث سراياه على أعمالها، وأرسل كتابا بذلك الى نور الدين.

وقال ابن الأثير وابن شداد: هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، فخرج صلاح الدين في أثناء السنة فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها، فلم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة، وحصل ثواب القصد.

وفي المرأة: وفي هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل، وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد، وتصدق بهال عظيم، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكره، فحصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين، وقتل البعض وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك، وكتب كتابا الى نور الدين يخبره بما جرى من العربان، وأنه لم يبق منهم أحد، فإنهم كانوا آفة على المسلمين، ودليلا للكفار على الاسلام،

ثم عاد صلاح الدين الى مصر، وعاد نور الدين من الموصل وقطع
الفرات، وقصد بلاد الروم، وقد ذكرناه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف بن
أيوب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو أبو الشكر أيوب بن شادي، والد الملوك بني أيوب، الكردي
الزرزاني، وهم خيار الأكراد من بلاد دوين، بشمال بلاد أذربيجان، مما
يلي الكرج، ومنهم من يقول: أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب،
وأغرب بعضهم فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر بني
أمية، وهذا ليس بصحيح، والذي عليه الجمهور أنه لا يعرف بعد شادي
أحد في نسبهم، والذي نسب الى بني أمية ادعاء هو الملك أبو الفداء
اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شادي، ويعرف بابن سيف الاسلام،
وقد ملك اليمن بعد أبيه فتعاضم في نفسه، وادعى الخلافة، وتلقب
بالامام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، أمير المؤمنين، وزعم انه أموي،
ومدحه الشعراء وأطروه، ولهجوا بذلك، وقال هو في ذلك ايضا.

وإني أنا الهادي الخليفة والذي

أدوس رقاب الغلب بالضمير الجرد

ولا بد من بغداد أطوي ربوعها

وأشره ————— أنشر السامرة البرد

وأنصب أعلامي على شرفاتها

وأحيي بها ما كان أسسه جدي

ويخطب لي فيها على كل منبر

وأظهر دين الله في الغور والنجد

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا له أصل يعتمد عليه ولا مستند يستند إليه.

قال ابن أبي طي: لا يعرف في نسب نجم الدين أكثر من والده شادي، وحدثني أبي قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول شادي بن مروان، وسمعت أنا من يقول: شادي بن مروان بن يعقوب.

قال: وأجمع الجماعة من آل أيوب ان دعوى ابن سيف الاسلام أنهم من بني مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية كذب، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شادي.

قال: وكذلك أخبرني السلطان الملك الظاهر، قال: وصحة دليل ذلك أني وقفت على كتاب وقف رباط النجمي بدمشق ولم يزد فيه على نجم الدين أبي سعيد أيوب بن شادي العادلي، والمقصود أن الأمير نجم الدين والأمير أسد الدين شيركوه كانا أخوين، وكان نجم الدين أسن من أسد الدين، ولدا بأرض الموصل.

وقال ابن أبي طي في تاريخه الكبير: كان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان، وقيل انه ولد بجبل جور وربي في الموصل، ومولد أبيه شادي في بلد دوين.

الثاني: في بيان ابتداء أمره وانتسابه واتصاله بالدولة، وهو أن أباه شادي كان من أعيان أهل دوين وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم، وكان بينه وبين شادي أخوة أكيدة، فجرت لبهروز قضية في دوين، فخرج منها حياء، وذلك انه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها فخصاه،

فلما جرى له ذلك لم يقدر على الإقامة، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية وهو مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لاولاده، فوجده لطيفاً كافياً في جميع الامور، فتقدم عنده وفوض إليه أموره، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، فرآه السلطان يوماً مع اولاده فانكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته، ثم صار يسيره الى السلطان في الاشغال، فخفف على قلبه فلبب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده، واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه، وسلم إليه أولاده، وأرصده لمهامه، وسار ذكره في تلك النواحي فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة وليقاسمه ماخوله الله تعالى، وليعلم أنه مانسيه، فلما وصل إليه بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور الى بغداد واليا ونائباً عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد، يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهرز قلعة تكرت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولى مكانه نجم الدين أيوب، فنهض في أمرها، وشكره بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سناً من أخيه أسد الدين شيركوه، ثم إن شيركوه رأى يوماً امرأة تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أنا داخلة من باب القلعة فتعرض لي الاسفهلار، فقام شيركوه وتناول حربه الاسفهلار وضربه بها فقتله فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وعرف بهروز بذلك، فوصل جوابه: لا بيكما علي حق، وبينني وبينه مودة متأكدة ما يمكنني ان اكافيكما بسيئة، ولكنني اشتهي ان تتركاً خدمتي، وتخرجاً من بلدي وتطلباً رزقكماً، فلما وقفا عليه خرجاً ووصلاً إلى الموصل، فأحسن إليهما الاتابك عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود بن زنكي، واقطعها اقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الاتابك قلعة بعلبك - كما ذكرنا - استخلف بها نجم الدين أيوب، ثم بعد مدة انتقل الى دمشق،

وأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، ثم لم يزل معه في السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده، فصار لا يقطع أمرا دونه، ثم إن نور الدين أرسل أخاه شيركوه إلى الديار المصرية ثلاث مرات - كما ذكرناه - وكان معه في كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

ولما جرى ماجرى من أمور المصريين، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف، وصار أمر الديار المصرية إليه - كما ذكرناه مفصلا - طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين فأرسله إليه مع أهله وحاشيته - كما ذكرناه.

وقال العماد الكاتب: لما دخل فصل النيروز استأذن نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وخيم بظاهر البلد ثم سار فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسة، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله، ووصف ذلك عمارة اليماني في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله:

صحت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم تغن بطبيب
عجبا المعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب
رد الاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب
جاءته أخوته ووالده إلى
مصر على التدريج والترتيب
فأسعد بأكرم قادم وبدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

وفي تاريخ الدولتين: وكان بهروز المذكور، أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس، فأقر نجم الدين في ولاية تكريت وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود.

ثم إن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود طمع في أخذ بغداد، ووصل الخبر إلى قراجا الساقى وهو أتابك السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، فانهزم زنكي، وقتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ما كان معه في عسكره، وجاء إلى تكريت وبه عدة جراحات، وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه، فأحسننا إليه وداويا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر، حتى أنها أعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسلم معه من أمتعته، فكان زنكي يرى لنجم الدين أيوب هذه اليد، ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ماذكرنا تلقاه زنكي بالرحب والسعة واحترمه احتراما عظيما.

وقال صاحب تاريخ الدولتين: وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعا باسلا ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها، فاتفق أن اسد الدين شيركوه نزل يوما لبعض شأنه، ثم عاد إلى القلعة، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلا بصرانيا، فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعدا إلى القلعة فعبث به بكلمة ممضة، فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد إلى القلعة، وكان مهيبا، فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأخذ النصراني برجله فألقاه من القلعة، وبلغ ذلك إلى بهروز وحصل عنده من خوفه جرأة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن

أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربما كان منه أمر تخشى عاقبته، ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل، فخرجا واتصلا به كما ذكرنا، وقيل ان أسد الدين خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، ثم إنه جرى بين أسد الدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر ان يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة، وخرجا معه إلى الشام، وشهدا معه حروب الكفار وقاتل الافرنج لعنهم الله، وكان لاسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والفعلة الغراء.

وقال ابن أبي طي: حدثني أبي عن سعد الدولة أبي الميامن عن حسام الدين سنقر غلام نجم الدين أبي طالب، وكان في خدمة نجم الدين أيوب، قال: لما دخل نجم الدين أيوب الديار المصرية إلى ولده صلاح الدين كنت معه في خدمته، وكانا قد اجتمعنا في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين إذ تقدم نصراني كان في خدمة نجم الدين، فقبل الأرض بين يديهما وقال لنجم الدين: يامولانا هذا تأويل مقالتي لك حين ولد هذا السلطان - يعني صلاح الدين - فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله، ثم التفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أني ليلة رزقت هذا الولد - يعني السلطان صلاح الدين - أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب أخي شيركوه من قتله ذلك النصراني، وكنت قد ألفت هذه القلعة وصارت لي كالوطن، فثقل علي الخروج منها جدا، وفي ذلك الوقت جاءني البشير

- ١١١٤٤ -

بولادة هذا - يعني صلاح الدين - فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ،
وخرجنا من القلعة وأنا لاسميته ولا التفت إليه، وكان هذا النصراني معي
كاتباً لي، فلما رأى ما نزل بي قال: يامولاي أي شيء لهذا المولود من
الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لا يضر ولا ينفع، وهذا الذي جرى
عليك قضاء من الله تعالى، فما يدريك أن هذا الطفل يكون سبباً
لوصول الخيرات إليك ويكون هو ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار،
فعطفتني كلامه عليه، وها هو قد جرى ما قال لي، فتعجب الحاضرون من
ذلك، وحمد السلطان ووالده الله تعالى وشكراه، ولعمارة اليمن في نجم
الدين مدائح ومراثي منها:

نغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العزم متسم

يقول فيها:
أضحى بك النيل محجوجاً ومعتماً
كأنما حل فيه الحل والحرم

إلى أن قال:
والناصر ابنك كافي كل معضلة
إذا الحوادث لم تكشف لها غم

الثالث: في سيرته.

وكان شجاعاً باسلاً أميناً، خيراً محسناً، ناصحاً عظيماً في أنفس الناس
بالخير والدين وحسن السياسة، وكان لا يأتي أحد من أهل العلم والدين
من مدينة إلا انفذ إليه، وقد ذكره العماد الكاتب وذكر من دينه وعفته
ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة.

وقال ابن خلكان: وكان نجم الدين رجلاً مباركاً كثير الصلاح مائلاً

للخير، حسن النية، جميل الطوية، وظهرت ثمرة بركته في أولاده، وله خانقاه بدمشق تعرف بالنجمية، وخانقاه بالديار المصرية ومسجد وقناة خارج باب النصر من القاهرة، وخانقاه أخرى لطيفة ببلدك بناها حين كان نائباً بها عن عماد الدين زنكي.

وفي المرأة: وكان نجم الدين رجلاً عاقلاً حازماً شجاعاً حليماً رحيماً، جواداً، عاطفاً على الفقراء والمساكين، محباً للصالحين، قليل الكلام جداً، لا يتكلم إلا عن ضرورة.

ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين أن يكون هو السلطان، فقال: أنت أولى، وكان يلعب بالكرة دائماً.

وقال القاضي ابن شداد: وكان شديد الرخص بالخيال، يلعب بالكرة، ومن يراه يقول: ما يموت إلا من وقوعه من ظهر الفرس.

الرابع: في وفاته

خرج نجم الدين يوماً من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، فشبت به فرسه، فألقاه في وسط المحجة، وذلك يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسائة، وحمل إلى داره، وبقي متألماً إلى أن توفي يوم الأربعاء سابع عشرين الشهر المذكور، ويقال في الثامن والعشرين منه.

وفي تاريخ بيبس: وكان سبب وفاته أنه تقنطر عن فرسه، فحمل إلى داره فمات بها.

وفي تاريخ الدولتين: وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه من الفرس، وكانت وفاته يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان ولده صلاح الدين غائباً عنه في بلاد الكرك والشوبك على الغزاة.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة نجم الدين أبيه، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صبح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه، ماعظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت بغيتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبرة، فياله فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء، وتخطفته يد الردى في غيبيتي، هبني حضرت فكنت ماذا أصنع.

قال: فدفن نجم الدين الى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلوا بعد سنين الى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الاصفهاني وزير الموصل، وكان جمال الدين المذكور مواخيا لاسد الدين شيركوه كما ذكرنا.

وفي تاريخ القاضي الفاضل: وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة بخبر بوصول تابوت الامير نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، واستقرارهما بتربتهما مجاورين الحجرة المقدسة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

الخامس: فيما يتعلق به.

خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الاسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون، وقال عمارة اليميني يرثيه:

صفوا الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الدهر لا يبقى ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآثار والنذر
كم شامخ العز ذاق الموت من يدها
ما أضعف القدر أن ألوى القدر
أودى علي وعثمان مخلصها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسى في مصيبتها
فللورى في رسول الله معتبر
لا قدست ليلة كادت مصيبتها
الأكباد حزنا على أيوب تنفطر
كأنها صور الله الكمال به
شخصا ويوسف منه السمع والبصر
إذا الليالي تجافت عن حشاشته
فالجرح مندمل والذنب مغتفر
يا ناصر الحق والأيام خاذلة
إن الغريب بغير الدمع ينتصر
مامات أيوب لا بعد معجزة
في الحق لم يؤتها من جنسه بشر
مضى حميد من الدنيا وليس له
في رتبة أرب منها ولا وطر
صلى الله على نجم أضواءنا
من نسله النيران والشمس والقمر

وهي قصيدة طويلة، وله قصيدة أخرى في مرثيته وأولها هو قوله:
هي الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقاها بضاعف أجره
أذم صباح الأربعاء فإنه
تبسم عن ثغر المنية فجره

أصاب الهدى في نجمه بمصيبة
تداعى سهاك الجو منها ونسره
فلا تعدلونا واعذرونا فمن بكى
على فقد أيوب فقد بان عذره
أقام بأعمال الفرات وخيله
يراع بهانيل العزيز ومصره
إلى أن رماها من أخيه بضيعم
فرى نابه أهل الصليب وظفره
تعاقتا مصراتعا قرب وابل
بيست بقطر النيل ينهل قطره
وواخيته في البر حيا وميتا
فقبرك في دار القبر رار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع اليكما
والا فسكان الحجون وحجره
هنيئ الملك مات والعز عزه
وقدرته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده
وما طال الا في رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما
رأى في بنى بني أبناءه ما يسره
رعى الله نجما تعرف الشمس أنه
أبوهما ونور البدر منها وزهره
وأبقى المقام الناصري فانه
لدولتكم كنز الرجاء وذخره

.....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلّت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، غير أنه توفي إلى رحمة الله في هذه السنة، على ما ذكره عن قريب ان شاء الله تعالى.

فلنبداً أولاً بما جريات صلاح الدين ثم ماجريات نور الدين، ثم نذكر وفاته ان شاء الله.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها أنه ارسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها وارتفاعها مائة ألف دينار، ثم تجهز منها وسافر، ووصل زبيد، وقتل ابن المهدي صاحبها، وكان يلقب أمير المؤمنين، فلما قتله سير نواب الحصون مفاتيحها إليه، وهي واحد وأربعون حصناً.

وقال العماد: وفي رجب توجه توران شاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن فملكها، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني، شاعر القصر، وكان كثير المدح لتوران شاه، فتجهز وسار إلى مكة، ثم إلى زبيد فملكها، وقبض على الخارجي بها وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ، ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد أخوته وقوة بأسهم، وكان بلغه ان باليمن انسانا

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم انه ينتشر ملكه الى الارض كلها، فاستتب أمره، فرأى ان يسير إليها اخاه الاكبر الملك المعظم توران شاه، وكان كريما اريحيا، حسن الاخلاق، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها، وكان اخو هذا الخارجي باليمن قبله.

وقال ابن أبي طي، وكان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا، وكان اقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته، ولا ينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد الى مصر ومدح اصحابها، فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه، وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة امواتها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ومن جملة شعره قوله في القصيدة التي أولها:

العلم مذكى محتاجا الى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الاجفان ظامئة
الى الموارد في الاعناق والقمم
امامك الفتح من شام ومن يمن
فلا ترد رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سومها
من الفرات الى مصر بلا سام

الآيات:

وله قصيدة أخرى منها قوله:

أفاتح أرض النيل وهي منيعة
على كل راج فتحها ومؤمل

- 11101 -

متى توقد النار التي أنت قاذح
بغمدان مشوب أسنأها بمن دل
وتفتح مـايين الحصين وأبين
وصنعاء من حصن حصين ومقل

الأبيات:

وقال ابن أبي طي: ووافق ذلك أن كاتبه رجل من أهل اليمن يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه لان صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه وتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ماكان في نفسه، وأصبحه جماعة من الامراء، ومقدار الف فارس خارجا عمن سيره من حلقتة، وسار في البر والبحر: في البر العساكر وفي البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات، فوصل الى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا، ثم خرج متوجها منها الى اليمن، فوصل زبيد في أول شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الاشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل الى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاها عز الدين بن الزنجيلي، ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد فيها الا شيخا او امرأة عجوزا، فأقام بها ثمانية ايام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة، فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان شمس الدولة قد استتاب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك بن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ فساد أمره، فرأى المصلحة في قتله فقتله ابن منقذ بزبيد،

فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه، ولما دخل شمس الدولة في زبيد
انفذ اليه صاحب الحمام^(١٥) وصالحه هو وباقي الملوك على اداء المال، ثم
تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بذلك الى اخيه
الملك الناصر صلاح الدين، فارسل الى نور الدين يخبر بذلك، فأرسل
نور الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النقاش بالبشارة
بذلك الى بغداد.

وذكر العباد الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ
المستتاب ووصفه بأنه من الكفاة الرمة والدهاة وذوي الآراء، وانه فاضل
من أهل بيت فضل، كتب الى العباد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يمناه كأس خلتهها
مقبوسه من نبراسه
وكان ما في كاسه من خده
وكأنما في خده من كاسه
وكان لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بفنائها
إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقيني المدام وكلما
عاتبته رد الجواب براسه

ومدحه ابو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية ما أظن انه
نظم على قافية الذال ارق منها لفظا وأروق معنى، اولها:
لك الخير عرج على ربعهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي
مبارك عيس الوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

وفي المرأة: لما سار شمس الدولة الى اليمن، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه ان يبعث اليهم بعض أهله، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صاحبها الى أبي قيس فتحصن فيه بقلعة بناها عليه، وأغلق باب الكعبة، وأخذ المفاتيح، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصلى ركعتين، وصعد الى باب الكعبة وقال: اللهم ان كنت تعلم اني جئت الى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهيدها فيسر علي فتح الباب، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فلا تفتحه، ومد يده فجذب القفل بها، فدخل شمس الدولة الى البيت وصلى ودعا، فلما بلغ امير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتذر وقال: خفت منك، والآن فانا تحت طاعتك، فقال: إذا اخذت منك مفاتيح مكة فلمن اعطيها؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم وسار الى اليمن، فانهزم عبد النبي بين يديه الى زبيد، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد، وقتل خلقا كثيرا، وشق بطون الحوامل، وذبح الاطفال على صدور امهاتهم، وكان يرى رأي القرامطة، ويظهر انه داعية لصاحب مصر، ويتستر بالاسلام، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين وملك بعده ولده عبد النبي، ففعل باليمن أشد مما فعله أبوه وسبى نساءهم واستعبدتهم، وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة وصفح حيطانها بالذهب الاحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها، وجعل فيها قناديل الذهب، وستور الحرير، ومنع أهل اليمن من زبيد الى حضرموت ان يحجوا الى الكعبة، وامرهم بالحج الى قبر أبيه، وكانوا يحملون اليه من الاموال كل سنة ما لا يحصى ولا يوصف ويطوفون حوله مثلما يطاف بالكعبة، ومن لم يحمل مالا قتله، وكانوا يقصدونه من البحر فاجتمع فيه أموال عظيمة، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور وذبح الاطفال وسفك الدماء وسبى النساء الى ان دخل شمس الدولة الى اليمن، وجاء الى زبيد، فيقال انه حصر عبد النبي فيها وأمنه وقيده وقتله، ويقال انه انهزم بين يديه وجاء الى قبة أبيه فهدمها، وأخذ ماكان

فيها من المال والجواهر والفضة، وكان على ستائة جمل ونبش القبر وأحرق عظام أبيه وذراها في الريح ومضى الى صنعاء، فحلف شمس الدولة ان لا ينتهي عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه، وصار خلفه فرجع الى زبيد، وعاد شمس الدولة اليها فظفر به وأخذ ما كان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما وصل شمس الدولة الى زبيد خرج اليه عبد النبي فقاتله فانهزم، وأسر شمس الدولة، وأسر زوجته الحرة وكانت ذات أموال جزيلة، فاستقرها على أشياء جزيلة وذخائر جلية، ونهب الجيش زبيد، ثم سار الى عدن فقاتله صاحبها ناشر فهزمه توران شاه وأخذ البلد بيسر ومنع الجيش من نهبها وقال: ماجئنا لنخرب البلاد، وانما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار في الناس سيرة حسنة عادلة فأحبوه، واستوثق له ملك اليمن وخطب فيها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وقتل الداعي المسمى بعبد النبي.

ومنها ارسال صلاح الدين بالهدايا الى نور الدين رحمه الله.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين، وهو الموفق ابن القيسراني، واجتمع بالملك الناصر، وانهى اليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حصل وارتفع اليه من ارتفاع البلاد، فصعب ذلك على السلطان واراد شق العصا، لولا ما ثاب اليه من السكينة، ثم امر النواب بعمل الحساب وعرضه على ابن القيسراني، واره جريدة الاجناد بمبلغ اقطاع وكميات جامكيتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك ارسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق ابن القيسراني، وهي خمس ختمات: احداها ختمة ثلاثون جزءا مغشاة بأطلس أزرق مضببة

بصفائح ذهب وعليها اقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمه بخط راشد مغشاة بديباج فسستقي عشرة اجزاء، وختمه بخط ابن البواب، في مجلد واحد بقفل ذهب، و ختمه بخط مهلهل جزء واحد، وختمه بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة احجار بلخش: حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: قصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وقصبة وزنها مثقالان ونصف وقصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وحجر وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ست وخمسون مثقالا وسدس ومائة عقد حوهر مختومة وزنها ثمانمائة وسبعون مثقالا، وقارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وقطعة جزع، وذكر تفصيلها ابريق يشم، طشت يشم، سقرق مذهب، صحون صيني وزبادي وسكارج وأربعون قطعة عود طيب: قطعتين كبار كرتان وزن احدهما ثلاثون رطلا بالمصري، والاخرى واحد وعشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس وأربعة وعشرون بقيارا مذهب، وأربعة وعشرون ثوبا حريري، وأربعة وعشرون ثوبا من الوشي حريرية بيض. وحلة فلقي مذهب، وحلة مرايش صفراء مذهب. وذكر غير ذلك انواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون الف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل الى نور الدين لانه اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك لان الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها، وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردها.

قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية انه كان معها عشرة صناديق مال لا يعلم مقداره.

ومنها أن صلاح الدين صلب في رمضان منها جماعة من أعيان المصريين، فإنهم قصدوا الوثوب عليه، وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم، فمنهم: عبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الشافعي.

وفي تاريخ ابن كثير: اجتمع نجم الدين عمارة الشاعر اليمني الفقيه الشافعي مع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا حكاما، فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، وكتبوا إلى الأفرنج يستدعونهم اليهم، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين، ووزيرا وأمراء في غيبة السلطان صلاح الدين ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئه، وحرص عمارة اليمني شمس الدولة تورانشاه على المصير إلى اليمن ليخف الجيش ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج تورانشاه، ولم يخرج عمارة إلى اليمن بل أقام بالقاهرة يفيض في هذا الحديث ويدخل المتكلمين فيه، وكان من أكابر الدعاة إليه المحرضين عليه، هذا وقد أدخلوا معهم في هذا الأمر بعض من ينسب إلى الملك الناصر، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهم، فخانهم أحوج ما كانوا إليه وهو الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ، جاء إلى السلطان الملك الناصر فأخبره بما تمالأ القوم عليه، وبما انتهى أمرهم إليه، فأطلق له السلطان أموالا جزية، وإفاض عليه حلا جميلة، ثم استدعاهم السلطان واحدا واحدا فقررهم فأقروا له بذلك فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوه بقتلهم وتبديد شملهم، فعند ذلك أمر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون اتباعهم وغلمانهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين إلى أقاصي البلاد، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته في دار، فلا يصل إليهم إصلاح ولا فساد، وأجرى عليهم من الأرزاق كفايتهم، وقد كان عمارة معاديا للقاضي الفاضل، فلما حضر بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل فاجتمع بالسلطان ليشفع فيه، فتوهم أنه يكلمه فيه، فقال: يامولانا السلطان لا تسمع منه، فغضب القاضي الفاضل ونهض

وخرج من القصر، فقال له السلطان: انه كان قد شفع فيك، فندم ندما عظيما ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك:

عبدالرحيم قد احتجب
ان الخلاص هو العجب (١٦)

وفي تاريخ الدولتين: وكان صلب المذكورين يوم السبت ثاني شهر رمضان، وكان الذين صلبوا منهم: الفضل بن كامل بن الكامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي، والعويرس، وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشهريا كاتب السر، وعبد الصمد أحد امراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني قال لهم: ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليميني الشاعر.

قال العماد في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاه نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية، وهو بخط ابن قريش، يعني المرتضى.

وفي قضية عمارة يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله، قال أبو شامة: نقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى خيانة
وبايع فيها بيعه وصليبا
وأسمى شريكك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته
تجد منه عودا في النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله
ويسقى صديدا في لظى وصليبا

قلت: والصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب،
والثالث من الصلابة، والرابع هودك العظام، وقيل هو الصديد أي
يسقى مايسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وقال ابن أبي طي: وكان داعي الدعاة يعلم بدفائن القصر، فعوقب
ليعلم بها فامتنع من ذلك، فمات واندرست.

ذكر ماجريات نور الدين رحمه الله:

منها: أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح
ابن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل الى خدمته أيضا ضياء الدين
مسعود بن قفجاق، صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضا الأمراء من
البلاد، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم من الفرات، فبذل له
صاحبها خمسين ألف دينار على سبيل الجزية ثم عاد إلى حلب، وأراد ان
يسرع الى دمشق، فتوقف لمرض سريته، فتصدق عنها بألوف، والتزم لله
في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على أيدي الرجال،
وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه، ثم سار على طريق سلمية،
فجاء الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان،
وسمع الفرنج به ففرقوا، ودخل دمشق.

ومنها أنه في جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان، وكتب بذلك منشورا
وعلامته بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن سنتنا العادلة، وسير
آبائنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف.
وانصاف المظلوم، واعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائرات الرسوم،
وما نزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون في
حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشبه
والشوائب، ونلحق مانعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بشيوع المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ماجرت، العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير، وقصر حجاج والشاغور والعقبة ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه وأليم عقابه، وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره، والاستغفار من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعداها على تعاقب الايام والسنين».

ومنها أن نور الدين تكلف في هذه السنة بافادة الألفاف والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة نسوة الأياص في أيامها، واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذل وعون الضعفاء، وتقوية المقترين بعدله.

ذكر وفاة نور الدين: والكلام فيه على أنواع.

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الجليل الملك العادل، أبو الغنائم نور الدين محمود بن الملك الأتابك، قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي ابن الملك الأتابك أقسنقر، الملقب بقسيم الدولة، أيضاً المعروف بالحاجب، ابن عبد الله، وكان أقسنقر مملوك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كما ذكرنا، فنور الدين أيضاً تركي سلجوقي ولاء.

ولد قبل طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة احدى

- ١١١٦ -

عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرها من البلدان الكثيرة، وتعلم الفروسية والرمي.

الثاني: في ألقابه.

السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط نور الدين، وعدته ركن الدين، وسيفه قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومقرها، ورضي الامامة وأمرها، فخر الملة ومفتخرها، شمس المعالي وفلكها، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ما ليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر، ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا ما يدخله كذب ولا مزيد، فكتب نور الدين على رأسها بخطه: مقصودي أن لا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لأعمل.

الثالث: في صفته:

قال ابن خلكان: كان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

وقال ابن كثير: كان حلو العينين، واسع الجبين، تركي الشكل، ليس له لحية الا في حنكه.

وفي المرأة: وكان معتدل القامة، واسع الجبهة بلحيته شعرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة.

الرابع: في سيرته.

كان ملكاً مهيباً متواضعاً، عليه جلالة نور الاسلام، وتعظيم قواعد الشرع.

وقال ابن خلكان: وكان ملكاً عادلاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، مستمسكاً بالشرعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهداً في سبيل الله.

وفي تاريخ الدولتين: ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وجمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والافتداء بسيرة السلف الماضيين، والتشبه بالعلماء الصالحين والاصغاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ ما لهم ودقتهم، حتى روى في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، رجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً، كما جاء في الحديث.

فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره، يحب الصالحين ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم وزوج ذكرانهم بانائهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من واحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكايته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله

باسقاط المنزل والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال يسر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ويمكن له في البلدان والبقاع.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان ملكاً عظيماً جليلاً، عابداً سخيّاً كريماً صالحاً، معدوداً من الأبدال.

وفي تاريخ ابن العميد: وكما اشتهر من قلة ابتهاجه بالشعر لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، زاهد الخلفاء.

قال يحيى بن محمد الوهراني، في مقامة له، وقد سئل في بغداد عن نور الدين: هو سهم للدولة سديد، وركن للخلافة شديد. وأمين زاهد، وملك مجاهد، تساعد الأفلاك، وتعضده الجيوش والاملاك، غير أنه عرف بالمرعى الويل لابن السبيل، وبالمحل الجذب للشاعر الاديبي، فما يرزى ولا يعزى، وما لشاعر ﴿عنده من نعمة تجزى﴾ [الليل ١٩] وإياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا

فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة

من المعاصي وفيها الجوع والعطش (١٧)

وقال صاحب التاريخ: ما كان يبذل أموال المسلمين الا في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيرز، وهو من سادات التابعين بالشام، قال يعقوب بن الحافظ: حدثنا ضمرة عن الشيباني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه، فذكر ابن محيرز في مجلسه، فقال رجل: كان رجلاً بخيلاً، فغضب ابن الديلمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون، وأما شعر ابن

- ١١١٦٣ -

منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليله الميلاد يمدح نور الدين:
في كل عام للبرية ليلة
فيها يشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد
أبدأ يصرفه انداه وبأسه
فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيدمنة
أبهى من الأطواق في الأجياد
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى
وأنداهم كفأ يذل تلاد
يعطي الجزيل من النوال تبرعا
من غير مسألة ولا ميعاد
لا زال في سعد وملك دائم
مادامت الدنيا بغير نقاد (١٨)

ولقد أكثر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب وغيرهم في مدح
نور الدين بالكرم والجود وذلك كله يرد قول الوهراني وابن منقذ، على أن
ابن منقذ قد ردنا شعره بشعره كما تراه، وإنما الشعراء وأكثر الناس كما
قال الله في وصف قوم ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا﴾ في القرآن
العظيم قوله: ﴿منها إذا هم يسخطون﴾ [التوبة ٥٨] وما كل وقت يتفق
العطاء، ويفعل الله ما يشاء.

الخامس: في شجاعته.

كان يقال: إنه لم ير على ظهر الفرس أحسن ولا أثبت منه، وكان
حسن اللعب بالأكرة، وربما ضربها ثم يسوق وراءها ويأخذها من الهواء
بيده ثم يرميها إلى آخر الميدان، ولم ير جو كأنه يعلو على رأسه، ولا يرى
الجوكان في يده لأن الكم سائر لها، وكان شجاعا صبورا في الحرب

يضرب به المثل في ذلك، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة، فقال له مرة الفقيه قطب الدين النيسابوري: بالله يامولانا لا تخاطر بنفسك، فإنك لو قتلت قتل جميع من معك وأخذت البلاد، فقال: اسكت يا قطب الدين، من هو محمود، ومن كان يحفظ البلاد قبلي ﴿الله الذي لا إله إلا هو﴾ [الحشر ٢٢] قال: فبكى من حضر.

وكان إذا خضر الحرب شد تركاشين، وحمل قوسين، وباشر الحرب بنفسه، وشجاعته ظاهرة في غزواته، وفتوحاته على ماذكر في السنين المتقدمة.

السادس: في ورعه وزهده.

وقال ابن الأثير في تاريخه: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الاسلام إلى يومنا هذا فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم ملكا أحسن سيرة من نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله: وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ملك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال فأفتوه من جهات عينوها فلم يتعد الى غيرها، ولم يلبس حريرا قط ولا ذهبا ولا فضة، ومنع من بيع الخمر في بلاده، وكان يحذ شاربها، والناس عنده سواء في ذلك، وكان كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها، ثم يتم أوراده، وكان قد تزوج الخاتون بنت معين الدين أنر، فطلبت منه زيادة نفقة، وقال: وقد فرضت لها ما يكفيها، والله لا أخوض جهنم بسببها، وهذه الأموال ليست لي وإنما هي للمسلمين وأنا خازنهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمص ثلاث دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.

وكان أول من بنى دار العدل بدمشق وسماها دار الكشف، وسببه أن
الأمراء لما قدموا دمشق اقتنوا الاملاك واستطالوا على الناس وخصوصاً
أسد الدين شيركوه، وكثرت الشكاوى الى القاضي، فلم يقدر على
الانصاف من أسد الدين، فشكوا إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل،
فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه وديوانه وقال: إن نور الدين ما بنى
هذه الدار الا بسببي وحدي لينتقم مني، وإلا فمن هو الذي يمتنع على
كمال الدين، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب واحد منكم
لاصلبته، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى
على جميع ما في يدي، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني
نور الدين بعين الظالم ويسوي بيني وبين آحاد العوام، ففعلوا وأرضوا
الخصوم، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي: ما أرى أحدا
يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد فقال: الحمد لله الذي جعل
أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا، وكان نور الدين
يقعد في دار العدل في كل اسبوع أربعة ايام أو خمسة، ويحضر عنده
العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ
الضعيف والعجوز الكبيرة، ويساءل الفقهاء عما أشكل عليه.

وكان إذا مات أحد من جنده، أو قتل وله ولد فإن كان كبيرا أقر
الاقطاع عليه، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره الى ان يكبر، وما
كان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيئته، فإذا دخل فيه
فقير أو عالم أو رب خرقه قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم
الاموال، فإذا قيل له في ذلك، يقول: هؤلاء لهم حق في بيت المال، فإذا
قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

وأسقط ما كان يؤخذ من دار البطيخ وسوق الخيل والغنم والكيالة
وجميع المكوس، وعاقب على شرب الخمر، وكان كثير المطالعة في الكتب

الدينية متبعا الآثار النبوية مواظباً على الصلوات الخمس في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصد في الانفاق، متحريراً في المطعم والمشرب والملبس، لم تسمع منه كلمة فحش قط لا في رضاه ولا في غضبه، هذا مع ما جمع الله فيه من العقل المتين والرأي الصائب الرصين، والاقتداء بسنة السلف الصالحين، حتى روى حديث المصطفى وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير ونشر السنة والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث، وكان يكتب خطاً حسناً، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وليس عنده تعصب على أحد، والمذاهب كلها سواء.

وقال ابن الأثير: كان يوما يلعب بالأكره في ميدان دمشق، فجاء رجل فوقف بازائه وأشار إليه، فقال للحاجب: اسأله ما حاجته؟ فسأله، فقال لي مع نور الدين حكومة، فرمى الصولجان من يده وجاء إلى مجلس القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك: لا تنزعج واسلك معه ما تسلكه مع آحاد الناس، فلما سوى بينه وبين خصمه وتحاكما، فلم يثبت للرجل عليه حق، وكان يدعي ملكاً في يد نور الدين، فقال نور الدين للقاضي والعدول: هل ثبت له عليّ حق؟ قالوا: لا، قال: فاشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك، وقد كنت أعرف أنه لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يقال عني أنني دعيت إلى مجلس الشرع فأبيت.

قال: ودخل يوما إلى خزائنه فرأى مالا كثيراً فقال: من أين هذا؟ قال خازنه: بعث به القاضي كمال الدين من فائض الاوقاف، فقال: ردوه إليه وقولوا له: إن رقبتني دقيقة لا تقدر على حملة غدا، وأنت رقبتك غليظة تقدر على حملة، وكان له برسم نفقته الخاص في كل شهر من

الجزية ما يبلغ ألفي قرطاس يصرفها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى
أجرة خياطه وجامكية طباخه، ويستفضل منها ما يتصدق به في آخر
الشهر، ويقال ان قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما، وقيل كل ستين
قرطاسا أو سبعين بدينار.

قال ابن الأثير: وما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعثه الى
القاضي كمال الدين يبيعه، ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه
شيئا.

وقال ابن الجوزي: وكان يتدين بطاعة الخلافة، والطرق آمنة في أيامه،
والمحامد كثيرة، وكان يميل إلى التواضع ويحب العلماء وأهل الدين، وقد
كاتبني مرارا، وقد صنف له كتابا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل
والجهاد ومواعظ، وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضا كتابا في الجهاد
وهو بدمشق.

وقال السبط رحمه الله: كانت له عجائز بدمشق وحلب، وكان يخيظ
الكوافي ويعمل السكاكر للابواب وتبيعه العجائز ولا يدري أحد، فكان
يوما يصوم ويفطر على اثمانها.

وحكى شرف الدين يعقوب ولد المبارك المعتمد ان في دارهم سكرة
من عمل نور الدين، وهي باقية الى سنة خمس وستائة يتبركون بها.

وفي المرأة: قال: حكى لي رجل صالح من أهل حران، قال: لما قتل
أتاك زنكي على قلعة جعبر، وملك نور الدين قلعة حلب تصدق وأزال
المكوس، ورد المظالم، وأنا حديث عهد بعرس، وقد ركبني دين، فقالت
لي زوجتي قد سمعت أوصاف نور الدين واحسانه الى الناس، فلو
قصدته وأنهيت إليه ذلك لقضى دينك، قال: فخرجت من حران وليس
معي سوى درهمين، فتركت عندها درهما وتزودت بدرهم وأتيت الفرات

وقت القائلة فعبرت جسر منبج وأبعدت عن أعين الناس، وخلعت ثيابي ونزلت فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين وإذا إلى جانبي شخص ملفوف في عباءة، فقال لي: يافقير من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وإلى أين؟ قلت: إلى حلب، قال: وماتصنع فيها؟ فقلت: أنا فقير مديون، وقد بلغني احسان نور الدين إلى الخلق فقصدته لعله يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نور الدين، ومن يوصلك إليه، كم عليك دين؟ قلت: خمسون ديناراً فأخرج يده من العباءة وبحث الرمل وأخرج منه قرطاساً وألقاه إلي، وقال: خذ هذا فاقض به دينك وارجع إلى أهلك، قال: فأخذته فعددته وإذا به خمسون ديناراً، فالتفت فلم أره، فبهت وبت في مكاني أتفكر هل أرجع إلى حران أم أمضي إلى حلب، وترجع عندي المضي إلى حلب، وقلت في نفسي: فهذه أوفي بها ديني فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح، وقعدت تحت القلعة، وإذا فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والامراء بين يديه حتى جاء إلى الميدان، فلما أراد أن يدخل نظر إلى فرمقني طويلاً وأشار إلى خادم بين يديه، فجاء الخادم إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي إلى القلعة، قال: فندمت على مجيئي حلب، وقلت: ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح، ولعل نور الدين توهم أني اسماعيلي.

قال: فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين إلى القلعة وجلس في الإيوان، ومد سباط عظيم، ولم يمد يده إليه، وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل فوضعه بين يديه، وفيه غضارة عليها رغيف فتأملها من بعيد وهي ثردة فتناول منها شيئاً يسيراً وأكل الناس وأكلت معهم، وصرف الناس وبقيت قاعداً خائفاً فأومأ إليّ، فقممت وأتيت إلى بين يديه وأنا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وما الذي أقدمك؟ قلت: علي دين وبلغني احسانك إلى الناس فقصدتك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلت:

خمسون ديناراً، قال: أما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات
خمسين ديناراً، هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا
حصل القوت للفقير فلا يطلب شيئاً آخر، ثم قال: مانضيع تعبك،
ورفع سجادته وكانت زرقاء، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني
صاحب العباءة.

قال: فبكيت بكاء كثيراً وقلت: لا آخذه حتى تخبرني بصاحب
العباءة، قال: هو أمر لا يلزمك، فقلت: يامولاي أنا غريب وضيع ولي
حرمة، فبالله عليك أخبرني، فقال: احلف لي أنك لا تتحدث بهذا في
حال حياتي فحلفت له، فكشف القباء وإذا بتلك العباءة على جسده،
وقال: أنا ذاك الفقير، فقلت: بالله الذي أعطاك هذه المنزلة بأي شيء
وصلت إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ
الْحَسَنَةِ﴾ [الأنبياء ١٠١]، قال: لما التقينا بالافرنج على حارم ونصرنا الله
عليهم وعدت إلى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب
الرائحة فسلم علي، وقال: يامحمود أنت من الأبدال، وقد أعطاك الله
الدنيا فاشتر بها الآخرة وسله مهما شئت، ثم علمني كلمات، وقال: إذا
طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: فبالله من أنت؟ فقاتل: أنا أخوك
الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمت على أمر أو أردت أن أذهب إلى مكة
أو المدينة أو إلى أي بلد شئت لبست العباءة، وتكلمت بتلك الكلمات
وأغمض عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال السبط أيضاً: وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام، أحد عدول
دمشق وأعيانها، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله، قال: لما ملك الأشرف
ابن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة وأفرده عن الدور،
قال: وما صلي فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء إلى الآن، فقلت له: الله
الله يامولانا مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات
الخمس، فقال: من أين لك هذا؟ قلت: حدثني والدي - وكان من

أكابر عدول دمشق، وكان أبوه يلقب بالسعيد - أنه لما نزلت الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين شيركوه رحمه الله، وضايقوها وأشرفت على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لا يفطر الا على الماء، فضعف وكاد يتلف ، وكان مهيباً لا يتجاسر أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلي به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن، وله عنده حرمة، فاجتمع إليه خواص نور الدين وخدمه وقالوا له: قد خفنا على السلطان ونحن من هيئته مانقابله، وأنت تدل عليه، ونحن نسألك أن تسأله أن يتناول شيئاً مما يحفظ به قوته فقال: نعم إذا صليت به غداة الفجر سألته، قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: يا يحيى بشر نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يا رسول الله ربما لا يصدقني، وأريد له أمانة، قال: قل له: «بعلامة يوم حارم».

قال: فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم شرع يدعو، ففاته أن يتحدث معه، فقال له نور الدين: يا يحيى، قال: لبيك يامولانا، قال: تحدثني أو أحدثك؟ قال: فارتعد يحيى وخرس فقال له: أنا أحدثك، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم يامولانا، فقال: يامولانا مامعنى قوله عليه السلام: «بعلامة يوم حارم» فقال له نور الدين: لما التقى الصفان يوم حارم خفت على الاسلام لأنى رأيت من كثرة الفرنج ما هالني، فانفردت عن العسكر ونزلت فمرغت وجهي على التراب وقلت: ياسيدي من محمود في الدين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم هو، فافعل مايليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

السابع: فيما فعله من الخيرات وما بناه من بيوت العبادات وغيرها.

وكان نور الدين رحمه الله بنى المدائن وأوقف الاوقاف، وبنى سور

دمشق والمساجد والمدارس، ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المدارس في دمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحاج، وأمر بأكمل سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من أحد من عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والخانات والقناطر، وجدد كثيراً من قني السبيل، ووقف كتباً كثيرة في مدارس، وأول من بنى دار العدل بدمشق، وقد ذكرناه، وبنى جامعاً في الموصل، وفوض عمارته إلى الشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، وإنما سمي الملاء لأنه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الاجرة فيتقوت بها، وكان لا يملك شيئاً من الدنيا، وكان عالماً بفنون العلوم، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل بمولد رسول الله عليه السلام في كل سنة، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ماشرع أحد في عمارتها إلا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالاً كثيرة، يقال ستون ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما تم جاء نور الدين إلى الموصل - وهي المرة الأخيرة - فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج، وقال: يامولانا أشتهي أن تنظر فيها، فقال له نور الدين: ياشيخ نحن عملنا هذا لله دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالأوراق في الدجلة.

وقال ابن الأثير: وبنى جامع حماة على العاصي وهو من أحسن الجوامع.

قال: ووقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ففدى نفسه بهال

عظيم، فشاور نور الدين أمراءه فأشاروا ببقائه في الاسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين، فعند وصوله الى مأمته مات، وطلب الأمراء سهمهم من المال، فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لانكم نهيتهم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسين: الفداء وموت اللعين، وخلّص المسلمين منه، فبنى بذلك المال مارستان دمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق، ووقف عليها الاوقاف.

قال ابن الأثير: وبلغني ان اوقاف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهراً، صحيح الشراء.

وقال السبط: أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه وتغيرت صفاته، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته

وقال ابن الأثير: وفي سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والاوقاف، وعمارة المساجد المهجورة، واسقاط كل ماكان فيه من الحرام، فما أبقي سوى الجزية والخراج وماتحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج:

قال [العماد]: وأمرني بكتابة المناشير، فكتبت أكثر من ألف منشور وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور فكان ثلاثين ألف دينار.

وقال العماد: بنى جامع قلعة دمشق ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرماحين، ومسجد سوق الصاغة ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، ومسجداً بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أخر.

وقال ابن الجوزي: وكان من عزمه أن يفتح البيت المقدس، فعمر

منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي قبل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب.

وحكي عن الشيخ أبي عمر شيخ المقادسة رحمه الله قال: كان نور الدين رحمه الله يزور والدي الشيخ أحمد رحمه الله في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن.

وقال ابن خلكان رحمه الله: وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل: دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج، والرحبة، وبنى جامع الرها، وجامع منبج، ودار الحديث بدمشق.

وقال النويري في تاريخه: وأحصيت أوقافه، وكانت في كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل: أما من إرث والده أو من سهمه في الغنيمة، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل: دمشق، وحمص وحماة، وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها، لما هدمت بالزلازل.

وقال ابن كثير: وبنى المارستان الذي بدمشق، وهو أحسن ما بني من المارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه، فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه مستوصفاً، فلا يمنع من شرايه، ولهذا جاء نور الدين إليه وشرب من شرايه.

وقال ابن كثير: ويقول بعض الناس: إنه لم تخدم النار فيه منذ بني إلى زماننا هذا والله أعلم، وقد بنى الخانات في الطرقات والابراج والخفر في الأماكن المخوفة، وفيها الحمام الهوادي التي تطالع بالآخبار في أسرع مدة، وبنى الربط والخانقاهات.

وقال ابن الأثير: وهو أول من بنى دار الحديث، ووقف على من يعلم
الايتم الخط، وجعل لهم نفقة وكسوة، وعلى من يقرأ آي القرآن وعلى
المجاورين بالحرمين، وكان الجامع بدمشق داثراً، فولى نظره للقاضي كمال
الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصللي الذي قدم عليه، فولاه
قاضي القضاة بدمشق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعة، وقد كانت
حواصل الجامع بها من حين احترق في سنة إحدى وستين وأربعمائة.

وأضاف إلى أوقاف الجامع الاوقاف التي لا يعرف واقفوها، ولا تعرف
شروطهم فيها، وجعلها قلماً واحداً، وسمي مال المصالح ورتب عليه
ذوي الحاجات والفقراء والمساكين والارامل والايتم وما أشبه ذلك،
وأحاط السور على حارة اليهود وكان خراباً، وأغلق باب كيسان، وفتح
باب الفرع ولم يكن هناك قبله باب بالكلية.

وحكى الشيخ شهاب الدين أن نور الدين وقف بستان الميدان سوى
الغيط الذي قبله، نصفه على تطيب جامع دمشق، والنصف الآخر
يقسم على أحد عشر جزءاً جزآن على تطيب المدرسة التي أنشأها
للحنفية والتسعة الاجزاء الباقية على تطيب المساجد التسعة، وهي:
جامع الصالحية بجبل قاسيون، وجامع القلعة، ومسجد عطية، ومسجد
ابن لبيد بالفسقار، ومسجد الرماحين المعلق، ومسجد العباسي بالصاغة،
ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جدده نور الدين بجوار بيعة
اليهود، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءاً من النصف.

الثامن: في فتوحاته وبلاده.

قال النويري: وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين ومصر
والشام وحلب وديار بكر والجزيرة، وكذلك باليمن لما ملكها الملك
المعظم تورانشاه بن أيوب بن شادي، وطبق ذكره الارض بحسن سيرته

وعدله وكرمه وصدقاته، وتصدق في شهر واحد بثلاثين ألف دينار،
وقسم في يوم واحد مائتي ألف دينار خلاف الدواب والسلاح والخيام،
وكان يحضر أمثال البلد عنده ويعطيهم الذهب ويقول: تصدقوا به على
من تعرفونه في جواركم من الارامل والايتام.

وقال ابن الجوزي: ولي نور الدين الشام سنين وجاهد بالثغور، وانتزع
من أيدي الكفار نيفا وخمسين مدينة وحصناً، منها: الرها، وكان محباً
للعلماء وأهل الدين، وكاتبني مراراً، وعاهد ملك الافرنج صاحب
طرابلس، وقد كان في قبضته أسيراً، على أن يطلقه بثلاثمائة ألف دينار
 وخمسين ومائة حصان، وخمسمائة زردية ومثلها أتراس أفرنجية، ومثلها
قنطاريات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وأنه لا يغير على بلاد الاسلام
سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأخذ منه في قبضته على الوفاء
بذلك مائة من اولاد كبراء الافرنج وبطارقتهم، فإن نكث أراق دمهم،
وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية في شوال من هذه السنة.

وذكر الحافظ ابن عساكر رحمه الله فتح نور الدين رحمه الله نيفا
 وخمسين حصناً، منها: تل باشر، وعيتاب، واعزاز، ومرعش، وبهسنى، وتل
خالد، وحارم، والمرزبان، ورعبان، وكيسون، والرها، وكسرا برنس انطاكية
 وقتله، وقتل معه ثلاثة آلاف، وأخذ من القومض ثلاثمائة ألف دينار
 وخمسمائة زردية، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير، واتسع ملكه، ففتح
 الموصل والجزيرة وديار بكر والشام، والعواصم، ودمشق، وبعلبك
 وبانياس، ومصر، واليمن، وخطب له في الدنيا، وأظهر السنة بحلب،
 وأزال الأذان بحبي على خير العمل، وكان يتعرض للشهادة، ويسأل الله
 تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

التاسع: في وفاته:

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهر قصيدة منها:

عيـدان فـطـر و طـهـر
وفـتـح قـريـب ونـصـر
كـلاهما لـك فيـه
حـقاً هـنـاء وأجـر
وفيهما بـالتـهـاني
رـسـم لـنـا مـسـتـمـر
طـهـارة طـاب فيـهـا
أصـل وفـرع وذـكـر
نـجـل عـلى الطـهـر نـمـام
زكـا لـه مـنـك نـجـسـر
مـحـمـود المـلـك العـمـاد
لـك الـكـرـيم الـاغـر
ويـابـنـه المـلـك الصـا
لـح العـيـون تـقـر
مـولـى بـه اشـتـد لـلـد
يـنـ والـشـريـعـة اـزـر

وهي قصيدة طويلة آخرها:

هـذا الطـهـر و ر ظـهـر
عـلى الـزـمـان وأمـر
وذا الخـتـان خـتـام
بـمـسـكـه طـاب نـشـر

قال: وفي يوم العيد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالاسعاد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان

الاخضر، ورمى القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الاخضر، وأمر بوضع المنبر، وخطب له القاضي شمس الدين بن الفراش، قاضي العسكر، بعد ان صلى به، وعاد الى القلعة وأنهب سباطه العام، على رسم الاتراك وأكابر الاملاك.

قال: ثم حضرنا على خوانه الخاص في يوم الاثنين ثاني العيد، بكر وركب ودخل الميدان والعظماء يسايرونه وفيهم همام الدين مودود، وكان قديما في أول دولته والي حلب، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟! فقال نور الدين: قل: نكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة، فجرى على منطقتها ماجرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، وهمام الدين لم يصل الى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالاكرة، فاعترضه أمير يقال له یرنقش وقال له: باش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، وكان ذلك على خلاف مذهبه، ونهره وزجره، ثم ساق ودخل القلعة واحتجب فبقي اسبوعا في منزله، ثم اتصل به مرض، وأشار عليه الاطباء بالفصد فامتنع من ذلك، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل يوم الاربعاء حادي عشر شوال من دار الفناء الى دار البقاء.

وقال ابن شداد: وكانت وفاة نور الدين بسبب خوانيق اعترته عجز الاطباء عن علاجها.

وقال ابن الاثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير الى مصر لاختذها من صلاح الدين، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر لتركها بالشام لمنعه من الافرنج، ليسير هو بعساكره الى مصر، وكان المانع من

صلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد ان نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، وكان نور الدين لا يرى الا الجدد في غزوهم بجهد وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو، علم غرضه فتجهز للمسير إليه فأتاه أمر الله الذي لا يرد.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي، وهو أحذق الاطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء، فدخلنا عليه وهو بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعب في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض، يتقل عنه، فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر إحضارنا عندك إلى أن يشتد المرض الى هذا الحد، فالآن ينبغي ان تنتقل الى مكان فسيح، فله اثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء، ومات عن قريب.

قال ابن عساكر: وتوفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسة ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل الى تربة تجاور مدرسته التي بناها لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي.

وقال العماد: قلت في ذلك:

عجبت الى الموت كيف اهتدى

الى ملك في سجايا ملك

وكيف ثوى الفلك المستدير

في الارض والارض وسط الفلك

وقال ابن كثير: حصلت له علة الخوانيق ومنعته عن النطق، فمات في التاريخ المذكور، وصلي عليه بجامع القلعة ودفن بها حتى حُول الى تربته

التي بنيت له بيباب المدرسة التي أنشأها للحنفية وقبره بدمشق مشهور،
يزار ويخلق شباهه فيستطيب رائحته كل مار، وإنما يقول الناس: نور
الدين الشهيد، لما حصل له من الخوانيق، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد،
ويلقب بالقسيم، وكانت الافرنج يقولون له ابن القسيم.

وقال ابن خلكان: ويقول أهل دمشق ان الدعاء عند قبره مستجاب،
وقال القاضي: ولقد جربت ذلك فصيح، وكان عمره حين مات ثمانيا
وخمسين سنة، وله في الملك ثمان وعشرون سنة.

العاشر: فيما رثي به، وما قيل له من الاشعار:

قال العماد: ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة:
لفقد الملك العادل

بيكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفا
ق لاشمس ولاظل
ولما غاب نور الدين
من عنا أظلم الحفل
وزال الخصر والخبير
ومسات الياس والجود
وعاش الياس والبخل
وعز النقص لما هان
أهل الفضل والفضل
وما كان لنور الدين
لولا نجله مثل

وقال أيضاً:

- ١١١٨٠ -

ياملك أيامه لم تنزل
لفضله فاضلة فآخره
ملكوت دنياك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخرة

وكان الواعظ أبو عثمان المتجب بن أبي محمد الواسطي من
الصالحين الكبار أنشد لنور الدين بقوله:
مثل وقوفك أيها المغرور
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءِ تَمُورُ
إن قيل نور الدين رحمت مسلما
فاحذرب أن تبقى ومالك نور
نهنت عن شرب الخمر وأنت في
كاس المظالم طافح مخمور
عطلت كاس سالف المدام تعففا
وعليك كاسات المظالم تدور
ماذا تقول إذا انقلبت إلى البلى
فردا وجاءك منكرو ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في
يَوْمَ الْحِسَابِ مَسْحُوبٌ مَجْرُورُ
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحد وموسد مقبور
وددت أنك ما وليت ولاية
يَوْمَ مَا وُلَا قَالِ الْإِنْسَامُ أَمِيرُ
وبقيت بعد العز رهن حفرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزيننا
قلقا ومالك في الانعام مجير
أرضيت أن تحييى وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور

أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبدا وأنت مبعدمه جور
مهد لنفسك حجة تنجوها
يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمعها الملك نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب
في سائر البلاد، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على نور الدين
استعانتته في الحروب بأموال المكوس، قال: وكيف تنصرون وفي عسكركم
الطبول والخمور والزمور؟!

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني
الشاعر أنه رأى في منامه أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن
يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد، وقال: هذا تفسير
رؤياك، وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ويقول: إنما
صرفت في قتال أعدائكم من الكفرة، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه
وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين، وكان
يقول في سجوده: اللهم أنا العشار المكاس.

الحادي عشر: في تملك ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن
الملك العادل نور الدين محمود بن الاتابك زنكي بن آقسنقر.

ولما توفي نور الدين في التاريخ المذكور، ملك ولده المذكور دمشق وما
معها بعد أن حلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وكان عمره إحدى
عشرة سنة، وأطاعه أهل الشام، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر
وضرب السكة باسمه، وأظهر له الطاعة، وتولى تربيته وتدبير دولته الأمير
شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، وقال له كمال

الدين بن الشهرزوري ولمن معه من الامراء والمقدمين: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر من أصحاب الشهيد، والمصلحة ان نشاورة في الذي تفعله ولا تخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا، لانه انفرد اليوم بملك مصر، فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا ان يدخل صلاح الدين فيخرجهم، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنيه بالملك، وأرسل دنانير مصر عليها اسمه، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

ولما سار سيف الدين غازي بن قطب الدين، صاحب الموصل، إلى الجزيرة وملك البلاد الجزرية على ما ذكره أرسل صلاح الدين يعتب الملك الصالح حيث لم يعرفه قصد سيف الدين ابن عمه بلاده قبل أخذها ليحضر في خدمته ويكفه عنه، وكتب إلى الشهرزوري والامراء يقول لهم: لو كان نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه ثقته إلي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل إليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربيته لولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها له، وأجازي كلا منكم بسوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده، وتمسك ابن المقدم وجماعة من الأمراء بالملك الصالح ولم يرسلوه إلى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين علي ابن الداية، فإنه كان أكبر الامراء النورية، وإنما منعه من الاتصال بخدمته مرض لحقه، وكان هو وأخوه بحلب وأمرها إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده.

ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمتع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه، فلم يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال إلى حلب.

وفي المرأة: وكان الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكان أبيه، وحضر القاضي كمال الدين ابن الشهرورزي وشمس الدين ابن المقدم، وجمال الدين ريجان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمير الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأن شمس الدين بن المقدم إليه مقدمة العساكر وتربية الملك الصالح، ووصل كتاب صلاح الدين، من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه:

أدام الله أيام مولانا الملك الصالح، ورفع قدره، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره، أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وفيه أقيمت الخطابه بالاسم الكريم، وصرح بذكره في الموسم العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه، ويديم النعمة عليه.

وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية:

وقال العماد: أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل، وهو مجذوذ الذوائب مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تُش، فاستوفى كل قلب حزنه فاستوحش، وبعد ان تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيتة بنور الدين ترجمته: «اسماعيل بن محمود» وفيه: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل مذب الشام بل الاسلام، حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدم الجهاد ومقتني فضيلته ومؤدي فريضته، ومحبي سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه، على أنه يعز ان يرى الزمان نظيره، وما هاهنا مايشغل السر ويقسم الفكر الا أمر الفرنج خذلهم

الله، وما كان اعتماد مولانا العادل وسكونه إليه الا لمثل هذا الحادث
الجليل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادخره لكفايات النوائب، وأعدّه
لحسم ادواء العضلات اللواذب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده
وممكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله الا صورة، والمعنى باق، والله تعالى
حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازره وهل سوى السيد
الأجل الناصر من ناصر».

وفي تاريخ ابن كثير: لما مات نور الدين، وتولى ابنه المذكور، اختلف
الامراء، وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخُمور، وانتشرت
الفواحش، حتى ان ابن أخيه سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود
صاحب الموصل لما تحقق موت عمه، وكان محصوراً منه نادى مناديه
بالبلد بالمساحة في اللعب واللهو والشرب والطرب، ومع المنادي دف
وقدح ومزمار، وتحقق حينئذ قول الشاعر:

ألا فاسقنا سي خمرأ
قل لي هي الخمر
ولا تسقنا سي سرا
وقد أمكننا الجهر

وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الافرنج على قصد دمشق، فبرز إليهم الاتابك ابن المقدم فواقفهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالاً جزیلة عجلها لهم، ولولا خوفهم من قدوم السلطان الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الديار المصرية لما هادنوه، ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب الى الامراء، وخاصة الى ابن المقدم يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الاموال الى الافرنج وهم أقل وأذل، وأنه عزم على قصد البلاد لحفظها من الافرنج، فردوا إليه كتاباً فيه غلظة، وكلاماً فيه بشاعة، فلم يلتفت

إليهم، ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفعوا به الملك الناصر صلاح الدين، فلم يفعل لانه خاف أن تكون مكيدة منهم له، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي سعد الدولة كمشتكين الذي كان قد جعله عنده نور الدين عيناً عليه، وحافظاً له من تعاطي مالا يليق عليه، فلما سمع الخادم بموت استاذة خاف أن يمسكه، فهرب سراً، فحين تحقق غازي موت عمه بعث في طلب الخادم ففاته، فاستحوذ على حواصله، ودخل سعد الدولة حلب، ثم سار إلى دمشق فاتفق مع الأمراء على أن يأخذ ابن استاذة الملك الصالح اسماعيل إلى حلب فيريه هنالك، وتكون دمشق مسلمة إلى الاتابك شمس الدين ابن المقدم والقلعة إلى الطواشي جمال الدين ريجان، فسار معه الأمراء والأكابر من دمشق وذلك في الثالث والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وحين وصلوا إلى حلب جلس الصبي على سرير مملكته، واحتاطوا على بني الداية شمس الدين وعلى أخيه مجد الدين الذي كان رضيع نور الدين وأخوته الثلاثة، وقد كان شمس الدين ابن الداية يظن أن يسلم إليه ابن نور الدين ليربيه، لانه أحق الناس بذلك، فخيّبوا ظنه وسجنوه وأخوه في الحب، فكتب صلاح الدين إلى الأمراء يلومهم على ما فعلوا من نقل الولد إلى حلب، ومن سجن لبني الداية، وقد كانوا من خيار الأمراء ورؤوس الأكابر، ولم ماسلموا الولد إلى مجد الدين بن الداية الذي كان أحظى الناس عند نور الدين.

فكتبوا إليه يسيئون الادب عليه، وكل ذلك مما يزيده حنقاً عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم، ولكنه في هذا الوقت في شغل شاغل بما دهم بلاده من الأمر الهائل، كما سنذكره إن شاء الله تعالى في السنة الآتية، إنه على ذلك قدير.

ذكر الأمور المزعجة:

ومنها أن ملك الروم خرج من القسطنطينية، وقصد بلاد قليج أرسلان، فجرت فيها حرب استظهر فيها المسلمون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كبيرة.

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ثم عادوا عنها، وقد قلنا إن هذا كان بعد موت نور الدين، وأن شمس الدين محمد بن عبد الملك خرج من دمشق، وراسل الافرنج وبذل لهم، فعادوا.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السبعين بعد الخمسةائة:

ذكر تملك صلاح الدين دمشق وأخذها من الملك الصالح بن نور الدين:

ولما مات نور الدين في التاريخ الذي ذكرناه، وتولى عوضه ولده اسماعيل، وطمعت الفرنج في بلاد الشام، واختلفت آراء أمراء الشام، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى الشام لأخذها وحفظها من الأفرنج، ولكن عرض عليه أمران: الأول مجيء الأفرنج إلى بلاد مصر، والثاني مخالفة الكنز المقدم بأسوان، فلنذكر الأمرين أولاً، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق.

أما الأمر الأول، فقد قال ابن كثير: استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول إلى الشام ليحفظه من أيدي الأفرنج المخذولين، ولكن قد دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج قدموا إلى ساحل البلاد المصرية في اسطول لم يسمع بمثله في كثرة مراكبه وما فيه آلات الحصار، وكثرة الرجال والمقاتلة من جملة ذلك مائتا شيني في كل منها مائة وخمسون مقاتلاً، وأربعمائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر اسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها فقاتلوهم دونها قتالاً شديداً، واستمر القتال أياماً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق ما نصبوه من المنجنيقات والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الأفرنج وفت في أعضادهم، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم فقتلوا من أحبوا وأرادوا وغنموا ما شاءوا واختاروا، وانهزم الكفار في كل وجه ولم يكن لهم ملجأ إلا

البحر والقتل، أو الأسر، واستحوذ المسلمون على أموالهم وأثقالهم وحيولهم وما ضربوه من الخيام لنزولهم، وبالجمله قتلوا خلقاً من الرجال وغنموا شيئاً كثيراً من الاموال، وركب من بقي منهم في الاسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله.

وفي تاريخ بيريوس: وفي هذه السنة قصد الافرنج ثغر الاسكندرية وجاءوا في مائتي شيني وطريدة، وأمد الملك الناصر صلاح الدين أهل الثغر بالعسكر وتحرك ليتوجه إليهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب فعادوا خائبين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالاً شديداً.

وفي تاريخ الدولتين: أما وصول الاسطول إلى اسكندرية فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين، وأرسل صلاح الدين كتاباً إلى بعض الامراء بالشام وفيه وصول أول الاسطول وقت الظهر، ولم يزل واصلاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر، لا على خفاء من الخبر، واستنزلوا حيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب، فكانت الخيل ألفين وخمسمائة فارس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل، وكانت عدة الطرائد مائتا شيني، في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الانخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحماله برسم الازواد للرجال أربعين مركباً، وفيها من الرجال المتفرقين وغللمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية مايتم خمسين ألف راجل، ولما تكاملوا نازلين على البر حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة مايناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرح، وجذفت مراكب الافرنج داخله

الى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة، ومراكب مسافرة فسبقهم المسلمون فحسفوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها، واتصل القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر، وكانت عدتهم ثلاثمائة خيمة، فلما أصبحوا زاحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وثلاثة مجانيق كباراً تضرب بحجارة سوداء اصحبوها معهم من صقلية، والدبابات تشبه الابراج في جفاء أخشائها وارتفاعها وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور، وألحوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر، فاستنهض السلطان العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط، وأما اسكندرية فإيهم فتحوا على غفلة وخرج منها من كان بها من الأمراء، فأحرقوا الدبابات المنصوبة، وأنزل الله النصر على المسلمين والخذلان على الكفار، واتصل القتال الى العصر من يوم الاربعاء، وانهزم الافرنج، واستمر القتل والجرح فيهم، ولم يسلم منهم الا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم المسلمون في البحر على بعض المراكب فحسفوها وأتلفوها، فولت بقية المراكب هاربة، وبقي العدو بين قتل وغرق وأسر، واحتفى ثلاثمائة فارس في رأس تل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا، وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شداد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة مابين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك.

وأما الأمر الثاني: فهو نوبة الكنز.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي هذه السنة خالف الكنز بأسوان، وهو مقدم من المصريين كان قد انتزع إلى أسوان، فأقام بها، ولم يزل يدبر أمره، ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية ويقطع خطبة الناصر صلاح الدين، ويخطب لداود بن العاضد،

فاجتمع إليه جمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فأنتهى خبره إلى الملك الناصر، فجرد عسكرياً إليه، وقدم عليه أخاه الملك العادل وتوجه صحبته أبو الهيجاء السمين، فسار إلى الكنز وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والرعية وعربان البلاد، فالتقوا وقتلوا الكنز، وأبادوا جموعه، واطمأن الصعيد، وعاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهرة، ولقب من ذلك الحين بالملك العادل، والكنز المذكور من قبيلة ربيعة، وكان مسكنهم بجزيرة العرب ومستقرهم منها باليامة، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتوكل العباسي، فسكنوا بيوت الشعر في صحارى هذه الأعمال، وكانت البجاة تشن الغارات في كل وقت، فمنعواهم من ذلك، ثم تزوجوا عندهم، وظفروا بمعدن الذهب بالعلاقي، فتمولوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ومما عوق الملك الناصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بالكنز، وسماه بعضهم عباس بن شادي، وكان من مقدمي الديار المصرية، ومن الدولة الفاطمية، وكان قد انتزع إلى أسوان وجمع عليه خلقاً من الرعاع من الحاضرة والعربان، وزعم لهم أنه سيعيد الدولة، ويدحض الدولة التركية، ثم ذكر قريباً مما ذكرناه.

وقال ابن أبي طي: خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شادي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان استنابه بمصر، فجمع له العساكر، وأوقع به وبدد شمله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

وأما توجه السلطان صلاح الدين إلى الشام فقد كان في هذه السنة، فخرج إلى البركة في مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس في ثالث عشر ربيع الأول، وكان عنده رسل شمس الدين

صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين ابن المقدم، ثم سار الى ايلة، ثم أناخ على بصرى فاستقبله صاحب بصرى، ولم يزل في خدمته الى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول، وسار في عسكره حتى دخل دمشق، ودخل إلى دار العقيقي، وكانت مسكن أبيه، وكان في قلعة دمشق جمال الدين ربحان الخادم، فاستماله صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضاً، ونزل في القلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاء لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ ماله من المصالح، وجاء إليه أعيان البلاد منهم: القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فأكرمه السلطان وبالع في اكرامه والامراء والاجناد والاتراك والاكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر، وفي بعض كتبه:

«وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول».

وفيه: «ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين، والأمير سعد الدين بن أنر يوم السبت السابع والعشرين منه، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء باطابة النفوس وإزالة المكوس».

وفي تاريخ بيبس: وفي هذه السنة خرج الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق، واستتاب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية، وكان السبب في ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن ممدود صاحب الموصل، وإلى أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ليجتمعوا جميعاً على قصد صلاح الدين، وأخذ الديار المصرية منه.

فأما أخوه عماد الدين زنكي فإنه امتنع منه لأن صلاح الدين كان قد كاتبه وأطمعه في ملك والده بحكم أنه الكبير، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى أخوه امتناعه سار إليه إلى سنجار وحاصره بها، وامتنع عماد الدين، وجد في حفظ البلد والذب عنها، فدام الحصار عليه فيينا هو يحاصرها أتاه الخبر بانزاع عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين، لأنه كان عند مسيره إلى سنجار قد رتبته مع عسكر بدمشق، وصحبته أمير كبير يسمى عز الدين محمود، فلما وصل صلاح الدين إلى دمشق أخذها وانزاع العسكر الذي بها، فراسل الملك الصالح أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل إلى سيف الدين ابن عمه ليستنجد به على صلاح الدين، فسار بنفسه، وسار صلاح الدين من دمشق إلى حمص، واستخلف عليها أخاه سيف الإسلام طغتكين، وقاتل أهل حمص يوماً واحداً فملكها وامتنعت القلعة عليه، فسار عنها إلى حماه وبها عز الدين جورديك، وهو من مماليك نور الدين فامتنع من التسليم، فسير إليه صلاح الدين يذكر أنه في طاعة الملك الصالح، وأنه ما خرج إلا لحفظ البلاد من الفرنج، فاستحلفه على ذلك، وسلم إليه البلد، فلما تسلمها سار منها إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين، واتفق وصول سيف الدين غازي من الموصل منجداً له، وتقدمت عساكره لقتال صلاح الدين، فبذل له صلاح الدين تسليم حمص وحماة، وأن يقر بيده مدينة دمشق ويكون فيها نائباً من جهة الملك الصالح، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: لا بد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام وعوده إلى مصر، أو القتال، وكان صلاح الدين في أثناء المراسلة يجمع عساكره ويتأهب للقاءه، فلما امتنع سيف الدين من اجابته لما بذل، سار بعسكره فالتقى هو وعسكر سيف الدين غازي على قرون حماه، فهزمهم وتبعهم حتى حازوا معسكرهم، وغنم منهم غنائم كثيرة ودواباً وسلاحاً، وعاد العسكر السيفي منهزم ما إلى حلب فتبعهم صلاح الدين إليها، ونزل عليها محاصراً لها، فراسلوه في

الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم من بلاد حلب معاً، فأجابهم وانتظم الصلح، ورحل عن حلب في شوال منها، وقطع خطبة الملك الصالح من بلاده وأزال اسمه عن السكة.

وفي تاريخ النويري: وفي هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب كمشتكين الطواشي يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها، فسار الصالح إليه، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهورئيس حلب، واستبد كمشتكين بتدبير الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه، فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ووصل إلى دمشق، واستقر فيها، ولم يتطع فيها عنزان، ولاختلف سيفان، وذلك أن نائبها شمس الدين ابن المقدم كان قد كتب إليه أولاً، فأغلظ ورمى الكتاب، فلما رأى أمره متوجهاً جعل يكاتبه ويستحثه على القدوم، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجدد لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد، فنزل السلطان أولاً في دار والده، وهي دار العقيقي، وهي التي بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس رحمه الله، ولما ثبت أمره بها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وأخذ ما في القلعة من الأموال، ثم سار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، ونزل عليها في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه، وإنما هو نائبه، وقصد جرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار جرديك إلى حلب للرسالة، واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب

قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم بذلك أخوه سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب، فنازلها على جبل جوشن وحصرها، فاجتمع أهل حلب، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الاسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوه دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب، ثم رحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، وذلك أن أهل حلب راسلوا القومص صاحب طرابلس، ووعدوا له بأموال جزيلة إن هو رحل عنهم السلطان صلاح الدين، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين ومعتقلاً مدة عشر سنين، ثم فاداه على مائة ألف دينار، وألف أسير من أسارى المسلمين، وكان لا ينسى ذلك لنور الدين، فركب القومص لعنه الله من مدينة طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين، بل قصد حمص ليأخذها بغتة، وركب إليه السلطان، وقد أرسل سرية إلى بلده، فقتلوا منها وأسروا وغنموا، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه، وكر راجعاً إلى بلده، وتراءى أنه قد أجاب إلى ماسألوا، فوصل صلاح الدين إلى حماة، وسار إلى حمص، فرحل الفرنج عنها، وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان المعظم، ثم سار إلى بعلبك فملكها، ولما استقر صلاح الدين في هذه البلاد أرسل الملك الصالح ابن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجد به على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي، وجعل مقدم جيشه أكبر أمراءه وهو عز الدين محمود، ولقبه سلفندار، ووصلوا إلى حلب، وانضم إليه عسكر حلب، وساروا إلى صلاح الدين، وأرسل صلاح الدين يذلل حمص وحماه وأن تبقى بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح بن نور الدين، وانما فعل ذلك صلاح الدين لقلعة الجيش الذي معه بالنسبة لجيش هؤلاء، فامتنع من المصالحة الخادم كمشتكين إلا أن يجعل لهم الرحبة التي بيد ابن عمه

ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه، فقال: ليس لي ذلك ولا أقدر عليه، فأبوا الصلح وأقدموا على القتال، فجعل صلاح الدين جيشه كردوساً واحداً، وذلك يوم الأحد التاسع عشر من شهر رمضان عند قرون حماه، فصبر صبراً عظيماً، وجاءه في أثناء الحال ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ومعه أخوه فرخشاه في طائفة من الجيش، وقد ترجح دسته عليهم وخلص رعبه إليهم، فانهزموا مدبرين وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، فأسر منهم من أسر من رؤسائهم، ونادى ان لا يتبع مدبر، ولا يذفق على جريح، ثم أطلق من وقع في أسره، وسار على الفور حتى نازل حلب، فانعكس عليهم الحال، فبالامس كان يطلب منهم المصالحة، واليوم هم طلبوا منه أن يكف عنهم ويسير عنهم على أن له المعرة وكفر طاب وبارين زيادة على ما بيده من أراضي حماة وحمص وبلبك مع دمشق، فقبل منهم وكف عنهم وحلف أن لا يغزو بعدها الملك الصالح، وأن يدعو له على سائر منابر بلاده وممالكه، وشفع في بني الداية أخوة مجد الدين أن يخرجوا من السجن، ففعلوا ذلك، ثم رجع مؤيداً منصوراً، فلما وصل إلى حماه وصل إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه الخلع السنية والتشريفات العباسية، والاعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وأفيضت الخلع على أهله وأقاربه وأصحابه وأصهاره وأعوانه وانصاره، وكان يوماً مشهوداً، واستناب على حماه ابن خاله وصهره ابن الأمير شهاب الدين محمود، ثم سار إلى حمص فاطلقها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، كما كانت لأبيه من قبل، ثم إلى بعلبك، ثم إلى البقاع، ثم إلى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة.

وفي المرأة : لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق في مجيئه من مصر التقاه أهل دمشق بأسرهم، ونشروا عليه الدراهم والدنانير، وأحسن صلاح الدين إلى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري، ومشى إلى دار كمال الدين فانزعج وخرج إلى لقائه، ودخل صلاح الدين فجلس

وباسطه وقال: يا كمال الدين لما كنت في الشحنة قد كانت بيننا هبات ومشاحنات، وكان كمال الدين يكرهه وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه، فقال له صلاح الدين: مامشيت إليك إلا لأزيل ما في خاطرك من الوهم وأعرفك أن ما في قلبي لك ماتكره، فطب نفساً وقر عيناً، فالامر أمرك، والبلد بلدك.

وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق، ثم كتب إلى الملك الصالح كتاباً تواضع فيه له، وخاطبه بمولانا ابن مولانا، ويقول: إنما جئت من مصر خدمة لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك وماقصدي إلا جمع كلمة الاسلام على الافرنج، فعرض كتابه على أرباب دولته وفيهم خالد بن محمد بن القيسراني وغللمان أبيه وابن العجمي، فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة، فكتب إليه ينكر عليه وينسبه إلى كفر النعمة وجحد احسان والده، ووعدته وتهدده، وبعث بالكتاب ينال بن حسان صاحب منبج، فأغلظ لصلاح الدين الجواب وقال: السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك، وأشار إلى سيفه، فغضب صلاح الدين وقال: والله لولا أنك رسول لضربت عنقك، والله ماجئت إلى هاهنا شرها ولاطمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك، فأنتم سبب زوال دولته، ثم طرده بغير جواب، فعاد إلى حلب، واستتاب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين، وسار إلى حمص فأخذها، وفتح حماه، وسار إلى حلب فاستعانوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم مالا وضياعاً، فأرسلوا إليه جماعة من فتاكهم، ورآهم ناصر الدين خمار تكين صاحب أبي قبيس، فعرفهم لانه كان مشاعراً لهم، وأنكر عليهم مجيئهم، وسبق إلى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين، وكان أمير جندار سيف الدين طغرل هناك، فجذب سيفه وقتل واحداً منهم، واجتمع الغلمان على الباقيين فقتلوهم، ورحل صلاح الدين عن حلب في

أول رجب وجاء إلى حمص، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريجاني، ووصل عسكر الموصل إلى حلب وانضاف إليهم عسكر حلب، ونزلوا على تل السلطان، فساق عليهم صلاح الدين وبغتهم، وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا إلى حلب، وغنم أثقالهم، وأسر أبطالهم، وجاء فحصر حلب وهذه هي المرة الثانية من حصار حلب، والمرة الأولى من كسرة المواصلة، ورجع صلاح الدين فتزل بارين، وأخذها من ابن الزعفراني، وكان من أكابر أمراء نور الدين، ولقبه فخر الدين واسمه مسعود، وأعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد السلطان الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين من الموصل، واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل أن ابن المقدم كتب إلى السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والاحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاية استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرمات^(١٩).

وقال صاحب الروضتين: وكان قد كتاب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهن أطول الملوك يدا

في بسط عدل وسطوة وندا

لاستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدا وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العدا
ومارأينا غزا الفرنج من الـ
ملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة
الابرار يلقاك جمعهم مددا
فهو فقير إليك يأمل أن
يصلح بالعدل منه ما فسد
والله يعطيك فيه عاقبة النصر
كما في كتابه وعدا
فما حباك الوري وألهمك العدل
وأعطاك ما ملكت سدى

ومدح وحيش الاسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها
هو قوله:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسة الأيام إن وثبا
رأيت جلق بعز لا نظير له
فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها
وأرفع الخلق من أوطانها حربا
أحييها مثلما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهب
هذا الذي نصر الاسلام فاتضح
سبله وأهان الكفر والصلبا

ويوم شاوور والايان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلاً في الارض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقباً

ولما نزل السلطان صلاح الدين على حلب أشير على ابن نور الدين
أن يجمع أهل حلب في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه
أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب
العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب
الدرجة، وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال
لهم: يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم، واللاجئ إليكم، كبيركم عندي
بمنزلة الأب وشابكم عندي بمنزل الأخ، وصغيركم عندي حل محل
الولد، وخنقته العبرة، وسبقته الدمة وعلا نسيجه، فافتن الناس،
وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء، وقالوا: نحن
عبيدك وعبيد أهلك نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا
على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح
أن يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على عادتهم القديمة، وأن
يجهروا بحمي على خير العمل، والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الجناز
بأسماء الائمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن
تكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة
الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان
أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

وقال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحمي على خير
العمل، وصلى أبي في الشرقية مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا

في الأسواق، وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وصلوا على الاموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الامامية إليه وفعلوا جميع ماوقعت الايمان عليه.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم في هذه السنة العماد الكاتب، وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له: غدا تأتيك تراجم الاعاجم ومايجلها مثل العماد، فقال: مالي عنك مندوحة، أنت كاتبى ووزيرى، وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا اسكتبت غيرك تحدث الناس، فقال الفاضل: هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك فإذا غبت قام مقامى فاستكتبه.

وقال العماد: وأول ماأهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان من هذه السنة بقصيدة منها قوله:
عاينت طودسكينة ورأيت شمـ

س فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
بيانه ذيل الفخار كوائل
أبصرت قسافي الفصاحة معجزاً
فعرفت أنى في فكاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقوى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل
وجميع ما في الارض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل

- ١١٢٠١ -

في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق آجل

الآيات:

ومنها أن أخا السلطان المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وصل
من اليمن الى دمشق وأقام بها مدة، ثم حضر الى الديار المصرية.

ومنها أن في غيبة صلاح الدين بالشام اجتمعت بالقاهرة طائفة من
جند الارمن والاسماعيلية وجند المصريين، وغلمان العادل أبي بكر، ونادوا
بشعار أبي طاهر بن العاضد، فلما سمع العادل بذلك أوقع بهم وقتل
منهم جماعة، واعتقل جماعة، ونفى آخرين، وكان الذي حملهم على ذلك
الشريف ابن هانىء....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان
صلاح الدين مقيم بمرج الصفر، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة،
فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم السلطان أمورا فالتزموها، وكان
الشام ذلك العام جذبا، فأذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل إلى
بلادهم، وإذا استغلوا خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على
العماد فيما كان بصدد، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل،
وعلى الصيد ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يريشا

فنسأل رب العلى أن تعيشا

من الناس بالبر صدت الكرام

وبالباس في البر صدت الوحوشا

- ١١٢٠٢ -

وكم سرت من مصر نحو العريش
فهدمت للمشركين العروش
سراياك تبعث قدامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العداة
كما طيرت بالفلالريح ريشا

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازي بن مودود صاحب الموصل

وأصل ذلك أن غازي هذا الذي هو ابن أخي نور الدين كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ما وقع بينهم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة، وأرسل رسولا إلى صلاح الدين، ودفع له كتابين: أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهدا للمواصلة ويكشف ما عنده، والكتاب الثاني إلى الحلبيين يلومهم على الصلح ويخبرهم أنه واصل بعساكر الشرق، ولما دخل الرسول على صلاح الدين غلط ودفع كتاب الحلبيين إليه، وذلك لسعادة صلاح الدين، فتأمل له صلاح الدين وعلم أن الرسول غلط، فلم يقل له شيئا، وفهم الرسول، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك، وكتب صلاح الدين إلى مصر إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية إلى الشام بسرعة، وجمع غازي العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عاصيا عليه، مائلا لصلاح الدين، فصالحه، وكان أخوه عز الدين مسعود وعسكره انهزموا في العام الماضي، لما التقوا بصلاح الدين - كما ذكرناه - فصالح غازي فاجتمع معه عسكر كثير، عدته ستة آلاف فارس، وسار إلى نصيبين في ربيع الاول، وأقام بها حتى انقضى الشتاء، فضجر العسكر وفنيت نفقاتهم، فصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر، ثم سار إلى حلب والتقاء الملك الصالح بن نور الدين، فاعتنقه

سيف الدين غازي، وبكى ونزل بظاهر حلب بعين المباركة، وصعد القلعة جريدة، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته.

وفي تاريخ النويري: وكان غازي في عشرين ألف مقاتل، ثم رحل إلى تل السلطان، ومعه هؤلاء العساكر: عسكر الشرق، وديار بكر، والحلبيون، وبلغ صلاح الدين وهو بدمشق، ولم يكن عنده سوى ستة آلاف فارس، كذا في المرأة.

وفي تاريخ النويري: وسار صلاح الدين نحوهم ومعه ألف فارس، ولكن الجيوش قد خرجت من الديار المصرية وفي جحافل كالجبال ووصل الى حماة، ونزل بها، وترك أثقاله بها، وساق الى جباب التركمان، وجاءه رسول الحلبيين بأنهم يخوفونه بأسهم، ويأمرونه بالرجوع إلى أن قال رسولهم: فوافيته وهو في خيمة صغيرة، وهو على بساط، وتحت سجادة، وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة، وإلى جانبه زرديته وسيفه بين يديه، وقوسه وتركاشه معلق في عمود الخيمة، قال: فلما رأيته وقع في خاطري أنه المنصور، لأنني فارقت سيف الدين غازي والأمراء وهم على طنافس الحرير والخمور تروق وليس في خيامهم خيمة الا وفيها أنواع المحرمات، فأديت إليه الرسالة، وجاء وقت الظهر فضج العسكر لصوت الاذان، وفي كل خيمة إمام، فقال لي: الحق بأصحابك وقل لهم يستعدون للقائي فإني عند طلوع الشمس نازل عليهم ﴿يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ [الاعراف ٨٧].

قال: ففارقتة وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم، وسقت عامة الليل فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى، فطلبت سيف الدين غازي فقل لي: هو نائم، قال: فوالله ما انبسطت الشمس الا واعلام صلاح الدين قد أقبلت والكوسات تخفق وأصحابنا نيام، فقاموا مسرعين، وكان يوم الخميس العاشر من شوال، وكانت ملاقاتهم على تل السلطان، وكان

على ميمنة السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى
ميسرته صاحب بصرى، وهو في القلب، وكان في ميمنة المواصلة مظفر
الدين بن زين الدين صاحب إربل، وعلى ميسرتهم الحلبيون وسيف
الدين غازي في القلب.

وفي المرأة: وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين
الدين فطحن ميسرة صلاح الدين، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتغوها،
ونزل صلاح الدين من التل، ورأى أن يياشر الامر بنفسه، وإلا اختل
الامر، فساق عليهم، واتفق وصول العساكر المصرية في تلك الساعة مع
تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، وناصر الدين محمد بن أسد الدين
شيركوه، فهال ذلك الحلبين من دق الكوسات وحسن الاطلاق،
والعدد الوفرة، والخييل العربية، فانخذلوا وولوا منهزمين.

وفي تاريخ النويري: وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة،
فكانت باذن الله الهزيمة، فقتلوا من الحلبين والمواصلة خلقاً، وأخذت
مضارب سيف الدين غازي وحواصله وأسر جماعة من رؤوسهم،
فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من
الافرنج في حال القتال، وليس هذا من صنيع الصناديد.

وفي تاريخ بيارس: وكان غازي قد سبق، ووصل صلاح الدين وقت
العصر، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم على الارض ليس
فيهم حركة، وأشار على غازي جماعة من أصحابه بقتالهم في تلك
الساعة، فتأخر إلى الغد، فلما التقوا من الغد انكسر عسكر سيف الدين
ورجع إلى حلب، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد،
وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب، وسار إلى الموصل
وهو يظن أنه لا ينجو، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده
بالموصل، فاستشار وزيره في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة الحميدية

فمنعه من ذلك، وثبت قلبه، وعزل عز الدين عن إمارة العسكر، واستعمل مكانه مجاهد الدين قاياز.

وفي تاريخ النويري وغيره: ووجد السلطان صلاح الدين في مخيم غازي شيئاً من الاقفاص التي فيها الطيور المطربة وذلك في مجلس شرابه، وكيف ينصر من كان هذا مسلكه، ومذهبه، فأمر صلاح الدين بردها عليه وقال للرسول: قل له: اشتغالك بهذه الطيور أحب إليك من الوقوع فيما رأيت من المحذور، وغنم السلطان من أموالهم شيئاً كثيراً، ففرقه على أصحابه وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازي على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، ورد وطاقه من الجواري والمغنيات، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الاقفاص وآلات اللعب الى حلب، وقال: قولوا له: هذه أحب إليك من الحرب، ووجد عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمر والبرابط والملاهي.

وفي المرأة: ولما انهزم غازي ومن معه ساق صلاح الدين وراءهم وأسر أمراءهم، ونجا غازي بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سراق سيف الدين غازي مفروشا بالرياحين والمغاني جلوس في انتظاره، والخمر تروق، ومطابخه بقدرها، وفيه أقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزارات، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على أصحابه، وأعطى عز الدين فرخشاه سراق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاءاً حسناً.

ذكر ماجرى لصلاح الدين بعد انتصاره:

قال النويري: لما رجع الحلبيون الى حلب وهم منهزمون ندموا على نقضهم الايمان، ومخالفتهم لطاعة الرحمن، وشقهم العصا على السلطان، وتحصنوا بالبلد خوفاً من وثوب الاسد ابن أخي الاسد، وأسرع صاحب

الموصل فوصلها وماصدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ماغنم أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التي حول البلد، ثم نعود إليهم فلا يمتنع علينا أحد منهم، فشرع يفتح الحصون حصناً حصناً ويهدم من أركان دولتهم ركناً ركناً، ففتح بزاعة ثم سار إلى أعزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخلت طائفة منهم في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هي باللامعة فسلمه الله، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان ليذبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم تاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوا رأسه، ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل ثم هجم آخر على بعض الأمراء فقتل أيضاً، وهرب الرابع فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد ففتحه وأقطعه ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب لما أرسلوا من الفداوية، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن، وضرب خيمته على رأس الياروقية وذلك في خامس عشر ذي الحجة من هذه السنة، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ومنع أن يدخل البلد شيء أو يخرج منها شيء واستمر حصاره، إياها حتى انسلخت هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس: لما انهزم غازي وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره، سير طائفة إلى بزاعة فحاصروها وقاتلوا من بها وأخذوها، ورتب بها من يحفظها، وسار إلى منبج فملكها عنوة وأخذ صاحبها أسيراً، وكان بينه وبين صلاح الدين عداوة قديمة، وهو قطب الدين ينال ابن حسان المنبجي، ثم أطلقه فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين

غازي الرقة، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها وهي من أحصن القلاع، وقتل عليها كثير من العسكر، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها.

وفي المرأة: لما نزل صلاح الدين على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان، فقاتله واتفق وقوع ثلثة في السور، فطلب الامان لنفسه، فأمنه فخرج سلباً وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة ألف دينار، وعرض عليه المقام عنده فامتنع، وسار الى صاحب الموصل، كما ذكرناه، ثم سار السلطان ففتح حصن بزاعة، ثم نازل أعزاز فأقام عليها ثمانية وعشرين يوماً، وفتحه في ذي الحجة من هذه السنة.

وفي تاريخ الدولتين: وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة منها:
فالحمد لله الذي أفضاله
حلوا الجناعلى السناوضاحه
عاد العدو بظلمه في ظلمة
في ليلة ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال ومادرى
أن الذي يجني عليه سلاحه

وقال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء.

وقال العماد: نظمت قصيدة والابيات منها:
نصر أنار الملكهم برهانه
وعلال ذلة شانكم شاناه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبوا المظفر يوسف سلطاناه
الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه

والدهري يأتي بغير مرادكم
فعلى القضاء لأجلكم جريانه
فكأننا الله في أحكامه
فلك على إشاركم دورانه
فخرأبني أيوب إن فخاركم
بذل الملوك السابقين رهانه
يكفي حسودكم اعتقالاتهم
فكأننا أشجانه أشجانه
الدين عز الدين عز بنصركم
والكفر ذل بعونكم أعوانه
قد كان جيشهم كبحر زاهر
واللابسون جواشنا حيتانه

الآيات:

وقال العماد أيضاً في فتح منبج قصيدة منها قوله:
نـزولـك في منبـج
على الظفر المبهـج
ونجحـك في المرتـجـي
وفتحـك للمـرتـجـج
دليل على نجح مـا
تحاول أو تـرتـجـي
أمورك فيما تـروم
واضحـة المنهـج
وشانـيك دامـي الشـؤ
ون منـك شقـسي شجـي

وقال ابن أبي طي: لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه،
وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله

ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفاته فرأى مكتوباً على الأكياس والآنية يوسف، فقليل له ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له، فقال السلطان: أنا يوسف، وقد أخذت ما حبيء لي، فتعجب من ذلك.

وقال العماد أيضاً قصيدة في فتح أعزاز منها:
أعطاه رب العالمين دولته
عزة أهل الدين في أعزازها
حاز العلي بيأسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها

إلى أن قال:
تمن من فتح أعزاز نصرة
أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها
كانت تنال العزم من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قيامها

ذكر بقية الحوادث:

منها: أنه في رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصله وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر وأعطاه السلطان سراق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام وأمره أن يكون في وجه الفرنج، لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج على عاداتهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والسبعين بعد الخمسائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر لحلب، وقد ضجر الناس من طول الحصار، فترددت الرسل بينهم، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح ابن نور الدين، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردین، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب فسأله الصلح فصالحهم على أن تكون حلب وعملها للملك الصالح بن نور الدين فقط، وكتب بذلك الكتاب، فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عزاز، وأرسل بأخت له صغيرة وهي الخاتون بنت نور الدين ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله، فحين رآها صلاح الدين قام قائماً وقبل الأرض وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً.

ذكر رحيل صلاح الدين عن حلب:

ولما تعاقدوا على ما ذكرنا رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشر بـعـقـين من المحرم، وقصد بلد الاسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصيات، فقتل وخرب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، الذي كان نائب دمشق جماعة من أسارى الافرنج الذين عاثوا بالبقاع في غيبة السلطان واشتغاله بحصار مصيات، فجدد

له العزم على غزو الافرنج، فصالح الاسماعيليه أصحاب سنان ثم كر راجعاً إلى دمشق.

وفي تاريخ الدولتين: وكان الأسرى أكثر من مائتي أسير، وقال ابن أبي طي: وكان أكبر الدواعي في مصالحة صلاح الدين لسنان مقدم الاسماعيليه وخروجه من بلادهم خوفاً من الفرنج أن يهيجوا في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

وقال العماد: وكان خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الافرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدة في الأسار منهم سيف الدين أبو بكر السلا، ووصل السلطان إلى حماه واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الاخوان في المخيم بالميدان..... قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة، وعزم إلى مصر السفر... وفي هذا الشهر تزوج صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر، وكانت زوجة الملك نور الدين الشهيد رحمه الله، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرمة، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومعه جماعة من العدول، وبات السلطان عندها تلك الليلة واللييلة التي بعدها ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها.

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر:

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول، ونزل بمرج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين.

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة:

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين إلى عند بحر القلزم ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولاسيما من المأكّل المتنوعة.

ذكر ما صدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة:

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب في القصر كل اسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وكانت كتب كثيرة جداً، قالوا إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، وكانت خزائن مملوءة بها في القصر، وكان الحاكم على القصر ومتولي أموره الأمير بهاء الدين قراقوش، ولما حضرت الناس للشراء، كان الدلالون يخرجون عشرة من كل فن، كتباً مميزة وتباع بالهون، وتسام بالدون، وربما كان دلال يشارك مع واحد فتقوم عنده بعشرة ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة.

قال العماد: ولما رأيت الأمر حضرت واشترت كما اشتروا، واستكثرت من ذلك، ولما عرف السلطان بذلك، وكان بمئين، أنعم بها عليّ، وأبرأ ذمتي من ثمنها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها، وقال: كنت طلبت كتباً عيتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت كلها وما استغني عنها فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقل نوال.

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة، ودور السور تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراع بالهاشمي.

وفي تاريخ الدولتين: ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، وقال: إن أفردت كل واحدة بسور أحتاج إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطيء إلى الشاطيء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببرج وصلها بالبرج الأعظم.

وقال العماد: ومبلغ السور وهو دائر بالبلدين: مصر والقاهرة، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطيء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل وقطع الخندق وحفر واديه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها، ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع، والعمارة مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

ومن ذلك أن السلطان رحمه الله أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها، وتولاه الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وأمر أيضاً باتخاذ دار في القصر ببيمارستاناً للمرضى ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفاً كثيرة.

ذكر خروج صلاح الدين إلى الاسكندرية:

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب معه ولديه الأفضل عليا والعزیز عثمان، وجعل طريقه على دمياط فأقام بظاهرها يومين، ثم وصل إلى ثغر الاسكندرية.

قال العماد: وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد السلفي، وسمعنا عليه ثلاثة أيام: الخميس والجمعة والسبت رابع عشر شهر رمضان. قال: وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر وما انصرفنا حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

وقال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها، رأى ان لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد اخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الاسطول وجمع له الأخشاب والصناعات كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له اقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب الى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الاسطول وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يبارح البحر، ويغزى إلى جزائر البحر.

ذكر مجيء الرسل إلى صلاح الدين:

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل، ورسول صاحب حصن كيفا، ورسول صاحب ماردین، فأولاً جاءوا الى دمشق فاستوثقوا

بتحليف أخى السلطان صلاح الدين وهوشمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب الحصن في الأسر.

وقال ابن أبي طي: وصل رسول صاحب الموصل القاضي عماد الدين ابن كمال الدين الشهر زوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق وخرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج، وأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه وأحسن إليه.

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس من أعمال مصر:

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو، وهو يركب للصيد والقنص، ويتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص.

وقال في الخريدة : كنا نخمين على مرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية تسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل في قيد الاسار، وسنذكر خروجه في الغزاة في السنة الآتية إن شاء الله.

وفي هذه السنة أبطل صلاح الدين الذي كان يؤخذ من الحج بجده مما يحمل في البحر، وعوض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف اردب قمحا تحمل إليه في البحر ويحمل مثلها فتفرق في أهل الحرمين.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن صاحب المرآة ذكر أن في هذه السنة كانت نوبة الكثر مقدم

السودان بالصعيد، جمع كل أسود بالصعيد، وسار إلى القاهرة في مائة ألف ليعيد الدولة المصرية، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وأبو الهيجاء الهكاري، وعز الدين موسك، والتقوا فقتل الكثر ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ما ذكره في المرأة أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبك، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بها، فخرج وكمز لهم في الشعاري والغياض وأوقع بهم وقتل وأسر نحو مائتي رجل.

ومنها أن الروم قصدت بلاد قليج أرسلان بن مسعود في جمع من الحشود فالتقاهم وكسروهم وقتل منهم جماعة وأسر أسرى كثيرين، وبعث برؤوس القتلى وبيع بعض الأسرى إلى الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

ومنها أنه عصى شهاب الدين محمد بن نزار صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان في طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متولي مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن نزار عداوة فأرسل إليه وزير سيف الدين كتاباً حسناً يأمره بالعود إلى الطاعة، والرجوع عن المخالفة والمعصية، فلما وصل الكتاب إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل فأوجب ماجرى من ابن نزار.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضاة الشهرزوري: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله ابن أبي أحمد الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، قاضي القضاة بدمشق، وكان فاضلاً ديناً أميناً ثقة ورعاً، ولي القضاء بدمشق لنور الدين محمود بن زنكي، واستوزره أيضاً فيما حكاه ابن الساعي، قال: وكان يبعثه في الرسائل، كتب مرة على أعلى القصة: محمد بن عبد

الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك: صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب، وعمر له المدارس والمدارس وغير ذلك من الأمور.

وقال ابن خلكان: وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل، وتوفي يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وقال: ولما ملك صلاح الدين الشام أقره على ما كان عليه في أيام نور الدين، وكان شهياً جسوراً كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وبنى بالموصل مدرسة للشافعية ورباطاً بمدينة الرسول عليه السلام، وتولى القضاء بالموصل أيضاً وله نظم جيد، فمن ذلك قوله:

ولقد أتيتك والنجوم رواصد

والفجر وهم في ضمير المشرق

وركبت من أهوال كل عظمة

شوقاً إليك لعلنا أن نلتقي

وفي المرأة: قدم بغداد وتفقه على أسعد الميمني بالنظامية، وسمع الحديث ببغداد والموصل، وكان رئيس أهل بيته، وولي القضاء بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين وكان إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنة دمشق إليه، ولى فيها بعض غلمانها، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين، وكانت بينهما مضاجعة، وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها، فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين، وطيب قلبه، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أول من سكن جبل قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها، فاشترى كمال

الدين قرية الهامة بوادي بردى، ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة والنصف الآخر على الاسارى، وهي باقية إلى هلم جرا، ولما مرض كمال الدين وهو بدمشق بلغ ابن أبي عصرون، وهو بحلب، فقدم دمشق ودخل على القاضي كمال الدين وعانقه وبكى، فلما توفي كمال الدين تولى ابن أبي عصرون أمره، وخرج في جنازته ماشياً هو وجميع الملوك مشاه: سيف الاسلام، وتقي الدين عمر، وشمس الدولة وغيرهم وصلى عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن بسفحه قريباً من الجادة عند مسجد البصار، ولم يكن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنده ابن أخيه ضياء الدين أبو الفضائل، وكان كمال الدين قد تصدق بجميع ما كان عنده، وأوصى بماله ووقف أوقافاً كثيرة على أبواب البر، وقيل إنه لم يكن له كفن فكفن في احرامه، وأوصى بالقضاء إلى ابن أخيه ضياء الدين مع وجود ولده، وكان لكمال الدين ولد اسمه محمد بن عبد الله، ولقبه محيي الدين، وكان أبوه ضياء الدين قاضياً على حلب، وهو تاج الدين الشهرزوري.

وفي تاريخ الدولتين: ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله العباسي، والسلطان صلاح الدين نجيم بمرج فاقوس ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها، ثم قصد أنه يسير إلى غزة وعسقلان.

ذكر غز وصلاح الدين عسقلان والرملة:

وفي جمادى الأولى سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الفرنج، فوصل إلى عسقلان والرملة في الرابع والعشرين من الشهر فذهب، وتفرق عسكره في الاغارة، وبقي السلطان في بعض

العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليهم، فقاتلهم، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد حسن الصورة لما بدت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الافرنج، فحمل عليهم وقاتلهم وأثر فيهم أثراً كبيراً، فعاد سالماً، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيداً، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج للسلطان، فمضى منهزماً الى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للاغارة أسرى، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الآخر كما ذكرنا، فحزن على المقتول والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب وناح كما ناح داود، وكذلك أسر الفقيهان الاخوان: ضياء الدين عيسى وظهير الدين، وكانا من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين فافتداها السلطان بعد سنتين بسبعين ألف دينار، ووصل السلطان الى القاهرة في نصف جمادى الآخرة.

وفي المرأة: خرج صلاح الدين في جمادى الآخرة من مصر بالعساكر، ونزل على عسقلان، ثم نزل يريد تل الصافية، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج، فثبت تقي الدين عمر وقاتل ثم غلب، وقتل من المسلمين خلق كثير وانهزمت عساكر الاسلام، وأسر كثير منهم الفقيه عيسى وغيره، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد، وسار صلاح الدين في الليل إلى مصر من غير دليل ولا ماء ولا زاد، وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة وكاد يتلف جوعاً وعطشاً، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله، وكان مقدم الفرنج أرناط، وكان من أكبر ملوك الافرنج، وماتت عسكر المسلمين الا انهم كانوا تفرقوا في الغارات، وكانوا زيادة على عشرين ألفاً، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين، ولم يكن لهم

حصن يأوون إليه، فدخلوا الرمل وتبعهم الفرنج قتلاً وأسراً، ومن سلم منهم مات جوعاً وعطشاً، وكان يوماً عظيماً على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين، ورجع أرناط بجمعه إلى حماه كما نذكره ان شاء الله الآن.

وقال ابن الأثير: كتب صلاح الدين بخط يده إلى أخيه تورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله:
ذكرتك والخطي يخطريننا
وقد نهلت من المثقفة السمر

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ومانجانا الا الله سبحانه وتعالى منه، إلا لأمر يريد سبحانه^(١٩)

ذكر حصر الفرنج حماه: وذلك أنه وصل من الفرنج كند كبير في البحر، فرأى صلاح الدين وقد عاد منهزماً إلى مصر فاغتنم خلو البلاد، وليس بها إلا شمس الدين تورانشاه بن أيوب نائباً عن أخيه، وليس عنده كثير من العسكر، فجمع الكند من بالشام من الفرنج، وفرق فيهم الأموال، وسار إلى مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال صلاح الدين، وهو يومئذ مصاب بمرض شديد، وكانت لطائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها، فدخلوا إليها وأغاثوا من بها، وقتلوا الفرنج قتلاً شديداً، ودخل الفرنج البلد، فاجتمع العسكر وأهل البلد وقتلوه حتى أزالوهم منها وأخرجوهم إلى ظاهرها، فساروا إلى حارم، واتفقت وفاة شهاب الدين الحارمي على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال العماد: ومن شرط هدنة الفرنج أنه متى جاء ملك من ملوكهم كبير لا يمكنهم دفعه، فإنهم يقاتلون معه ويؤازرونه وينصرونه، فإذا انصرف عنهم عادت الهدنة كما كانت، فقص هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماة وصاحبها شهاب الدين مريض، ونائب دمشق ومن معه

من الامراء مشغولون ببلداتهم فكادوا يأخذون البلد، ولكن هزمهم الله تعالى بعد أربعة أيام، فانصرفوا إلى حصن حارم فلم يتمكنوا من أخذه وكشفهم عنه الملك الصالح صاحب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ما طلبه الكفرة النصارى.

وقال العماد أيضاً: ووصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طواغيت الكفر، قلت: هذا هو الذي ذكرناه الآن، الذي جرى منه ماجرى.

ذكر توجه صلاح الدين الى الشام:

لما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم برز من الديار المصرية قاصداً إلى بلاد الشام لغزو الفرنج، ونزل في البركة حتى خرجت العساكر، ورحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل إلى أيلة في عاشر الشهر، واستناب أخاه بمصر الملك العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنية الحج، وسافر العماد معه، ووصل السلطان إلى دمشق في الرابع والعشرين من شوال وبها أخوه شمس الدولة مشغولا ببلداته ولهوه، وكان قد بعث إلى الفرنج بمال مصانعة، فعز على صلاح الدين ولامه وقبح فعله، وقال: أنت مشغول باللعب وتضييع أموال المسلمين، وأقام صلاح الدين بدمشق.

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كمشتكين مدبر دولته:

قال العماد: وقعت المنافسة بين الخليين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي أبو صالح، وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم العسكر وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدام فسلموا لابن العجمي

الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر فتكلم فيه حساده، وقالوا للملك الصالح: ماقتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فما زالوا عليه حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارم، فكتب إلى نوابه بها وأبوا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة وخوفوه بالصرعة، فلما طال أمره قصر عمره.

ونزل عليه الأفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولى بها مملوكاً يقال له سرخك.

وقال ابن الأثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين، فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعلقوه منكوساً ودخن تحت أنفه، فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم إنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شداد: أما الملك الصالح فإنه تحبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الأفرنجية، ولما رأى أهل القلعة حصرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من رمضان، ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثم عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على الاختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أنه اجتمعت طائفة من الافرنج وقصدوا أعمال حمص، فقتلوا

وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه إليهم وسبقهم ووقف على طريقهم مكمنا لهم، فلما وصلوا خرج عليهم هو والكمين، ووضع السيف فيهم، فقتل أكثرهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا مثخنا بالجراح واسترجع منهم جميع ما أخذوه، وردده على أصحابه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان من خيار الأمراء وشجعانهم، وقد أقطعه ابن أخته حماه حين فتحها، وقد حاصره الفرنج هناك وهو مريض، وكادوا يأخذون البلد ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام كما ذكرنا، فانصرفوا خائبين، وتوفي شهاب المذكور بعد ذلك في هذه السنة، وأعطى صلاح الدين حماه لناصر الدين منكورس بن خماتكين صاحب صهيون، وقيل إنما أعطاها لتقي الدين عمر، وكان ناصر الدين نائباً عنه والله أعلم.

كمشتكين الخادم، خادم نور الدين محمود بن زنكي، وكان من أكابر خدامه ولاه قلعة الموصل نيابه عنه، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، وأقطعه الملك الصالح حارم، وأقام بها وعصى عليه، فلما حصره الفرنج صالحه كما ذكرناه، ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسة:

استهلّت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين بالشام، وجاءه كتاب من القاضي الفاضل وهو بالديار المصرية يهنئه بولود مولود له وهو أبو سليمان داود، وهو موف لاثني عشر ولداً، وقد ولد بعده عدة ذكور أيضاً، فإنه توفي عن سبعة عشر ولداً

ذكراً، وابنة صغيرة وهي مؤسسة خاتون التي تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن الملك العادل كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وذكر هذا في تاريخ الدولتين في السنة الماضية، نقلا عن العماد الكاتب.

وفي رمضان وصلت الخلع السنية من الخليفة إلى السلطان صلاح الدين، وهو بدمشق، وزيد في ألقابه: معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيه تورانشاه ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة أسقط صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، وربما فاته الوقوف بعرفه، وعوض السلطان أميرها بما لا يحمل إليه من مصر وبغلال في كل سنة ثمانية آلاف اردب ليكون عوناً له ولا تباعه، وقرر أيضاً قدر ذلك للمجاورين يحمل إليهم في كل سنة.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله:

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم بعلبك، وكان صلاح الدين قد أعطاه إياها، وقدم صلاح الدين إلى دمشق فأرسل يطلبه فاعتذر خوفاً من شمس الدولة لأنه طلب منه بعلبك فامتنع، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلبك، وأقام سبعة أشهر يحاصرها فنقد ما عنده، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض، فأعطاه بارين وكفر طاب، وخرج شمس الدين بن المقدم إليها، وسلم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين نازلاً على ظاهر حمص ولم يجيء إلى خدمته ابن المقدم المذكور لأنه بلغه أن أخاه تورانشاه طلب بعلبك منه فأطلقها له، فامتنع ابن المقدم من الخروج إليه لذلك، وجاء السلطان إلى دمشق ثم حضر إلى بعلبك بنفسه فحصره فيها من غير قتال حتى

جاءت الامطار والثلوج والبرد، فعاد إلى دمشق في رجب ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال، ثم حصل التعويض، فخرج كما ذكرنا.

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الفرنج:

وفي هذه السنة جهز صلاح الدين المذكور بين يديه لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين، وعاثوا في نواحي دمشق وقراها بالفساد، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ولا يقاتلهم حتى يقدم عليه، فلما التقوا عاجلوه بالقتال فكسرهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وهو الكنفري، وكان من أكابر ملوكهم، وركب صلاح الدين رحمه الله في أثر ابن أخيه، فما وصل الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى.

وفي المرأة: بلغ صلاح الدين أن الكنفري يريد أن يغير على دمشق، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق، وقال له يقيم عند مرج عيون، فإن جاءوا فأرسل كتب الطيور إلي ولا تواقعهم حتى أتيتك، فسار ونزل مرج عيون، فلم يشعر إلا بطلائع الكنفري قد خالطته، ووقع القتال فلم يقدر فرخشاه على اعلام صلاح الدين فقاتلهم بنفسه، وجرح الكنفري جراحة موثقة فأخذوه وانهمزوا، وغنمهم فرخشاه، ومات الكنفري بعد أيام، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب، وبعث السرايا والغارات إلى بلد الفرنج.

ذكر بناء الفرنج قلعة عند بيت الاحزان:

وفي هذه السنة بنت الفرنج لعنهم الله قلعة عند بيت الاحزان للداوية، فجعلوه مرصاداً لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم، ونقضت ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا.

على نواحي البلدان من كل جانب ليشغلوا المسلمين عنهم، وتتفرق جيوشهم فلا تجتمع في بقعة واحدة، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر بثغر حماه، ومعه شمس الدين ابن المقدم، وسيف الدين علي ابن أحمد المشطوب، وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، وبعث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهو الملك العادل نائب مصر، يأمره أن يرسل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الافرنج، وكتب إلى الافرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن الذي بنوه للداوية فامتنعوا الا ان يبذل لهم ماغرموه عليه، فبذل لهم ستين ألف دينار، فلم يقبلوا، فوصلهم إلى مائة ألف دينار، فأبوا، فقال له ابن أخيه تقي الدين عمر: ابذل هذه في أجناد المسلمين، وسر إلى هذا الحصن، ففعل ذلك.

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة:

كان السلطان صلاح الدين نازلا بجيشه على تل القاضي بيانياس، ثم قصده الافرنج بقضهم وقضيضهم، فنهض إليهم فالتقاهم، فهاهو الا ان تواجه الفريقان حتى أنزل الله تعالى نصره، فانهزمت الافرنج، وقتل منهم خلق كثير، وأسر منهم جماعة من ملوكهم منهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب الرملة، وصاحب طبرية، وقسطلان يافا وآخرون من ملوكهم، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ومن فرسان القدس جماعة كثيرون، تقريبا من ثلاثمائة أسير من فرسان النصارى.

وفي تاريخ بيبرس: وكان فيمن أسر بادين بن بارزان، وأود بن القومصية، وأخو صاحب جيبيل، فحملوا إلى قلعة دمشق فاعتقلوا بها، فأما بن بارزان فاستفك نفسه بجملة عظيمة، وبألف أسير، واستفك ابن القومصية أيضاً، ومات أود في السجن.

وقال العماد الكاتب: لما أسر هؤلاء استعرضهم السلطان في الليل حتى أضاء الفجر، وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء، وقد كان السلطان ليلئذ جالساً في نحو العشرين، وهم في هذه العدة، فسلمه الله منهم، ثم أرسلهم إلى دمشق ليعتقلوا بقلعتها، فافتدى ابن بازان صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من بلاده، وكذا افتدى جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة وتحف جليلة، ومنهم من مات في السجن فانتقل منه إلى سجين.

واتفق أنه في اليوم الذي ظهر فيه السلطان على الفرنج بمرج عيون هذا ظهر الاسطول على بطسة للفرنج في البحر وأخرى معها، فغنموا منها ألف أسير من السبي، وعاد إلى الساحل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فرحاً، وسروراً، وقد كان الملك المظفر تقي الدين عمر غائبا عن هذه الواقعة مشتغلاً بما هو أعجب منها، وذلك أن ملك الروم قليج أرسلان بعث يطلب حصن رعبان، وزعم أن نور الدين محمود اغتصبه منه، وأن ولده قد أغضى له عنه، فلم يجبه إلى ذلك السلطان، فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فالتقوا بهم فهزموهم باذن الله، فاستقرت يد الملك الناصر صلاح الدين على حصن رعبان، وقد كان قديماً مما عوض به ابن المقدم عن بعلبك، وكان تقي الدين عمر يفتخر بهذه الواقعة، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفاً، وقيل ثلاثين ألفاً بثمانمائة، وكان السبب في ذلك أنه بيتهم وأغار عليهم وهم غارون، فما لبثوا أمامه بل فروا منهزمين عن آخرهم، فأكثر فيهم القتل واستحوذ على جميع ما تركوه في خيامهم.

ثم ركب صلاح الدين في جحافله إلى الحصن الذي كانت الفرنج قد

بنوه في سنة أربع، وسبعين وخمسمائة وحفروا فيه بئراً وسلموه إلى
الداوية، فقصده السلطان فحاصره ونقبه من جميع جهاته، وألقى فيه
النيران فجعله دكاً وخربه إلى الأساس، وغنم مافيه من الحواصل، فكان
فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكّل كل شيء، وأخذ منه سبعمائة
أسير، فقتل بعضاً وأرسل إلى دمشق الباقيين، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً
منصوراً، غير أنه مات من أمرائه عشرة بسبب ما نالهم من الحرّ والوباء
في مدة الحصار، وكانت أربعة وعشرين يوماً، وعاد الناس إلى زيارة
مشهد يعقوب عليه السلام على العادة القديمة، وكان الحصن المذكور
الذي بناه الفرنج قريباً من صفد، وكان عرض سورته عشرة أذرع،
وارتفاعه أربعون ذراعاً، وكان بيت الأحزان الذي يزعمون أن يعقوب
عليه السلام كان ينفر فيه ويكي على يوسف، عليه كنيسة، فجعله
السلطان مسجداً، وقد امتدحه الشعراء، فقال بعضهم وهو أحمد بن
نقاده الدمشقي:

هلاك الفرنج أتى عاجلاً
وقد آن تكسير صلبها
ولو لم يكن قد دنا حتفها
لما عمّرت بيت أحزانها

ذكر الأمور المزعجة:

منها كان غلاء شديد بسبب قلة المطر وعمّ العراق والشام وديار
مصر واستمر إلى سنة خمس وسبعين، فجاء المطر ورخصت الأسعار،
ولكن تعقب ذلك وباء شديد وعمّ البلاد مرض واحد وهو البرسام، فما
ارتفع إلا في سنة ست وسبعين، فمات في ذلك الوباء خلق كثير وأمم
لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم متوكلين على الله لأنهم كانوا عدة قليلة، وصدقوا القتال فنصرهم الله، وانهزمت الافرنج وكثر القتل والاسر واستردوا منهم ماغنموا، ووصل صلاح الدين إلى حماه، فأمر باحضار الاسارى وقتلهم، فأحضروا وقتلوا.

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين، ويعرف بابن المجاور معلماً، وتسلم فرخشاه بعلبك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والسبعين بعد الخمسائة:

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله:

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل إلى رعبان منجداً لنور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان بن مسعود ملك الروم، وسبب ذلك أن نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان، ثم أحب مغنية وتركها نسياً منسياً، فشكت حالها إلى أبيها، فعزم على قصد بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستنجد به ويسأله كف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان في ذلك، فأعاد الجواب: إنني كنت عند تزويجه ابنتي دفعت إليه عدة حصون، ولا بد من اعادتها إليّ، وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج فسار في عساكره نحو بلاد قليج أرسلان وهي: ملطية، وسيواس، وقونية، ومايينها، فلما سمع قليج أرسلان بقربه منه أرسل إليه بعض أمرائه، وذكر له بعض الحديث الذي جرى منه، فقال صلاح

الدين للرسول: قل لصاحبك لئن لم ترجع عن بلاده لاسيرن إلى ملطية ، ولأنزل عن فرسي الا في الباب، وكان الرسول قد عاين جيشاً عظيماً، وكان عاقلاً أريباً، فقال لصلاح الدين: أريد أقول للسلطان كلاماً لم يرسلني به استاذي؟ فقال له: تعطيني الأمان؟ فقال: قل وأنت آمن، فقال: يامولانا أما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين قدراً وأكبرهم شأنًا ان يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل مافيه صلاح لك ولرعيتهك وللمسلمين عامة، وخسرت أنت وعسرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية، ما يكون عذرك عند الله تعالى، ثم عند الخليفة وملوك الاسلام، وكافة العالم، وهب أن أحداً ما يواجهك بهذا، أما يعلمون ان الامر كذا، ثم احسب أن قليج أرسلان مات وهذه ابنته قد ارسلتني إليك تستجير بك وتسألك أن تنصفها من زوجها، فإن فعلت فهو الظن، وإن لم يكن أفيحسن بك أن تردها، فقال صلاح الدين: الحق ببلدك وإن الامر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل علي واستجار بي، ويقبح بي تركه، ولكن اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ماتحبون وأعينكم عليه، ووعد من نفسه بكل جميل، واجتمع الرسول بنور الدين بن قرا أرسلان، وترددا القول بينهم فاستقر له أن يخرج المغنية بعد سنة، وإن لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقليج أرسلان عليه، ولما تقرر الحال على ذلك قصد صلاح الدين بلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد استمال قومًا من التركمان وبذل لهم الامان وأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة منيعة كثيرة الوعر، ثم غدر بهم، وسبى حريمهم وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم وقتل منهم جماعة، فنزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبث الغارات على بلاده، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ، فخربه وأحرقه، وهو يسمى حصن المناقير، وسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير فأدركه قبل أن ينقل مافيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه، فأطلق ابن

لاون من عنده من أسرى التركمان، وأعاد السبي والأموال، وعاد صلاح الدين، وتوجه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازي، والملك العزيز ولداه واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أخيه.

ومنها أنه في رجب قدمت رسل الخليفة الناصر لدين الله ومعهم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق، وزينت له البلاد، وكان يوماً مشهوداً.

وفي المرأة: وفيها وصل شيخ الشيوخ وصحبته رسول الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومعهما خلع وهدايا، فلبس السلطان الخلع بدمشق وزينت له المدينة، وكان يوماً مشهوداً.

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الديار المصرية لينظر في أحوالها وأمورها ويصوم بها رمضان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلك إلى بيت الله الحرام، واستتاب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب، وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمن ومكة يعلمهم بعزم السلطان على الحج في هذا العام إلى المسجد الحرام ليتأهبوا للملك ويهتموا به، واستصحب السلطان معه صدر الدين أبا القاسم عبد الرحيم بن شيخ الشيوخ ببغداد، الذي قدم في الرسالة من جهة الخليفة ليكون في خدمته إلى الديار المصرية، وفي صحبتته إلى الحجاز الشريف، فدخل السلطان مصر وتلقاه الجيش، وكان يوماً مشهوداً، وأما صدر الدين فإنه لم يقم بها إلا قليلاً حتى توجه إلى الحجاز الشريف في البحر، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام.

وفي المرأة: وإنما ركب شيخ الشيوخ البحر من مصر ومضى إلى مكة لنذر كان عليه، وأقام إلى أيام الموسم وحج وعاد إلى بغداد.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وأقام في الملك عشر سنين وشهوراً، وأصابه مرض مزمن، وتوفي يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود.

وقال ابن كثير: وكان سيف الدين غازي شاباً حسناً مليح الشكل، تام القامة مدور اللحية، مكث في الملك عشر سنين ومات عن ثلاثين سنة وكان عفيفاً في نفسه مهيباً وقوراً لا يلتفت إذا ركب ولا إذا جلس، غيوراً لا يدع أحداً من الخدم يدخل على النساء، وكان لا يقدم على سفك الدماء، وينسب إلى شيء من البخل.

فأجلس مكانه في المملكة أخوه عز الدين مسعود، وجعل مجاهد الدين قياز نائبه ومدبر مملكته، وجاءت رسل الخليفة يلتمسون من صلاح أن يبقى سروج والرها والرقه وحران والخابور ونصيبين بيده كما كانت في يد أخيه، فامتنع السلطان من ذلك، وقال: هذه البلاد هي حفظ ثغور الاسلام، وإنما كنت تركتها في يده ليساعدنا على غزو الافرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك.

وفي تاريخ بيارس: وكان مرض غازي السل، وأراد أن يعهد بالملك إلى ابنه الأكبر معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يجبه أخوه مسعود إلى ذلك، فأشار عليه أكابر دولته بأن يجعل الملك في أخيه عز الدين مسعود، وأن يجعل لولديه بعض البلاد، وأن يكون مرجعها إلى عز الدين عمهما، والمتولي لأمرهما مجاهد الدين قياز، ففعل ذلك، وأعطى جزيرة

ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، وقلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين، وكان مجاهد الدين قياز الحاكم في الجميع.

وقال ابن الأثير: كان قد علق به سل، وطالت علته وأجدبت البلاد قبل موته، وخرج الناس يستسقون، وخرج سيف الدين معهم فاستغاث إليه الناس، وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطي والمظالم بيننا، فقال: قد أبطلتها، ورجعوا إلى البلد وفيهم رجل صالح يقال له أبو الفرج الدقاق، فأهرق الخمور لاغير، ونهب العوام دكاكين الخمارين، فاستدعى الدقاق إلى القلعة وقال له: أنت جرأت العوام على السلطان وضرب على رأسه، فأنكشف رأسه وأطلق بعد قليل: ونزل مكشوف الرأس، فقبل له غط رأسك، فقال: والله لا غطيته حتى يتقم لي ممن ظلمني، فمات الدردار والذي ضربه بعد قليل، ومرض سيف الدين وتوفي.

ذكر حكايته مع الشيخ أبي أحمد الحداد الزاهد:

كان أبو أحمد قد انقطع في قرية من بلد الموصل يقال لها الفضلية ومنها أصله، وهي على فراسخ من الموصل، قال السبط: حدثني أبو بكر القديمي واسماعيل الشعار، وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد، قال: كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد، فقال له يوما: ياسيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات، وتمكس المسلمين، فإن كنت تدع هذا وإلا فلا محيىء إلى عندي، فقال: ياسيدي أنا تائب إلى الله من جميع ماقلت وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه.

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من محيىء من دمشق، قال: فبينما نحن عنده يوما إذا بسيف الدين قد أقبل وصعد على الدرج، فقال: يا أبا بكر أغلق الباب في وجهه وقل له: عندي شغل وادفعه إلى أسفل الدرج، قال أبو بكر القديمي: فخرجت فاستحييت منه، فقال

لي سيف الدين: يا شيخ افعل بي ما أمرك الشيخ، وأدار ظهره إليّ، فدفعت في ظهره حتى أنزلته إلى أسفل الدرج فقعد يبكي وصاح الجند بأسرهم، فأشار إليهم أن اسكتوا، ثم قال لي: يا شيخ اصعد الى الشيخ وقل له: فما لي توبة؟ قال: فصعدت إليه وأخبرته، فقال: قل له يجوز قد أذنت له، قال: فخرجت وقلت له: بسم الله، فدخل على الشيخ فبكى وقبل يده وتاب إلى الله تعالى، وعاد إلى الموصل، وأقام مدة يسيرة ومات يوم الأحد ثالث صفر، ولم يبلغ ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً.

وأراد أن يعهد إلى ابنه سنجرشاه فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك، وقال له مجاهد الدين قਿਆز وأكابر الأمراء: قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا، وسنجرشاه صبي لا رأي له، وأخوك عز الدين كبير السن صاحب رأي وشجاعة فاعهد إليه واجعله وصياً على أولادك ففعل، وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود لاقدامه على سفك الدماء وحدثه، فلما ولي تغيرت اخلاقه، فصار رفيقاً بالرعية قريباً منهم محسناً إليهم، ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حدود الروم فأرسل إليه مجاهد الدين قਿਆز الفقيه أبا شجاع بن الدهان البغدادي، فطلب منه أن يكون مع عز الدين كما كان مع أخيه سيف الدين ويبقي عليه الجزيرة وما بيده من حران والرها والركة وخابور ونصيبين وقاطع الفرات، فقال صلاح الدين: أما ما خلف له من بلاد الموصل فهو باق على حاله، وأما ما ذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة على شرط أن يقوي ثغور المسلمين بالمال والعساكر، أما الآن فالخليفة قد فوض أمرها إليّ، لا أفعل الا ما أراه من المصلحة.

الملك المعظم تورانشاه:

مات في هذه السنة.

قال ابن كثير: السلطان الأكبر، الملك المعظم شمس الدين تورانشاه ابن أيوب، الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فمكث فيها حيناً، واقتنى منها أموالاً جزيلة ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه، وكان قدومه إليه في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة كما ذكرنا، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات حمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على اسكندرية، فلم توافقه وكان يعتريه القولنج فمات بها في هذه السنة فدفن فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بترتها التي بالشامية البرانية بدمشق، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، والمؤخر قبرها رحمها الله، والترية الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وهي إلى جانب المدرسة من غربيها.

وقد كان الملك تورانشاه كريماً جواداً ممدحاً شجاعاً بأسلاً عظيم الهبة كبير النفس، واسع الصدر، وقال فيه ابن سعدان الحلبي:
هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عباده
وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما روينا
ولذ بذراه مستجيراً فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه

- ١١٢٣٦ -

ولا تحمّل للسحائب منة
إذا هطلت جوداً سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منها
فلليمّن يمناًه وليس يسراه

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان صلاح الدين وهو غيم بظاهر
حمص، حزن حزناً شديداً عليه وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة،
وكانت محفوظته.

وقال ابن خلكان: وكانت وفاة تورانشاه يوم الخميس مستهل صفر،
ويقال خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتورانشاه بضم التاء
المثناة من فوق، وسكون الواو، وبعدها راء مهملة ثم بعد الألف نون
ساكنة وبعدها شين معجمة وألف ساكنة وهاء، ومعناه ملك الشرق،
وشاه لفظ أعجمي ومعناه الملك، وتوران اسم بلاد الترك، والعجم
يسمون الترك تركمان، ثم حروفه فقالوا: توران، وقد علم أن المضاف إليه
يقدم على المضاف في لغتهم، فافهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلّت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد
على حالهم، غير أن الملك الصالح بن نور الدين محمود مات في هذه
السنة.

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب،
والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الملك الصالح اسماعيل بن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وماوالاها، وكان أبوه نور الدين رحمه الله قد عهد بالملك له، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، وكان مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب.

الثاني: في سيرته.

قال ابن خلكان: كان محسناً محمود السيرة.

وقال النويري: وكان من أعف الملوك، ومن يشابه أباه فما ظلم، وصف له الاطباء في مرضه شرب الخمر، فاستفتى بعض الفقهاء في شربها تداوياً فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال: لا، قال: فوالله لأشربها وألقى الله وقد شربت ما حرمه علي.

وفي تاريخ بيبرس: أفتاه بذلك فقيه من مدرسي الحنفية، فقال: أرأيت إن قدر الله قرب الاجل، أيؤخره شرب الخمر، فقال الفقيه: لا، فقال له ماذكرنا.

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد به المرض وضعف، وصف له الاطباء قليل خمر، فقال: لأفعل حتى أسأل الشافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل.

وقال السبط: أخطأ الكاساني فإن الخمر لا يباح عند أبي حنيفة رضي الله عنه وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا إن الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها.

وفي تاريخ المؤيد: وكان عفيف اليد والفرج واللسان ملازماً لأمور الدين، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب.

الثالث: في وفاته.

وقال ابن خلكان: وتوفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ودفن في المقام الذي بالقلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك.

وفي المرأة: وكان مرضه القولنج بدأ به في تاسع رجب

وقال المؤيد في تاريخه: في رجب توفي الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر، فمات ولم يستعمله.

وفي تاريخ ابن كثير: وكانت وفاته بقلعة حلب ودفن بها، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنب في الصيد، وقيل بل سقاه ياقوت الأستدي في شراب، وقيل في خشكناكة، فاعتراه قولنج، فهازال كذلك حتى مات وهو شاب حسن الصورة بهي المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، ولما يئس من نفسه استدعى الامراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلا يمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، فجاء إليهم، فدخل حلب في أهبة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلك في العشرين من شعبان من هذه السنة، فتسلم خزائنها وحواصلها وما فيها من السلاح،

وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج فهرب إلى حماة فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق لغية صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي، وقال: بيننا وبينه أيمان وعهود، وأنا لا أغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وتزوج بأم الملك الصالح في شوال ثم سار إلى الرقة فتنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب منه أن يقاوضه من حلب إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه ثم رضي على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج وغير ذلك من البلاد، وعاد عز الدين مسعود إلى حلب، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الأمور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى الفرات.

وفي تاريخ بيبرس: تسلم عماد الدين صاحب سنجار حلب عوضاً عن سنجار، وذلك أنه لما رحل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه، عماد الدين يطلب أن تسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار فلم يجبه إلى ذلك فقال: إن لم تسلموا إليّ حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار الأمراء على عز الدين بتسليم حلب إليه، فاستقر الأمر على تسليمها إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضاً عنها، وبلغ ذلك صلاح الدين فخاف على دمشق، وبرز من مصر وسار إلى الشام في محرم السنة الآتية على ما ذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر بقية ماجريات صلاح الدين:

منها: أنه لما استهلت هذه السنة كان صلاح الدين مقيماً بالقاهرة مواظباً على سماع الأحاديث، جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه يهنيه بما منّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وبأن

الشام مخصب بإذن الله جبراً من الله تعالى لما كان أصابهم في العام الماضي من الجذب والغلاء.

ومنها: أنه في شوال منها توجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، وخيم بظاهرها عند عمود السواري، فشاهد ما أمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها وقصورها، وسمع موطأ الامام مالك رحمه الله على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطرطوشي، وسمع ذلك معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة يهنيه بهذا السماع.

ومنها أنه ولد لصلاح الدين ولدان وهما الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد، وكان بين ميلادهما سبعة أيام، ، فزينت البلاد، واستمر الفرح والسرور.

وفي تاريخ الدولتين: الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، وهو لأم الاشرف، والملك المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنة التي أخرب العدو من التار مدينة حلب وغيرها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن الأفرنج غدرت ونقضت عهودها، وقطعت السبل على المسلمين برأً وبحراً، سرأً وجهراً، فأمكن الله من بطسه عظيمة لهم فيها نحو ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدودين، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط، قبل خروج السلطان صلاح الدين من مصر، فأحيط بها فغرق بعضهم، وحصل في الاسر ألف وسبعمائة منهم.

ومنها أن فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق،

سار إلى أعمال الكرك ونهبها لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لان يسيروا إلى مكة وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى بلدهم ونهبه وخربه، وعاد إلى بلاد الاسلام، وأقام بها ليمنع البرنس من التعرض إلى المسلمين، وأما الذين سيرهم الفرنج إلى الحجاز، فأهلك الله تعالى جميع من سيروا، وقتلوا وأسروا.

ومنها أنه استوت عدة جيش صلاح الدين على ثمانية آلاف وستائة وأربعين طواشية وقراغلامية.

ومنها أن صاحب ماردين حصر قلعة البيرة وكانت لشهاب الدين الارتقي، وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن ألبى بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، فمات شهاب الدين الارتقي، وملك القلعة بعده ولده، وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما كان في هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين مسعود يستأذنه في حصر البيرة، وأخذها فأذن له فسار فنزل شمشاط وكانت له، وأرسل عسكره إليها فحصرها، فسير صاحبها إلى صلاح الدين يطلب منه أن ينجده، فسير رسولا فشفع فيه فرحل صاحب ماردين عن البيرة.

ومنها أن المسلمين فتحوا الشقيف من الفرنج، وذلك أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم يظفرون منه بفرصة، فخلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فرخشاه الخبر فجمع عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبورية وماجاورها من القرى، وأسر الرجال، وسبى النساء وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة.

ومنها أن البرنس صاحب الكرك لعنه الله عزم على قصد تيماء من أرض الحجاز ليتوصل منها إلى المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فجهزت له سرية من دمشق تكون حاجزة بين وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده لعنه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام في خامس المحرم من هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بمصر لم يعد إليها بعد ذلك.

وفي تاريخ المؤيد: وفي خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجاد
فما بعد العشيّة من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الفرنج، وغنم ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة.

وفي المرأة: وفي خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر، ونزل البركة قاصداً إلى الشام، وخرج أرباب الدولة لوداعه، وأنشد

الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم: تمتع... إلى آخره، وطلب القائل فلم يوجد، فوجم السلطان، ونظر الحاضرون فكان كما قال، اشتغل السلطان بالشرق والافرنج، ولم يعد بعدها إلى مصر، وسار السلطان على أيلة والحسا ووادي موسى، وكان فرخشاه بدمشق، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية، فقصدوه فالتقاهم وكسروهم وقتل منهم ألفاً وأسر وساق عشرين ألفاً من الانعام وغيرها، وفتح حصناً مشرفاً على السواد على شقيف يقال له حصن جلدك، وقتل من فيه وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع وساق إلى بصرى فالتقى السلطان عندها فسربه، ودخلا دمشق في صفر.

وفي تاريخ ابن كثير: أغار صلاح الدين في طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الدين بوري بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو، فالتقوا على الأزرق بعد سبعة أيام، ووصل السلطان إلى دمشق في حادي عشر صفر منها، وقيل في سابع عشر.

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق:

منها أنه خرج من دمشق في العشر الأول من ربيع الأول، ونزل قرب طبرية، وشن الاغارة على بلاد الافرنج مثل بيسان وجنين والغور، فغنم منها، وقتل جماعة.

وقال ابن كثير: واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، ولكن كانت الدائرة للمسلمين، ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت فحاصرها ونهب ما وجد، وأمر اسطول مصر أن ينزلوا عليها ويحاصروها، فكان وصوله لها قبل وصولهم، وكان عازماً على حصارها إلى أن يفتحها، وأتاه الخبر بأن بطسة عظيمة ألقاها البحر إلى دمياط خرج من فيها من الفرنج للحج إلى بيت المقدس، فأسروا من بها، فكان عدة الأسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعون أسيراً فضربت بذلك البشائر.

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزرية ليأخذها، وذلك أن المواصل والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتى يغزو على أطراف البلاد ليشغلوا السلطان صلاح الدين بنفسه عنهم، فكان سيره على بلاد البقاع ثم إلى حماه، ثم إلى حلب فحاصرها ثلاثاً، ورأى أن العدول إلى غيرها أولى به، فسار حتى قطع الفرات من البيرة، وصار معه مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وكاتب ملوك تلك الأطراف، واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وصار معه ونازل السلطان مدينة الرها وحاصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوك بوري، ثم سار إلى الرقة وأخذها من قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فسار هو إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل، ثم صار صلاح الدين إلى خابور، وملكها وملك أيضاً قرقيسيا وماكسين وعربان، واستولى على الخابور جميعها، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة، ثم ملك القلعة واقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها مسعود ومجاهد الدين قياز للحصار، فأقام عليها منجنيقا وأقاموا عليه من داخل المدينة مجانيق، وضايق الموصل، فلما رأى طول الحصار رحل عنها إلى سنجار وحاصرها وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين، وكان من أكبر الأمراء، ثم سار صلاح الدين إلى حران وعزل عن نصيبين في طريقه أبا الهيجاء السمين، ثم عاد إلى حلب، وقد استحوذ على بلاد الجزيرة، وخضعت له

الملوك هناك، ولما وصل الى حلب تسلمها من صاحبها عماد الدين زنكي، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار، كما ذكرنا في العام الماضي، فاستوسقت الممالك شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وتمكن حيثئذ من قتال أعدائه من الفرنج لعنهم الله، وتملكه حلب وغيرها إنما كان في السنة الآتية على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيارس: عبر صلاح الدين الفرات وملك الديار الجزرية، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبري ابن زين الدين علي بن بكتكين مقطع حران أرسل الى صلاح الدين يعلمه أنه معه وأنه محب لدولته، ووعدته النصر، وأنه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفه أخذ البلاد، فرحل عن بيروت، ورسل مظفر الدين متواترة إليه تحثه على القدوم، فجد السير يظهر أنه يريد حصر حلب، ولما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين واجتمع به فقصد البيرة، وكان صاحبها مع صلاح الدين وفي طاعته، فعبر هو وأصحابه من الجسر الذي عند البيرة، وكان عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدما إلى دارا، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل، وأرسلا إلى الرها عسكرياً يحميها ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد وكاتب الملوك أصحاب الاطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجابه نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا لقاعدة كانت بينهما لما كان عنده بالشام، فقصد آمد وحصرها وقتلها أشد القتال، وكان بها مقطعتها الأمير فخر الدين الزعفراني، فطلب الامان وسلم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، ولما ملك المدينة زحف إلى القلعة فسلمها إليه الدزدار الذي بها على مال أخذه، ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبوري مع حران، ثم سار إلى الرقة وبها

مقطعها قطب الدين ينال المنبجي، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور وقرقيسياً وماكسين وعربان، فملك جميع ذلك، فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها، وحصر القلعة أياماً فملكها وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين، وسار عنها.

ومنها أنه لما ملك نصيبين جمع أمرائه وأرباب المشورة فاستشارهم بأي البلاد يبدأ، بالموصل أو بسنجار، أو بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين: لا ينبغي أن نبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لا مانع لها، وإن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قياز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية، ووافقهم ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيراً ليقطعه الموصل: إذا ملكها، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لما في نفسه.

وصار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكراً كثيراً من فارس وراجل وأظهرا من آلات الحصار ما حارت له الأبصار، وبذلا الأموال الكثيرة وشحنا ما بقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار، وغيرها بالرجل والسلاح والأموال، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ومعهم نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فرأى ما هاله من عظم البلد، ورأى السور قد ملأ من الرجال، وليس فيه شرافة إلا وعليها مقاتل، سوى من عليه من عامة البلد، فعلم أنه لا يقدر عليه، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه، ثم رجع إلى معسكره وصبح البلد فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كندة، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال فلم يظفر، وأقام أياماً، ولم ينل منها شيئاً،

وترددت الرسل إلى عز الدين مسعود ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلب إليه، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ولم يتتظم صلح ولا تم أمر، فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً، وإن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره وأصحابه، سار عن الموصل إليها، وسنذكر ما جرى بعد ذلك في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن البرنس صاحب الكرك عليه اللعنة عمل مراكب في بحر القلزم ليقطعوا الطريق على التجار والحجاج، وذلك لما عجز عن إيصال الأذى للمسلمين في البر، فوصلت أذيتهم إلى عيذاب، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم فأمر العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين نائب مصر الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الاسطول أن يعمل مراكب في بحر القلزم لمحاربة البرنس، ففعل ذلك، فظفر بهم في كل موطن، وقتلوا منهم وحرقوا وغرقوا وسبوا وقهروا وأسروا في مواطن كثيرة ومواقف هائلة، وأمن البر والبحر بأذن الله، وأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل أبي بكر يشكر من مساعيه، وأرسل إلى ديوان الخليفة بما أنعم الله به عليهم من الفتوحات براً وبحراً.

وفي المرأة: في هذه السنة كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج، خرج أبرنس صاحب الكرك إلى أيلة فأقام بها ومعه الأخشاب على الجمال والصناع، فعمل المراكب، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر، فلما تم عملها ركب فيها، ووصل إلى عيذاب في بحر القلزم، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسرى وسار يريد جده، وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخي السلطان، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ، فركب في

بحر القلزم، وسار خلفهم، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وهرب بعضهم في البر، وأسر الباقين فأخذ مائة وسبعين أسيراً، وخلص أموال التجار، وردها عليهم، واستولى على مراكبهم، وعاد الى القاهرة، وكتبوا الى صلاح الدين بذلك، فقال بضرب رقاب الاسرى بعضهم بالقاهرة، وبعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، ففعلوا وكتبوا بذلك إلى الخليفة.

وفي تاريخ المؤيد: وكان حسام الدين لؤلؤ مظفراً فيه، شجاعاً فسار في طلبهم مجداً وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة وسار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا أشد القتال، فظفر الله بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها، وعاد بالباقيين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

ومنها أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هو وشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين، وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجد به ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة بالكف عن الموصل، وما يتعلق بعز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكاً له يقال له سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعده، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الاجابة رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة، وأبلغ صاحبه الخبر فسار إلى ماردين وصاحبها قطب الدين بن ألبى، وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عز الدين وهو، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن، وسار

عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال، فلما سمع صلاح الدين باجتماعهم سيّر الى ابن اخيه تقي الدين، وهو بحماه يستدعيه، ورحل الى رأس عين، فلما سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بأنه يجمع العساكر ويعود، وعاد عز الدين الى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فأقام تحت مـاردين أيسـامـاً...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في الشرق لاجل فتح البلاد التي ليست تحت يده.

ذكر فتوحات صلاح الدين رحمه الله في هذه السنة: منها فتح آمد:

قال ابن كثير: في الرابع عشر من محرم هذه السنة تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد وحصنها بعد قتال وحصار شديد من يد صاحبها بعدما حمل ما أمكنه من حواصله وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلم السلطان البلد وجد فيه شيئاً كثيراً من الحواصل وآلات الحرب والسلاح، حتى قيل إنه وجد برجاً مملوءاً بنصول الشباب، وبرجاً آخر فيه مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، ووجد فيها خزانة فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد فوهبها كلها للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين حملاً، ثم وهب السلطان البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان في خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار،

فامتدحه الشعراء على ذلك، وعلى حسن صنيعة الجميل، ومن أحسن ماقاله بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم
فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها

وفي المرأة: وفي يوم الأحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد ودخل إليها، وجلس في دار الامارة، ثم سلمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالهما وحريمهما إلى الموصل، وأعانها صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما، فحملا ماخف حمله وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والاسلحة.

وفي تاريخ المؤيد: في العشر الأول من محرم هذه السنة ملك صلاح الدين آمد بعد حصار وُقُتال وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا.

وفي تاريخ ابن العميد: وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين من مصر إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى الموصل فنازلها واستشفع صاحبها عز الدين مسعود بن مودود من الخليفة الناصر لدين الله، فشفع فيه الخليفة فرحل صلاح الدين عن الموصل، ونزل على سنجار فحاصرها ثم سلمها وأحسن إلى رعيته، ثم توجه إلى حرزم فأخربها، ثم كتب إلى الخليفة يطلب منه آمد، فأجابه الخليفة وبعث إليه بتقليدها، فوصل إليه التقليد في ذي الحجة من هذه السنة، ثم سار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة وفتحها بالامان في العشر الاول من محرم سنة ثمانين وخمسمائة وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

ومنها فتح عيتاب:

ولما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار وقطع الفرات قاصدا حلب، واجتاز في طريقه بعيتاب وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين، فنزل إليه وقام بالضيافة، فأبقاها عليه.

وفي تاريخ المؤيد: لما فتح صلاح الدين آمد سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عيتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد تسلم عيتاب من نور الدين، فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه، فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب.

ومنها فتح حلب:

ولما فرغ السلطان من أمر عيتاب سار إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود.

وقال ابن كثير: سار السلطان في بقية المحرم إلى مدينة حلب فنازلها وحصرها، وقاتله أهلها قتالاً جيداً وجرح أخو السلطان تاج الملوك بوري ابن أيوب جرحاً بليغاً فمات منه بعد أيام، ثم اتفق الحال بين السلطان وبين صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر على عوض أطلقه السلطان وهو أن يرد عليه سنجار ويسلمه البلد، فخرج عماد الدين زنكي وجاء إلى خدمة السلطان وعزاه في أخيه ونزل عنده في المخيم، ونقل أثقاله إلى سنجار، وزاده السلطان خابور والرقعة ونصيبين وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة وودعه السلطان، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين زنكي: «يا حمار بعت حلب بسنجار»، وكان تسلم السلطان حلب في صفر، وصعد إلى قلعتها يوم

الاثنين السابع والعشرين من صفر، وعمل له الامير طمان وليمة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً، ثم إن السلطان رحمه الله أسقط عن حلب وعن سائر بلاد الجزيرة 'مكوس والضرائب، وكذلك عن بلاد الشام ومصر، ثم أرسل الى حساكره ليجتمعوا اليه ليتصدى لقتال الفرنج الملاحين، لانهم عاثوا في البلاد يمينا وشمالاً في غيبة السلطان واشتغاله ببلاد الجزيرة، وكان السلطان قد بشر بفتح بيت المقدس حين فتح حلب، وذلك أن الفقيه مجد الدين ابن جهبل الشافعي رأى في تفسير أبي الحكم المغربي عند قوله تعالى: ﴿ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض﴾ [الروم ١-٣] الآية، البشارة بفتح بيت المقدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، واستدل على ذلك بأشياء، فكتب في ورقة وأعطاهما للفقيه عيسى الهكاري ليبشر بها السلطان فلم يتجاسر على ذلك خوفاً من عدم المطابقة، فاعلم بذلك القاضي فخر الدين بن الزكي، فنظم معناها في قصيدة يقول فيها:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر
قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

وقدمها للسلطان، فتشوقت همة السلطان إلى ذلك، فلما افتتحها - كما سيأتي إن شاء الله تعالى - أمر القاضي فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ولما بلغه ان ابن جهبل هو الذي اطلع على ذلك أولاً، أمره أن يدرس، فدرس على الصخرة درساً عظيماً وأجزل له العطاء، وأحسن عليه الشاء.

وفي تاريخ بيارس: وفي هذه السنة سار صلاح الدين من تل خالد إلى حلب، واستدعى إليها العساكر من جميع الجهات، فاجتمع عليها خلق عظيم، وتحقق عماد الدين أنه ليس به قبل، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع صلاح الدين في إعادة بلاده إليه وتسلم حلب منه، فرفع الحديث، وتقررت القاعدة ولم يشعر أحد من العسكر ولا من الرعية حتى تم الامر واستفاض، فاستعلم العسكر من عماد الدين فأعلمهم

وأذن لهم في تيسير أنفسهم، فأرسلوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بكتكين فاستحلفوا صلاح الدين على العسكر وعلى أهل البلد، وخرجت العساكر إلى خدمته بالميدان الاخضر فخلع عليهم، ونقل عماد الدين أقمشته وآلاته من القلعة، ثم نزل إلى السلطان، وسيره معه في الميدان، وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له مقدمة سنية وخيلاً، وخلع على جماعة من أصحابه وسار من يومه إلى سنجار، وطلع صلاح الدين إلى القلعة وتسلمها في صفر من هذه السنة.

وفي المرأة: نازل صلاح الدين حلب في سادس عشر المحرم، ونزل بالميدان الاخضر، وباشر القتال بكرة وعشياً، وزحف يوماً أخوه تاج الملوك بوري فجاءه سهم في عينه، فوقع مريضاً، فمات في الثالث والعشرين من صفر، ثم علم عماد الدين زنكي، أنه لاطاقة له به، وقال لحسام الدين طمان: اخرج إلى صلاح الدين وسله في الصلح، فخرج سراً ولم يعلم به أحد، فقرر الصلح وأن يرد إليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين، وأنه يسلم إليه قلعة حلب، وعلم الناس بالصلح فخرجوا إلى صلاح الدين فخلع عليهم، وجعل أهل حلب تحت القلعة اجانة وثيابا وصابوناً وصاحوا عماد الدين: يا فاعل، يا صانع، انزل فاغسل الثياب مثل المخانيث، ما يصلح لك غير هذا، وعملوا فيه الاشعار، وغنوا بها في الاسواق، منها:

وبعت بسنجار خير القلاع
تكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم الثالث والعشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان، فحزن السلطان عليه حزناً عظيماً وجلس للعزاء، وكان يبكي ويقول: ماوفت حلب بشجرة من أخي، وقيل إنه قال: ماغلت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان لانه ماكان في البيت مثل بوري.

وسار عماد الدين إلى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم غير مكترث

بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثم صعد القلعة سلخ صفر، فأنشده
القاضي:

وفتحه حلب بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فعجب الناس من رمية من غير رام، فكان كما قال، ولكن بعد أربع
سنين، وهو الذي خطب بالقدس لما فتحه السلطان، وولى السلطان
القضاء بحلب مجير الدين ابن زكي الدين، والقلعة سيف الدين أركش،
والديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، فأعطى تل باشر وتل خالد
لبدر الدين دلدرد بن بهاء الدين بن ياروق، وأعطى قلعة أعزاز لعلم
الدين سليمان بن جندر، ثم رحل عن حلب يوم السبت الثاني والعشرين
من ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الأولى.

وفي تاريخ المؤيد: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وعماد الدين،
عمل عماد الدين دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هم في سرورهم إذ جاء
انسان، فأسر إلى السلطان بموت أخيه بوري فوجد عليه في قلبه وجدا
عظيماً وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن كان في
الدعوة بذلك حتى لا يتكدر عليهم ما هم فيه، وكان يقول: ما وقعت
علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر
العظيم.

ومنها: فتح حارم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك
الصالح بن نور الدين محمود في تسليم حارم، وجرت بينهما مراسلات
 فلم ينتظم بينهما حال، وكاتب سرخك الفرنج، فوثب عليه أهل القلعة
وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها.

وفي تاريخ بيارس: وكان السلطان: قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها، فدافع الوالي الذي بها، فسار بنفسه إليها فتسلمها، وعاد إلى حلب، ورتب فيها ولده الظاهر غازي ومعه الأمير يازكوج، ثم رحل عنها وسار نحو دمشق.

وقال ابن كثير: رحل السلطان من حلب في أواخر ربيع الآخر بجيوشه وعساكره، وقد جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وولى قضاءها لمحيي الدين بن الزكي، فاستتاب له فيها نائباً، ورجع هو مع السلطان في خدمته، فاجتاز بحماه ثم بحمص، ثم على بعلبك، ثم دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى في أبهة عظيمة، وفي نيته الخروج سريعاً إلى قتال الأفرنج.

ذكر ما فعل السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق:

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكور وأقام أياماً، برز منها في أول جمادى الآخرة في جحافله قاصداً نحو القدس الشريف، فأنتهى إلى بيسان فنهبها وخربها، وشن الاغارات على تلك النواحي، ثم سار ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سريه هائلة فيها الأمير جرديك النوري، وطائفة من النورية، وجاوي مملوك عمه أسد الدين شيركوه فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم، فتواقفوا معهم فقتلوا من الأفرنج خلقاً كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد، ثم عادوا في آخر ذلك اليوم، وبلغ السلطان، وأن الأفرنج قد اجتمعوا للقتال، وتصدى لهم فنكلوا عنه، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم، وجرح مثلهم، فرجعوا ناكسين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة.

وفي تاريخ بيارس: لما خرج السلطان من دمشق عبر نهر الأردن، ورأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأخربها، وأغار على

ما هناك، فاجتمع الفرنج وجاءوا إلى قتاله، فلما رأوا كثرة من معه من العسكر لم يقدموا عليه، فأقام عليهم، وأحاطت بهم عساكره ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا، وأغار المسلمون على تلك الاعمال، ونالوا منها ما لم يكونوا يطمعون فيه من الغنائم والنهب وعادوا فأعطاهم دستوراً ليستريحوا، ودخل دمشق فأقام بها إلى شهر رجب من هذه السنة.

وفي المرأة: لما وصل السلطان من دمشق إلى بيسان هرب أهلها، فقدم بين يديه جرديك النوري وجاوي الاسدي، وجماعة من النورية، فجاءوا إلى عين جالوت والفرنج على الفولة، فصادفوا على عين جالوت طائفة من الافرنج، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا مائة فارس، ورحل السلطان إلى الفولة يطلب المصاف فتحصن الفرنج بالسراجل، ولم يخرج منهم أحد، فلما كان في الليل ساروا طالبين عكا، ورحل السلطان خلفهم يقاتل الساقة، فقتل منهم جماعة، فدخلوا عكا، وعاد السلطان على جينين فنهب وأحرق وعاد إلى دمشق.

ذكر مسير السلطان إلى الكرك:

وفي رجب من هذه السنة سار السلطان إلى الكرك فحاصرها، وفي صحبتته تقي الدين عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيه الملك العادل أبي بكر ليحضر إليه ليوليه حلب وأعمالها، وفق ما كان طلبه منه، فحضر العادل إليه، واستمر الحصار على الكرك مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه أن الافرنج كلهم اجتمعوا ليمنعوا منه الكرك، فكر راجعاً إلى دمشق في منتصف شعبان، وسار معه أخوه العادل، وأرسل ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائباً عنه، وفي صحبتته القاضي الفاضل، ووصل السلطان إلى دمشق، وبعث أخاه العادل على مملكة حلب وأعمالها، واستقدم ولده الملك الظاهر إليه، وكذلك نوابه ومن

يعز عليه، وإنما أعطى السلطان صلاح الدين أخاه العادل حلب ليكون قريباً منه، فإنه كان لا يقطع أمراً دون مشورته، واقترض السلطان صلاح الدين من أخيه العادل مائة ألف دينار، وتآلم الظاهر على مفارقة حلب، وكانت إقامته في حلب ستة أشهر، ولكنه لا يظهر ما في نفسه، ولكن يظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وفي تاريخ بيارس: لما توجه صلاح الدين إلى الكرك استدعى أخاه العادل أبا بكر من مصر، وكان قد أرسل إليه يطلب منه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوافاه إلى الكرك في العسكر المصري، فكثرت جمعه، وحصر الحصن من الربض، ونصب عليه المجانيق، ثم رحل عنه، وعاد إلى دمشق واستصحب أخاه العادل معه، وسير ابن أخيه تقي الدين إلى مصر نائباً عنه، وأعطى أخاه العادل حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن عز الدين مسعود صاحب الموصل قبض على نائبه مجاهد الدين قايماز، وكان إليه الحكم في جميع البلاد، وكان الذي أشار عليه بذلك عز الدين محمود وشرف الدين ابن أبي الخير، وهما من أكابر أمراءه، لهوى بنفسيهما، ولما أراد القبض لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين، فأظهر أنه مريض، وانقطع عن الركوب عدة أيام، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان لا يمنع من الدخول عليه ولا على النساء، فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة واحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين وخزائنه، وولى عز الدين محمود القلعة، وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب، وكان تحت مجاهد الدين إربل وأعمالها ومعه فيها يوسف بن زين الدين علي وهو صبي صغير ليس له من الحكم شيء، والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضاً

جزيرة ابن عمر، وهي لمعز الدين شنجرشاه بن غازي بن مودود، وهو أيضاً صبي صغير، وبيده أيضاً شهرزور وأعمالها ونوابه فيها، ودقوقا وبها نائبه، وقلعة عقر الحميدية، ونائبه فيها، ولم يكن بقي لمعز الدين صاحب الموصل بعد أن أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصل، وكانت قلعتها بيد مجاهد الدين، وهو على الحقيقة الملك، فلما قبض عليه عز الدين امتنع صاحب إربل والجزيرة من طاعته، وأرسل الخليفة إلى دقوقا من حاصرها وأخذها، ولم يحصل لمعز الدين مسعود مما كان بيد مجاهد الدين قايماز غير شهرزور، وصارت إربل وجزيرة ابن عمر أضر شيء على صاحب الموصل، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له والكون في خدمته، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير صدر الدين شيخ الشيوخ، ومعه بشير الخادم إلى صلاح الدين في الصلح مع عز الدين صاحب الموصل، فأجاب صلاح الدين إلى الصلح على أن تكون إربل والجزيرة معه، ويقرر الصلح، وإنما قوى طمع صلاح الدين في الموصل لقبض صاحبها على مجاهد الدين، فلما تبين لمعز الدين مسعود الضرر الذي ترتب على امساك المجاهد قايماز أمسك الذين أشاروا عليه باعتقاله وأفرج عنه في الاعتقال، ثم رحل صلاح الدين عن الموصل، ونازل سنجار على ماذكرناه عن قريب.

ومنها أنه سار اسطول من مصر في البحر فلقوا بطسة فيها نحو من ثلاثمائة من الفرنج، نجدة لفرنج الساحل فقاتلوهم فظفر بهم المسلمون وأخذوهم أسرى، فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى وغنموا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنها أنه سارت جماعة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم إلى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر وأيلة، فأفرج الفرنج من بين أيديهم على ماء يقال له العيلة، وسبقوا المسلمين إليه، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على

الهلاك، فأرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سحابة عظيمة بلطفه، فمطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قيظاً والحر شديداً وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله ورحمته.....

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير شاه أرمن:

اسمه سقمان بن ظهير الدين بن ابراهيم بن سقمان القطبي، صاحب اخلاط، توفي في هذه السنة، وعمره أربع وستون سنة، وكان ملكه لها في سنة احدى وعشرين وخمسة، وكان بكتمر مملوك أبيه بميا فارقين لما مات شاه أرمن، فلما سمع بموته سار من ميا فارقين، ووصل الى اخلاط، وكان أكثر أهلها يريدونه، وكان ممالك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله استولى على اخلاط وملكها، وجلس على كرسي شاه أرمن، واستقر في ملكه حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسة، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

تاج الملوك بوري بن أيوب:

أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكنيته أبو سعيد، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسة، وكان الله تعالى قد جمع فيه مكارم الاخلاق، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة وفضلاً وفصاحة، وكان أدبياً شاعراً مترسلاً، وله ديوان شعر، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه...

وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر من هذه السنة على مدينة حلب من جراحة أصابته. لما حصرها أخوه السلطان صلاح الدين

يوسف كما ذكرناه، وعمره ثلاث وعشرون سنة - بوري بضم الباء الموحدة وسكون الواو، وكسر الراء، وفي آخره ياء ساكنة، وهو اسم للذئب بلغة الترك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن صاحب ماردين وصاحب الغرب ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاه صاحب ماردين:

وهو قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين كان جواداً شجاعاً عادلاً منصفاً عاقلاً، توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان والده ألبى قد ملك في سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وبقي في ملك ماردين الى مدة لم نقف على انتهائها، وملك بعده ابنه ايلغازي المذكور، واستمر فيها إلى أن مات في هذه السنة، وخلف أولاداً أطفالاً، فأقيم في الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان وكان به هوج وخبث، فمات وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن ايلغازي، ولم يكن له حكم، بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك للبقش اسمه لؤلؤ، وكان قد تغلب على استاذة البقش بحيث كان لا يخرج البقش عن رأي لؤلؤ المذكور، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين من الحكم شيء، وبقي الأمر كذلك الى سنة إحدى وستمائة، فمرض البقش، وأتاه ناصر الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفي تاريخ بيبرس: لما مات قطب الدين ايلغازي، ملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان، وهو طفل وقام بتربيته وتدريب ملكه نظام الدين البقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط، خال قطب الدين، فحكم في دولته وأحسن البقش تربية الولد، وتزوج بأمه، فلما كبر الولد لم يمكنه البقش من المملكة لانه كان أهوج، ولم يزل كذلك إلى أن مات الولد المذكور، وكان له أخ صغير أصغر منه اسمه قطب الدين، فرتبه البقش مكانه، والله أعلم.

ذكر غزوة صلاح الدين يوسف الكرك مرة أخرى ثانية:

وذلك لانه رأى ان فتحها الآن أنفع للمسلمين فإن الفرنج الذين فيها يقطعون الطريق على الحجاج والتجار في البراري والبحار، فأرسل إلى العساكر الحلبية والجزرية والمصرية، فقدم تقي عمر من مصر، وكان بها كما ذكرنا ومعه القاضي الفاضل وجاء من حلب الملك العادل أبوبكر أخوه، وقدم ملوك الجزيرة وسنجار وتلك النواحي والاقطار، وأخذهم كلهم في جيشه، فسار بهم إلى الكرك فأحرقوا بها في رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة، وركب عليها المجانيق، وكانت تسعة، وأخذ في حصارها، وضيق على أهلها، واشتد القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن وله خندق عمقه ستون ذراعاً، فألقى فيه الأحجار والاختشاب والأتربة، ورأى الفرنج شدة القتال وعرفوا عجزهم عن حفظ الحصن، فأرسلوا إلى ملكهم وفرسانهم يستنجدونهم، فاجتمعوا من كل مكان، فلما بلغ صلاح الدين خبر مسيرهم رحل عن الكرك إلى طريقهم ليقاثلهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، فقرب منهم ولم يمكنه الدنو منهم لضيق الأرض وصعوبتها، وانتظر خروجهم من ذلك المكان، فلم يخرجوا، فرحل وسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وأخربها، وقتل وأسر

وسبى وسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام، وكان فيها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم، وكان بها الاقساء والرهبان وعندهم الاسرى والودائع، فطلبوا الامان فأمّنهم على أن يطلقوا من عندهم من الاسرى، ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق.

وفي بيارس: لما فرغ من سبسطية رحل إلى جينين فنهباها، وعاد إلى دمشق وبث سراياه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان صلاح الدين على الكرك بلغه أن الافرنج قد اجتمعوا له كلهم فارسهم وراجلهم ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها وقصدهم ونزل على حسي تجاههم، ثم صار الى ماعير فانهزمت الفرنج قاصدين الى الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالاغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة فنهبوا نابلس وماحولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان الى دمشق، وأذن للعساكر بالانصراف إلى بلدانهم، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر الملك المظفر أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك امر لآخيه العادل ان يعود الى حلب، وأقام السلطان بدمشق ليؤدي فرض الصيام.

وقدمت على السلطان خلع الخليفة فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وخرتبرت، وآمد، التي أطلقها له السلطان.

وفي المرأة: وكان عند صلاح الدين رسل الخليفة شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وبشير الخادم، وكانا مريضين فطلبوا العود الى بغداد فاذن لهما، فمات بشير بالسحنة وشيخ الشيوخ بالرحبة.

وذكر في النوادر السلطانية أن دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق كان يوم السبت سابع جمادى الآخرة من سنة ثمانين وخمسمائة، وفي هذا الشهر وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع، وفيه أيضاً وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان يخبرون أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم.

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه وقع الصلح بين صلاح الدين وصاحب طرابلس، وذلك قبل مسيره إلى الكرك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والثمانين بعد المائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين نجيم بظاهر حماة، وكان بلغه في أواخر السنة الماضية أن صاحب الموصل نازل إربل، فبعث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركب من فوره إليه في جنوده وعساكره، فسار إلى بعلبك، ثم حمص ثم حماة، فأقام بها أياماً، ثم سار إلى حلب، وتلقاه أخوه العادل، واجتعت إليه العساكر، فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فقطع الفرات من البيرة، وجاء إلى حران فقبض على صاحبها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين صاحب إربل، وكان وصول السلطان إلى حران في الثاني والعشرين من صفر، وكان أمر لسيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، وكان قبضه على صاحب حران في السادس والعشرين من صفر وذلك لشيء كان جرى منه، وحيث كان

بلغه عنه رسوله، فأنكر عليه، وأخذ منه قلعة حران والرها ثم اعتقله
تأديبا له إلى مستهل ربيع الاول، ثم أخرجه وخلع عليه وطيب قلبه،
وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، ولم يتخلف له سوى
قلعة الرها ووعد به.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان صاحب حران مظفر الدين قد بذل
خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران، فلم ير
السلطان لذلك أثراً، فغضب عليه واعتقله، ثم سار السلطان من حران
في ثاني ربيع الاول إلى رأس عين ووصل إليه في ذلك اليوم رسول قليج
أرسلان صاحب الروم يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم
على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم
ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر
فوصلها يوم السبت الثامن من ربيع الاول، وجاء إليه عماد الدين بن قرا
أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين، فالتقاهم السلطان
وأكرمهم.

وقال ابن كثير: فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إليه عماد الدين
أبوبكر بن قرا أرسلان صاحب بلاد بكر وآمد، ثم بلغه موت أخيه ابن
قرا أرسلان، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه، ثم سار السلطان فنزل
على الاسماعيليات قريباً من الموصل، وذلك يوم الثلاثاء الحادي عشر من
ربيع الاول، وكان يصل من العسكر كل يوم نوبة جزيلة تحاصر الموصل،
وجاء إليه هناك صاحب إربل زين الدين، وأرسل السلطان ضياء الدين
ابن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار
الموصل، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الامام ونصرة الاسلام.

ثم سار السلطان ونزل على الموصل، وهو نزوله الثاني عليها،
فحاصرها، وكان القتال يعمل كل يوم ويخرج المواصلة اليه عراة يقاتلون،

وأرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء الاتابكيات وجماعة معهن يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم خائبين، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لاسيما وفيهن بنت نور الدين، وضيق على أهل الموصل، فأشاروا عليه بقصد أخلاط، لما رأوا أنه لا طمع لهم في الموصل، وقالوا: ماتفوت الموصل، فسار إلى أخلاط، وفي مقدمته ناصر الدين محمد وتقي الدين عمر، فوصلوا ميا فارقين وبها يرشق مملوك صاحب أمد، فامتنع عليهم وقال: أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين، وبعد هذا فالأمر للخاتون والدتهم، فأرسل إليها صلاح الدين خادما ووعدا أن يتزوجها ويزوج ابنه إحدى بناتها، فأجابت وسلمت إليه ميافارقين، وأعطاهما الهتاخ، وأعطى يرشق جبل جور، وكان الحاكم على خلاط الوزير مجد الدين ابن الموفق وهو الذي كاتب السلطان، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال، فغالط وقال: في القلعة سيف الدين بكتمر، وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن، وربما جاء البهلوان، فعاد الفقيه إلى السلطان بغير شيء، وجاء البهلوان بعساكر اذرييجان وهمدان، فنزل قريبا من اخلاط، وأرسل إلى السلطان يقول: هذه البلاد لابتي وهي في القلعة، والمصلحة ان تبقى المودة بيننا ودوام الصداقة، فرجع السلطان إلى الجزيرة، ورجع البهلوان إلى بلاده بعد ان حمل إليه سيف الدين بكتمر أموالا وهدايا، وولى السلطان على ميافارقين ودياربكر مملوكه سنقر الخلاطي، وعاد إلى الموصل، وهذه المرة الثالثة، وهي الاخيرة، فنزل الاسماعيليات، وقيل نزل على كفر زمار بدجلة، وكان الحر شديداً، فأقام مدة، وعزم على أن يشتي بذلك المكان، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة، واستعد المواصلة للحصار، ومرض السلطان مرضاً شديداً خيف من غائلته، فرحل طالباً وهو مريض، وكان يتجلد، ولم يركب في محفة، فوصل حران وهو شديد المرض، وبلغ غاية الضعف حتى أيس منه، وأرجف بموته، وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال من هذه السنة فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها.

وفي المرأة: ولما كان السلطان على كفر زمار أشار أمراء عز الدين مسعود عليه بأن يخرج إليه الاتابكيات يشفعن إليه فخرجن ومعهن والددة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان وقرر عماد الدين الصلح، وخطب للسلطان بالموصل، وأعطى عز الدين شهرزور والبوازيج، ووقف عليها قرية تعرف بياقلا، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان، واشتد الحر فمرض مرضاً شديداً فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل إنه سقي، وضعف ضعفاً خيف عليه منه، وأرجف بموته، وأقام على نصيبين وقد أيسنا منه، ثم حمل في محفة إلى حران، فنزل في ظاهرها، وبني داراً سماها دار العافية.

وفي تاريخ النويري: وجاءت رسل صاحب الموصل إلى السلطان وهو بحران بالاجابة إلى ماطلب. وهو أن يسلم صاحب الموصل الى السلطان شهرزور. وأعمالها وولاية القراميلي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل ومايبده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، ورضي السلطان بذلك، وتقرر الصلح، وأمنت البلاد، ثم رحل السلطان من حران وقد عوفي وعاد إلى دمشق في السنة الآتية.

وقال ابن كثير: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وبين المواصلة - كما ذكرنا - انقطعت خطبة السلاجقة والارتقية بتلك البلاد كلها.

قال: ولما جاء إليه أخوه العادل من حلب، ورآه في غاية الضعف أشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ماأبالي وأنا أترك من بعدي: أبا بكر، وعمراً وعلياً وعثماناً، وأراد بأبي بكر أخاه العادل صاحب حلب، وأراد بعمر تقي الدين عمر صاحب حماة، وهو إذ ذاك صاحب مصر

وبها مقيم، وأراد بعثمان وعلي ابنيه الملك العزيز عثمان والملك الافضل علي، ونذر السلطان في ضعفه لئن شفاه الله تعالى من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الكفار، ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلن اكبر همته فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه من الاموال والذخائر وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لانه نقض العهد الذي عاهد السلطان عليه، فغد بقافله نجار من مصر فأخذ أموالهم وضرب رقابهم بين يديه صبراً، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم، وكان هذا النذر كله بأشارة القاضي الفاضل، ثم إن الله عز وجل بكرمه وفضله عافاه مما كان ابتلاه به، فسارت البشائر بذلك في كل ناحية، ودقت البشائر وزينت.

قال ابن كثير: ثم ركب السلطان من حران بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماه وحمص حتى دخل دمشق، وكان دخوله حلب يوم الاحد الرابع عشر من المحرم سنة اثنتين وثمانين، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشر نحو دمشق، فلقاه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته، ومعه خدمة عظيمة، ومنّ عليه بحمص موضع والده بحكم وفاته، ثم سار إلى دمشق فدخلها في الثاني من ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وخمسة، وكان يوماً مشهوداً وصباحاً محموداً.

وفيهما كان المنجمون بدمشق قد حكموا بأن يهب هواء مزعج برمل يهلك الناس، فحفروا أسراباً واختفوا فيها، فظهر كذب المنجمين.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الامير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه

صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بـحمص، ثم نقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الاوسط بينها وبين أخيها الملك المعظم تورانشاه، صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الاموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف على الف الف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة.

وقال النويري: وفي هذه السنة، ليلة عيد الاضحى، شرب بـحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبتة أهل دمشق في مرضه، ولما مات أبقى السلطان حمص وماكان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد بن شيركوه، وعمره اثنتي عشرة سنة، وخلف ناصر الدين محمد شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بـحمص في عودته من حران، وأخذ أكثرها، ولم يترك الا مالا خيراً فيه.

وفي المرأة: وكان السلطان صلاح الدين يخافه، لانه كان يدعي أنه أحق بالملك منه، وكان بلغ السلطان عنه هذا، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء إلى حمص، وتوفي يوم عرفة بقي يتناثر لحمه، وقيل انه سم، وقيل مات فجأة.

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود :

صاحب حصن كيفا وآمد، مات في هذه السنة، وملك بعده ولده

سقمان، ولقبه قطب الدين، وكان صغيراً، فقام بتدبير دولته وزيه القوام ابن سباقا الاسعدي.

وفي تاريخ بيارس: مات نور الدين محمد المذكور، لما كان صلاح الدين محاصراً للموصل، وخلف ولدين، ملك الأكبر منهما واسمه سقمان، ولقبه قطب الدين، فلما بلغ أخاه وفاته سار ليملك بلاده فتعذر عليه أمرها، فسار إلى خربت فملكها، وهي بيد أولاده، ورجع صلاح الدين إلى ميفارقين، فحضر إليه ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه، ومن جملة آمدهم، وكانوا خافوا أن يأخذها منهم فلم يفعل، وردهم إلى بلادهم وشرط عليهم أن يكونوا تحت أمره وطاعته، وجعل معهم من جهته أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب والده.

الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر

وكان من الأمراء الكبار أيام نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف، كما ذكرنا، توفي في دمشق في جمادى الآخرة من هذه السنة، من جرح أصابه وهو في حصار ميفارقين.

الست خاتون عصمة الدين بنت معين أنر:

نائب دمشق وأتابك عساكرها قبل نور الدين محمود - كما تقدم - وقد كانت زوجة نور الدين - كما تقدم - ثم خلف عليها من بعده صلاح الدين في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، توفيت في هذه السنة، وكانت من أحسن النساء وأعفهن، وأكثرهن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية في محلة حجر الذهب، وخانقاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانياس، ودفنت بتربتها في سفح قاسيون قريبا من قبيات الشركسية، ولها أوقاف كثيرة، فأما الخاتونية البرانية التي هي على

- ١١٢٧٠ -

القنوات محلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان الذي هي به بتل الثعالب، فهي من انشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لامه، وكانت زوجة زنكي ونور الدين صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين كما تقدم.

وفي المرأة: ولها صدقات كثيرة وبر عظيم، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه في حجر الذهب، قرية من حمام ازكش، وتعرف بمدرسة خاتون، وكانت وفاتها في رجب، وبلغ السلطان صلاح الدين وفاتها، وهو مريض بحران، فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف، وكان يصدر عن رأيها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلّت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر والشام وغيرهما، وكان قد تعافى من مرضه، ووجد نشاطاً، ورحل من البلاد الفراتية ووصل الى حلب يوم الاحد الرابع عشر من محرم هذه السنة، وكان يوماً مشهود الشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام فيها أربعة أياما ثم رحل في ثامن عشر من محرم نحو دمشق، فلقه أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخوته، ومعه هدية هائلة، ومن عليه بحمص، فأقام أياما يعتبر تركة أبيه، وكان قد خلف أموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار، وكان القاضي نجم الدين ابن عصرون حاضر القسمة . فقام يوماً فوقعت من تحت ذيله منطقة مجوهره، فنسبه العادل إلى ما لا يليق به، وكان نجم الدين منزها عن ذلك لانه كان غنياً جواداً، شريف النفس، فحلف للعادل انني ما علمت بها وصدق، وإنما الحساد وجدوا طريقاً للقول، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الاول، وكان يوماً لم ير مثله فرحاً وسروراً، ثم قرر في ملك دمشق ولده الافضل علياً، ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته، الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملقب بالملك العزيز على ملك مصر، ويكون العادل أتابكه، وله اقطاعات عظيمة جداً، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم عمر على الدخول إلى بلاد إفريقية، فلم يزل السلطان يكاتبه ويتلاطف به، ويتفرق له حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك بسنين، وزاده على ذلك مدينة ميفارقين.

وقال النويري: ولما بعث السلطان ولده الملك العزيز صحبة العادل الى مصر، استدعى تقي الدين من مصر بسبب أن السلطان تجنى عليه في الباطن، فإنه ظن أنه أخرج ولده من مصر ليملك مصر إذا مات السلطان، وقيل إنه توقف عن الحضور، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفريقية وبرقة من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فنهاه، وأرسل يستدعيه ويلاطفه، فحضر إليه، ولما حضر إليه زاده على حماه منبج، ومعرة النعمان، وكفر طاب، وميافارقين، وجبل جور بجميع أعمالها، واستقر الملك العادل أبو بكر، والملك العزيز عثمان بمصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

وفي تاريخ بيبرس: سير السلطان صلاح الدين الى ابن أخيه تقي الدين عمر يستدعيه من مصر إلى الشام والسبب في ذلك أن صلاح الدين لما استنابه بمصر ضم إليه ولده الافضل، وكان أكبر ولده، فخاف صلاح الدين في مرضه أن يتولى تقي الدين البلاد، ولا يجلس ولده الافضل، فأرسل في طلبه لهذا السبب، وأشار عليه بعض أمرائه أن يعزل العادل من حلب، ف وقعت هذه الاشارة من نفسه موقعاً موافقاً لغرضه، فلما حضر أخوه العادل إليه، أوصى صلاح الدين ولده الظاهر غازي أن يلتمس من عمه حلب ليهبها له، فسأله ذلك، فأجابه عمه العادل لوقته وكتب له بها، فتسلمها واستقر بها وأولاده من بعده، وكان تقي الدين يومئذ بمصر فبلغه ان صلاح الدين يريد عزله عنها، فأراد أن يهرب إلى المغرب، فإن قراقوش فتح بالمغرب مدناً كثيرة فأشار عليه أمراء مصر أن لا يروح إلى المغرب، وأن يمضي إلى عمه ويستعطفه، فتجهز وخرج من مصر، وسير صلاح الدين ولده العزيز صحبة عمه العادل الى مصر، ورتب ولده الظاهر غازي بحلب عوضاً عن عمه العادل، ولما وصل تقي الدين الى صلاح الدين أنعم عليه بميافارقين.

وفي النوادر السلطانية: ولما تقرر الامر المذكور بين هؤلاء الملوك، قال العادل: اجتمعت بالملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم ان المفسدين كثير، ولا تخلو غدا ممن يقول عني مالا يجوز، ويخوفك مني فإن كان لك عزم تسمع فقل إلي حتى لأجيء، فقال: لا أسمع، وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: أنا أعرف أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا مالي الا أنت، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه، فقال مبارك، وذكر كل خير.

وفي النوادر أيضاً أن الملك الظاهر سار إلى حلب حتى أتى إلى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا عيسى بن بلاشو، فنزل في يوم الجمعة بعين المباركة، وخرج الناس الى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة، وصعد القلعة المحروسة ضحوة النهار، وفرح الناس به فرحاً شديداً.

وأما تقي الدين فإنه لما وصل، سار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر في ثالث عشرين شعبان من هذه السنة وأعطاه حماة، وسار إليها.

وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من هذه السنة.

وفيهما حضر القمص صاحب طرابلس الى الملك الناصر صلاح الدين، واتفق معه ان يفتح له جميع الساحل، وأطلق له الملك الناصر جميع الاسرى والذين كانوا عنده، وجرد معه عسكرياً الى الساحل، وفتح

الطريق من مصر إلى الشام، وسار فيها التجار، ثم إن القمص (٢٠) المذكور نافق وأخذ قافلة من التجار، ودخل بلاد الفرنج، فحلف الملك الناصر لئن ظفر به ليقتلنه بيده، وكان ذلك سبب فتوح الساحل.

وفيهما كانت فتنة بين التركمان والاكرد ببلاد الجزيرة، والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق ما لا يحصى ودامت عدة سنين، وانقطعت الطرق، ونهبت الاموال واريقت الدماء، ثم إن مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل جمع عنده رؤساء الاكرد والتركمان وأصلح بينهم، وخلع عليهم، وانقطعت الفتنة العظيمة.

وفيهما دخل سيف الاسلام الى مكة ومنع من الاذان بحى على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس، وأغلق أمير مكة باب البيت، وصعد إلى أبي قبيس، فأرسل إليه وطلب المفتاح من صاحب مكة، فأبى من انفاذه فقال سيف الاسلام لرسوله: قل لصاحبك: إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تأخذوا المفتاح، من بيت شيبة، فنأخذه ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه المفتاح.

وفيهما قسم السلطان صلاح الدين البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل، فإنه لما مرض أشاروا عليه بذلك.

وفيهما ظهر الخلاف بين الافرنج، وتفرقت كلمتهم، وكان ذلك سبباً لسعادة الاسلام.

وفيهما غدر ابرنيس الكرك واسمه ارناط، وكان أخبث الافرنج، وأشهرهم، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام، وفيها خلق عظيم ومال كثير، فاستولى على الجميع قتلاً وأسراً ونهباً، فأرسل اليه

السلطان يوبخه على ما فعل ويقول: أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت، فلم يلتفت وشن الغارات على المسلمين وفتك فيهم، فنذر السلطان دمه، وأقام السلطان بدمشق يُجهز للقاء العدو، واستدعى العساكر من المشرق والمغرب.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلّت هذه السنة وكان أولها يوم السبت، وكان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أنه أول سنة الروم أيضاً، وهذا اليوم الذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضاً.

قال ابن الاثير: وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

ذكر غزوات السلطان صلاح الدين وفتوحاته:

كان السلطان رحمه الله قد جمع عساكره في آخر السنة الماضية، ولما استهلّت هذه السنة التي أولها يوم السبت برز السلطان من دمشق في هذا اليوم، وقيل برز في أثناء الشهر، أعني محرم هذه السنة فسار إلى رأس الماء، فنزل ولده الافضل هناك في طائفة من الجيش، وتقدم السلطان ببقية الجيش الى بصرى، ثم خيم على قصر أبي سلامة ينتظر قدوم الحجاج وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ليسلموا من معرة ابرنس الكرك.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة تقدم أمر صلاح الدين إلى جميع البلاد بأن يحضروا للغزاة في سبيل الله، فحضر من الجند عسكر الموصل وعسكر ديار بكر، مقدمهم الامير زين الدين صاحب حران، وعسكر الشام مقدمهم ابن دلدرد، وعسكر مصر وحلب وغيره، وخرج من

دمشق وقصد الكرك، كما نذكر عن قريب، انشاء الله تعالى.

وفي المرأة: خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام، ونزل بصرى يرتقب وصول الحاج، وقد كان بلغه ان ابرنس الكرك يرتقب وصولهم، فخاف من غدره، ووصل الحاج في اواخر المحرم، وخلاسر السلطان منهم فسار الى الكرك على ما ذكره.

وذكر صاحب النوادر السلطانية: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم صلاح الدين على قصد الكرك، فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض بصرى منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على مافي طريقهم من بلاد الساحلية ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر الشتوي، ووصل معهم بيت الملك المظفر، وما كان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالهم بالفرنج، بأرض انطاكية وبلاد ابن ليون، وذلك أنه كان قد مات ملك الافرنج الى لعنة الله ووصى لابن أخته بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرتهم، وكان وصول تقي الدين الى حلب في السابع والعشرين من محرم هذه السنة، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق، وأقام بها الى ثالث صفر، ثم انتقل الى دار طمان.

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب الى حارم وأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان الى الشام، وكان وصوله الى السواد في خامس عشر ربيع الاول من هذه السنة.

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعشرا ولقيه ولده الملك الافضل، ومظفر الدين وجميع العساكر، ومن منتصف ربيع الآخر عرض السلطان

العساكر على تل يعرف بتل تسييل، وتقدم الى ارباب الميمنة بحفظ موضعهم والى اصحاب الميسرة كذلك، والى اصحاب القلب بمثله، ثم ذكر صاحب هذا التاريخ وقعة حطين، ولم يذكر ماجرى قبل هذه الواقعة من الأمور، ونحن نذكرها مفصلة بعون الله ولطفه.

ذكر محاصرة الكرك:

لما قدم الحاج في أواخر صفر، نزل السلطان على الكرك، وقطع ماحوله من الاشجار، ورعى الزروع، وأكلوا الثمار، وجاءته العساكر المصرية، فتلقاهم بالقريتين، واجتمع عنده خلق كثير من العرب والترك والكرد وغيرهم، وكذلك فعل بشوبك مافعل بالكرك من المضايقة والمحاصرة واذهاب ضياء تلك الضياع، وازالة نقاء تلك البقاع، وإقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العسكر.

وتوافت الجيوش الشرقية، فنزلوا عند الافضل، وقعدوا ينتظرون الاشارة من السلطان.

ذكر بعث الافضل الى اعمال طبرية سريته:

ثم ان الملك الافضل بعث سريته نحو أعمال طبرية وأمرهم بالغارة على حين غره، وجعل مقدمهم مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك، وجعل على عسكر دمشق قاياز النجمي، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي، فساروا وصباحوا صفورية، فخرج إليهم الفرنج في جمع عظيم من الداوية والاسبتارية وغيرهما، فوقع حرب عظيم، وكاد المسلمون أن ينهزموا وينفلوا، فثبت قاياز النجمي في صدورهم وكذلك مظفر الدين وحمل عليهم من ناحيته ودلدرم من ناحيته، فقتلوا وغنموا وأسروا وسبوا

ورجعوا سالمين غانمين، وجاء الخبر، بالفتح والظفر للسلطان صلاح الدين وهو بالكرك، وكان هذا مقدمة الفتح.

وفي تاريخ بيارس: ندب السلطان ولده الافضل للغارة على عكا والسواحل، وسير صحبته مظفر الدين كوكبري، فلما وصلوا صفورية التقوا الفرنج، ووقع القتال، فهزم الله عز وجل الافرنج، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، منهم مقدم الاستتارية، وأسر الباقون وسيرت البشائر الى البلاد، ولما انتهى الخبر إلى السلطان رجع عن الكرك ولحق بالعسكر الذي مع ولده الافضل، وقد تلاحقت إليه العساكر والنجدات.

وفي المرأة: كان السلطان صلاح الدين قد أمر ولده الافضل عند مسيره الى الكرك أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ينتظر باقي العساكر الشرقية، فأنهض الافضل منهم طائفة للغارة على طبرية، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين، وعلى عسكر الشام صارم الدين قايماز النجمي، فنزلوا طبرية وتقدم بدر الدين دلدريم مقدم عسكر حلب الى طبرية، فخرج إليه مقدم الداوية والاستتارية ومعهم جماعة فقاتلوهم فقتلهم دلدريم وأسر بعضهم، وسار إلى صفورية ففعل كذلك، وعاد بالأسارى الى الافضل وهو على شعب الشهاب، وجاء السلطان الى تسيل - قرية غربي نوى - وصعد على تلها وعرض العساكر، وسر بما رأى، واندفع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الاول نحو فيق، ورحل الافضل بالعساكر معه فالتقوا على الاقحوانة، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخطباء، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر ألفاً من الفرسان، وأما الرجالة فيقال إنهم كانوا في ثمانين ألفاً مابين فارس وراجل، فنزلوا صفورية، وتقدم السلطان الى طبرية.

ذكر محاصرة طبرية وفتحها:

لما تقدم السلطان الى طبرية نصب عليها المجانيق، ونقب أسوارها، ففتحها يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الآخر، وتمنعت القلعة عليه وبها زوجة القومص، وتقدم الفرنج فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع الشمس، وملك المسلمون عليهم الماء، وكان يوماً حاراً، والتهب الغور عليهم، وأضرهم مظفر الدين النار في الزرع، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم، فلما طلع الفجر يوم السبت قاتلوا الى الظهر، ثم صعدوا الى تل حطين على ما نذكر الآن وقعة حطين.

وقال ابن كثير: لما سار السلطان الى طبرية فتحها، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران والبلقاء وما حولها من الجولان وتلك الاراضي كلها بالنصف، فراح الله المسلمين من تلك المقاسم، وتوفرت عليهم.

وقال العماد: وكانت الست صاحبة طبرية قد حمتها ونقلت إليها كل مملكته وحوته، فلما جاء إليها السلطان أمنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها وسارت الست إلى طرابلس بلد زوجها القومص بياها وحالها، وعادت طبرية أهلة آمنة بأهل الايمان، ثم عين السلطان لولايتها صارم الدين قايباز النجمي، وهو من أعيان الامراء.

وقال ابن كثير: ولما اجتمع السلطان بولده الافضل، خيم على عشترا، وسمع الفرنج بذلك فاجتمعوا كلهم وتصالخوا فيما بينهم، ودخل بينهم قومس صاحب طرابلس، ونقض العهد، وابرنس الكرك في جمع عظيم قيل كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفاً، وقد خوفهم القومص بأس المسلمين، فاعترض عليه برنس الكرك فقال له: لاشك أنك تحب المسلمين وتخوفنا من كثرتهم، والنار لا تخاف من كثرة الخطب، فقال القومص لهم: ما أنا إلا واحد منكم وسترون غب ما أقول لكم، وكانت

طبرية للقومص، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته كما ذكرنا، فأرسلت الفرنج إليه القسوس والبطريق ينهاونه عن موافقة السلطان.

وأصل ملك القومص طبرية أنه كان لطبرية ملك يقال له أماري بن فلك، هلك في آخر سنة تسع وستين وخمسمائة وخلف ولداً مجذوماً قد سقطت أعضاؤه، فوضع الفرنج التاج على رأسه ورضوا به مع عييه حتى لا يخرج الملك من بينهم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، فلما حس بهلاكه أحضر البطريق والقسوس وأكابر دولته وكان له ابن أخت صغير، وقال لهم: يكون هذا ملكاً، ولكن القومص أراد أن يستبد بالملك فلم يوافقوه الداوية، وقالوا: يلزمك العمل بشروط الوصية وتكفل بالأمر وهو مغلوب في مقاومة السلطان ومحاربتة ليتقوى بذلك على الملك، فاشتد أمره إلى أن مات الصغير، فانتقل الملك منه إلى أمه، وبطل ما كان في نية القومص من استبداده بالملك، فانتقل الملك إليها، واجتمع الفرنج عليها، فقالت لهم: زوجي أقدر على الملك وهو أحق به، وأخذت التاج من رأسها فوضعتة على رأسه، ثم إن الملك الكبير طالب القومص بحساب ماتولاه، فاستنصر القومص عليه بالسلطان صلاح الدين فهادنه وتقرب منه، ثم لما اجتمعت العساكر الإسلامية من الشامية والمصرية والجزرية جاء الملك إلى القومص بنفسه، وقبح له رأيه في مهادنته مع السلطان، ورجعه عن ذلك حتى اتفقت الافرنج كلهم على المسلمين.

ذكر وقعة حطين:

ولما اجتمع الفرنج للقتلى السلطان فارسهم وراجلهم وساروا إلى السلطان ركب السلطان من عند طبرية، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان، واشتد القتال، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على من قدامه من المسلمين، وكان هناك تقي الدين صاحب حماة، فأفرج له، وعطف عليهم، فنجا القومص ووصل إلى

طرابلس، وبقي مدة، ومات غماً لعنه الله، وأخذ المسلمون الفرنج من كل ناحية، وأبادوهم قتلاً وأسرًا، وكان في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وابن الهنفرى، ومقدم الداوية وجماعة من الاستبارية، وما أصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن مصيبة مثل هذه الوقعة، وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

وقال ابن الاثير: وكان في جملة الاسارى جميع ملوكهم سوى القومص صاحب طرابلس فإنه انهزم في أول الواقعة، وأخذ صليبيهم الاعظم عندهم، وهو الذي يزعمون أنه هو الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، ورصعوه باللآلي والجواهر النفيسة ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان ٢٦].

وقال ابن واصل: ذكر العماد أن السلطان الملك الناصر خلص في هذه النوبة ثلاثين ألف أسير من المسلمين، وأسر من الكفار مائة ألف أسير، وكان يوماً عظيماً حتى أنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل لبسها في رجله.

وفي المرأة: ولما فتح الله للمسلمين ونصرهم على الافرنج، جيء الى السلطان بصليب الصليبوت وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب، وهو عند النصارى مثل المسيح، والذي أسر الملك درباس الكردي، والذي أسر ابرنس ابراهيم غلام المهراني، فلما رآهم السلطان نزل وسجد شكراً لله تعالى، وجاء إلى خيمته فاستدعاهم فجلس الملك عن يمينه، وابرنس الكرك الى جانب الملك، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشاً، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشربه وسقى الابرنس،

فقال السلطان: ماأذنت لك بسقيه فلم سقيته؟ وكان السلطان قد نذر أن يقتل الابرنس بيده، فقال له: ياملعون ياغدار، خلعت وغدرت ونكثت، وجعل يعدد عليه غدراته، ثم قام إليه فضربه بالسيف حل كتفه، وتقدم المماليك وقطعوا رأسه، وأطعموا جثته الكلاب، فلما رآه الملك قتيلاً خاف وطار عقله، فأمنه السلطان وقال: هذا غدار كذاب، غدر غير مرة.

وقال ابن كثير: ولما تمت الواقعة أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى يسحبون في قيودهم، فضربت أعناقهم وفيهم جماعة من مقدمي الداوية والاستتارية، بين يديه صبرا، ولم يترك فيهم من كان يذكر الناس عنه شرا، ثم جيء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه وبجانبه أرناط برنس الكرك وبقيّة الملوك عن يساره، فجيء السلطان بشراب من الجلاب مثلوج فشرب ثم ناول الملك فشرب، ثم ناول أرناط فشرب، فغضب السلطان وقال: أنا سقيتك ولم آمرك أن تسقيه، هذا لاعهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة، واستدعى أرناط، فلما وقف بين يديه قام إليه بالسيف، وقال: أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه، ثم دعاه الى الاسلام فامتنع فقتله.

وقال العماد: قام السلطان فضرب عنقه بيده.

قلت: إنما فعل ذلك بيده، إقامة لنذره الذي نذر حين مرض^(٢١) كما ذكرناه.

ثم قتل السلطان جميع من كان في الاسرى من الداوية والاستتارية صبرا، وأراح الله المسلمين من هذين الجنسيتين النجسين، ولم يسلم ممن

عرض عليه الاسلام منهم الا القليل، فيقال إنه بلغ القتلى ثلاثين ألفاً وكذلك الاسرى كانوا ثلاثين ألفاً، وكان جيش الافرنج ثلاثة وستين ألفاً، ومن سلم منهم مع قتلهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم، ثم أرسل برؤوس الاسرى ورأس أعيان القتلى، وبصليب الصليبوت صحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وذكر في النوادر ماملخصه أن صلاح الدين اندفع قاصداً نحو بلاد العدو في وسط نهار الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وكان بلغه أنهم اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا، فقصد نحو المصاف معهم، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل، وكان نزوله يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر، ولما رأهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو، وزحف على طبرية فأخذها في ساعة من النهار، ثم التقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في آخر الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وحال الليل بين الفريقين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرون منه، فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض تسمى اللوية، فحال الليل بينهما أيضاً، ولما كان صباح السبت الرابع والعشرين منه ووقع القتال، نصر الله المسلمين بعونه ولطفه، فلم ينج منهم واحد، واعتصمت طائفة أخرى بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عند قبر شعيب عليه السلام، ثم ذكر ماذكرنا، ثم قال: ولما كان يوم الاحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل السلطان على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

ذكر فتح عكا:

وفيهما لغتان المدّ والنسبة إليها عكاوي، وعكة بالهاء، ولما فرغ السلطان من أمر طبرية سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر، ففتحها صلحاً يوم الجمعة، وأخذ ماكان بها من حواصل وأموال وذخائر ومتاجر، واستنقذ من كان بها من المسلمين، فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم، ففرج الله عنهم، وأمر بإقامة الجمعة بعكا، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو تسعين سنة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان جعل للفقهاء ضياء الدين عيسى الهكاري كل مايتعلق بالداوية، من منازل وضياع فأخذها بها فيها من غلات ومتاع، ووهب عكا لولده الافضل، وقال: ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فأقمنا بها الجمعة، وأعدنا الكنيسة العظمى جامعاً، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب الشهرزوري، فإنه تولى بها القضاء والخطبة.

وفي المرأة: نازل السلطان صلاح الدين عكا يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وليس بها من يحميها، لأن وقعة حطين أبادتهم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرون على حمله فأمنهم فدخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وغنم المسلمون أموالاً لا تحصى، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها وما فيها، ولم يحضر بهذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان، وكان بمصر، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا، ويافا على مآذكره، وحضر الملك العزيزلانه قدم مع العسكر المصري، ومضى إلى مصر وماعاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان والسلطان على صور.

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الانبيا ١٠٥] والحمد لله على انجاز هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل من ﴿بعد عسر يسراً﴾ [الطلاق ٧] وأحدث بعد أمر أمراً وهو الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً، وخوطف الدين بقوله: ﴿ولقد منّا عليك مرة أخرى﴾ [طه ٣٧] فأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والآخرى في هذه الدولة التي عتق فيها من رق الكآبة، والزمان لهيته قد استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكفر قد ردّ ما عنده في استعار، والخادم شرح في هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويسوء وجوه الكافرين ويورد من البشرى ما أنعم الله من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سلخه، وتلك ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ [الحاقة ٧] عدّموها فيها نفوساً وجسوماً، فأصبحوا قد هؤوا في الهاوية ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة ٦٩] وأصبحت البلاد إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت بالكفر باكية، ففي يوم الخميس فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت كانت الكسرة التي ما أبقت منهم بقية لا يقوم لهم بعدها قائمة ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ [هود ١٠٢] وهي أم البلاد، وأخت ﴿إرم ذات العماد﴾ [الفجر ٧] إلى غير ذلك من الكلمات.

ذكر فتح مجدل يابا:

ثم إن السلطان رحمه الله أرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل يابا وفتح عنة بالسيف.

وقال ابن كثير: وجاء العادل إلى السلطان بعد وقعة حطين، وفتح عكا، ففتح بنفسه حصوناً كثيرة.

وقال العماد الكاتب: ولما فتح السلطان مدينة عكا، أقام بيابها مخيماً، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً، وقد كان كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وهو بمصر، بما فتح الله له، فوصلت البشرى بوصول العادل بأشراً، وللواء الحمد ناشراً، وأنه فتح حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، واغتنمها غزوة

ثم إن السلطان فرق أمراءه إلى فتح البلاد، ففتح كل واحد منهم حصناً أو قلعة على ما ذكره الآن إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح الناصرة وصفورية:

أرسل السلطان مظفر الدين كوكبوري إلى الناصرة وصفورية ومعه حسام الدين طمان، فاستباح حماهما واستبى دماءهما ففتحهما، وغنم مافيهما من الأموال والذخائر، وجاء إلى السلطان والأسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ومقادين في الأقياد.

وفي تاريخ المؤيد: وفرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ومعليا، والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الأماكن.

ذكر فتح قيسارية:

أرسل السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي، وغرس الدين قليج، وجماعة من الأمراء إلى قيسارية، فافتتحوها بالسيف، وغنموا وأسروا وسبوا.

ذكر فتح نابلس:

أرسل السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس، ووصل إلى سبسطية فتسلمها وتعجل مغنمها، ووجد مشهد

زكريا النبي عليه السلام، قد اتخذ القسوس كنيسة، وأعادته مشهداً ورده مسجداً ووضع فيه منبراً، ثم أناخ على نابلس وحاصرها، وطال عليه حصارها، ولم يزل عليها مقيماً ولقّتها مديماً إلى أن استأمنوا منه فأمنهم، ففتحوا له القلعة، وملكها حسام الدين، ثم إن السلطان استنابه على نابلس ومعاملتها.

ذكر فتح الفولة وغيرها من البلاد:

وكانت الفولة أحسن القلاع وأحصنها، وأملاها بالرجال والعدد، وهي للداوية حصن حصين، ومكان مكين، وكان فيها مشاهم ومصيفهم، فلما اتفق يوم المصاف، خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم، فلما كسروا أسروا وخسروا، وأسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان، وكانت فيه ذخائر عظيمة.

ثم تسلم السلطان جميع ما كان من تلك الناحية من البلاد مثل دبورية، وجنين، وزرعين، والطور، واللجون، وبيسان، والقيمون، وجميع مالطرية وعكا من الولايات، والزيب والبعة ومنوات، وغير ذلك.

ذكر فتح تبين:

ولما حصلت تلك الممالك والأعمال للسلطان، رسم لابن أخيه المظفر عمر بن شاهنشاه بقصد حصن تبين، وأن يتوكل على الله ويستعين.

وقال العماد: فوصلنا إلى تبين في ثلاث مراحل، ونزلنا عليه بالنوازل، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل، فلما أيسوا من الحياة، وعانوا الممات سألوا الأمان من السلطان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، فأمهلوا، وأطلقوا أسارى المسلمين، فلما جلوا البقعة وأخلوا القلعة سيرهم السلطان ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور.

ورتب في الموضع مملوكه سنقر، ووصاه بتأنيس النافر، وتعكيس الكافر، وأن يصلح خندقها وسورها.

وفي النوادر: نزل السلطان عليها يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى، وهي قلعة منيعة وكان بها رجال ابطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معانة شديدة، ونصر الله عليهم، وتسلمها يوم الاحد ثامن عشر الشهر المذكور عنوة، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا متوكلا على الله.

ذكر فتح صيدا:

نزل عليها السلطان بعسكره يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى، فجاء رسل صاحبها بمفاتيحها وفتحت أبوابها، ودخل فيها المسلمون، وأقيمت بها الجمعة والجماعة.

ذكر فتح بيروت:

ثم رحل السلطان من صيدا إلى بيروت، فنزل عليها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الاولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه، وذلك بعد قتال عظيم، وحصار شديد، ونقب لاسوارها، وظهر من تلك الايام ضراب شديد من الداوية فأخر الامر، ولما اشتد بهم الحال خرج أحد المقدمين يستدعي الامان، فأمنهم السلطان فنزلوا على الطاعة، وسلموا البلد في التاريخ المذكور.

وفي النوادر: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت، لأن العسكر كانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب، وكان اجتمع في صور كل فرنجي بقي من الساحل، فرأى قصد عسقلان لان

أمرها كان أيسر، وكان السلطان فتح جبيل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الاولى، وكان صاحب جبيل اسمه أوك، وهو الذي سلم جبيل الى السلطان وهو على بيروت.

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم:

ونزل السلطان عليها يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة، واجتمع السلطان بأخيه العادل عليها، وامتنع أهلها أشد الامتناع، وقاتلوا قتالاً عظيماً فضيق السلطان عليها بالرجال والقتال، ونصب المجانيق ونقب الاسوار، فلما ضاق عليهم الحال راسلهم الملك المأسور وقال: قد بان عذرکم حين نقب السور، فترددت بينهم الرسائل، فقال لهم الملك المأسور لا تخالفوا لما أشير عليكم من الامر، فاسمعوني وأطيعوني واحفظوا رأسي فهو رأس مالکم، فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت أنقذت، وخرج المقدمون وشاوروا الملك فسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة. ومن استشهد على عسقلان من الامراء الكبار ابراهيم بن حسين الهذباني وهو أول أمير افتتح بالشهادة، وختم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه الى عسقلان الرملة ويبنى وبيت لحم، والخليل وأقام بها حتى أنه إذا سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة.

ثم اجتمع بالسلطان ابنه الملك العزيز صاحب مصر على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت والحاجب لؤلؤ المقدم فيها، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الاماكن وسبوا شيئاً كثيراً لا يحصى ولا يوصف، واستبشر الاسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة، وترك السلطان جيوشه ترتع في هذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور ليستريحوا ويجمعوا أنفسهم وخيولهم ليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف.

واشتاع في الناس أن السلطان على عزم فتح بيت المقدس، فقصده العلماء والصلحاء والمتطوعة من كل فج عميق، فعند ذلك قصد السلطان بيت المقدس بمن معه على ما ذكره ان شاء الله.

وفي تاريخ بيبرس: ولما فتح السلطان عكا فرق عساكره الى جميع الحصون الساحلية فتسلموها أولاً فأولاً، ولم يعد للفرنج قدرة على الدفاع، ولا سبيل الى الاجتماع فتسلموا نابلس وقيسارية وصفورية والناصرية، واستخلف في عكا ولده الافضل، ثم رحل على تبين فحاصرها إلى أن تسلمها، ثم نزل على صيدا فتسلمها، ثم سار إلى بيروت فتسلمها، وتسلم أصحابه جبيل، ورحل إلى عسقلان فنازلها وتسلمها، ثم تسلم الرملة: ثم الداروم، ووصل إليه ولده العزيز من مصر وهو على عسقلان مهنيا بالفتح، فأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة. وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال، وكان بين فتوح عسقلان وبين أخذ الفرنج لها ثمان وأربعون سنة.

وفي المراجعة: وكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها منهم خمسة وثلاثون سنة، لانهم ملكوها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وفوض السلطان القضاء والخطابة الى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن، وتسلم السلطان هذه الاماكن المذكورة في أربعين يوماً، أولها ثامن عشرين جمادى الاولى، وآخرها ثامن رجب.

وفي تاريخ المؤيد: وفيها حضر المركيس في سفينة إلى عكا، وا يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهواء فراسل المركيس الملك الافضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر، والملك الافضل يجيب المركيس إلى ذلك إلى أن هب الهواء، فأقلع المركيس إلى صور، واجتمع عليه الفرنج الذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور وإطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالامان، وحملهم الى صور من أعظم أسباب الضرر التي حصلت، حتى راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك.

ذكر فتح بيت المقدس شرفه الله واستعادته من أيدي النصارى بعد ثلاث وتسعين سنة:

ولما فتح السلطان صلاح الدين رضي الله عنه ماحول بيت المقدس من الاماكن المباركة، أمر العساكر فاجتمعت، والجيش المتفرقة في البلدان للغنائم فائتلفت، وسارنحو البيت المقدس بتلك العساكر فنزل غربي بيت المقدس يوم الاحد الخامس عشر من شهر رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقد حصنت الفرنج لعنهم الله الاسوار بالمقاتلة، وكانوا ستين ألف مقاتل دون بيت المقدس أو يزيدون، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له باليان بن بارزان، وكان معه من سلم من وقعة حطين من الداوية والاستبارية، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام، ثم سلم إلى كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور، ثم تحول إلى ناحية الشمال، لانه رآها أوسع وأنسب للمجال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، واستشهد بعض أمراء المسلمين فحنق عند ذلك كثير من امراء الاسلام واجتهدوا في القتال وقد نصبت المجانيق والعرادات، فبادر السلطان رحمه الله بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته.

وفي المرأة: وكان المنجمون قد قالوا للسلطان: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة، فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، وكان قد نزل على غربيه أولاً، ثم انتقل إلى شماليه من باب العمود إلى برج الزاوية، ومن هذا المكان أخذ الفرنج، وكان مشحوناً بالبطارقة من الخيالة والرجالة على ما يزيد على ستين ألفاً غير النساء والذرية، وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ بيبس: قتل في أول يوم عز الدين موسى بن مالك، صاحب قلعة جعبر، فحزن السلطان عليه.

وفي النوادر: وكان نزول السلطان على القدس يوم الاحد الخامس عشر من رجب، ونصب عليه المنجنيقات، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما شاهد الفرنج ذلك قصد أكثرهم السلطان وتشفعوا إليه أن يعطيهم الامان فامتنع وقال: لأفتحها إلا بالسيف عنوة كما فتحتموها عنوة ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم المسلمين، فطلب صاحبها باليان بن بارزان من السلطان الامان ليحضره عنده فأمنه، فلما حضر ترقق له، وتشفع اليه بكل يمكن، فلم يجبه إلى الامان لهم، فقالوا: لئن لم نعط الامان رجعنا فقتلنا كل أسير من المسلمين بأيدينا وهم قريب من أربعة آلاف أسير، وقتلنا ذرارينا وخربنا الدور والاماكن الحسنة وأتلفنا مابأيدينا من الاموال والقينا قبة الصخرة، وبعد ذلك نقاتل قتال الموت فلا يقتل واحد منا حتى يقتل أعداداً منكم، فما يرجى بعد هذا من الخير؟ فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة دينارين، وأن تكون الغلات والاسلحة والدور للمسلمين، ويتحولوا منها إلى مأمئهم، وهو مدينة صور، فكتب الصلح على ذلك، ومن لا يبذل ماشرط عليه إلى أربعين يوماً فهو أسير، فكان من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف انسان من الرجال والنساء والولدان، ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم التاسع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهو ليلة الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى إلى السموات العلى.

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا أحد الاقوال في الاسراء والله أعلم.

وكان في القدس بعض نساء الملوك من الروم، قد ترهبت ومعها من الاموال والجواهر والعبيد والخدم شيء كثير، فطلبت الامان لنفسها ولن معها فأمنها السلطان وسيرها إلى مأمنها، وخرجت زوجة الملك المأسور، وهي ابنة الملك ماري، وكانت الاخرى قد ترهبت وتزهدت، ومعها من الاموال والجواهر والخيول والخدم شيء كثير، فخرجت واستأذنت السلطان في اجتماعها بزوجها، وكان محبوساً في برج نابلس، فأذن لها وسارت وأقامت عند زوجها حتى تخلص.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من الذهب، فتسلق المسلمون وقلعوه والفرنج ينظرون إليهم، فصاح الناس كلهم صيحة كادت الارض أن تميد بهم، أما المسلمون فصاحوا سروراً بالتكبير والتهليل، وأما الفرنج فصاحوا تغبنا وتوجعاً.

وقال ابن كثير رحمة الله عليه: ولم يتفق صلاة الجمعة يومئذ، يعني يوم دخولهم خلافاً لبعضهم ممن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ، والصحيح أن الجمعة لم يمكن إقامتها يومئذ لضيق الوقت وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين ابن علي القرشي، المعروف بابن الزكي، كما نذكره، ونظف المسجد الاقصى يومئذ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وخربت دور للداوية كانوا قد ابتنوها غربي المحراب الكبير، وكانوا قد اتخذوا المحراب هرباً ومستراحاً، فنظف المسجد من ذلك كله، وأعيد الى ماكان عليه في الايام الاسلامية، والدولة المحمدية، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة محجوبة عن الزائرين.

وفي المرأة: ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد، وقيل غسلها بلحيته وهويبيكي، ومحا الصور منها، وقد كان الملك العادل نور الدين

محمود بن زنكي رحمه الله قد عمل منبراً بحلب وتعب عليه مدة وقال: هذا لأجل القدس الشريف، فأرسل السلطان صلاح الدين وأحضره من حلب، وجعله في الجامع الاقصى، ولما كان في الجمعة الثانية وأرادوا أن يقيموا به الجمعة حضر المسلمون بالحرم الشريف من كل فج عميق، فاجتمع من الاعمال الاسلامية عدد لا يحصى، فلما أذن الظهر حضر السلطان بقبة الصخرة، وكان جماعة من الكبار والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في ذلك اليوم وألفوا خطباً يخطبون بها، فلما كان وقت الخطبة رسم السلطان للقاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، فرقا المنبر بأهبة السواد العباسية، وخطب خطبة بديعة، ثم إن السلطان رحمه الله أقام حرمة فوق ما كانت.

وفي المرأة: وكان حضر مع السلطان هذا الفتاح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الاجناس وتناول جماعة من الأعيان إلى الخطابة، فتذكر السلطان قول ابن زكي الدين: وفتحكم حلب بالسيف في صفر مبشر بفتح سوح القدس في رجب

قال القاضي الفاضل: فقد أنطق الله السلطان بالغيب، فأعطاه الخطابة، وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق.

وقال ابن القادسي في ذيله: إن صلاح الدين خطب بالبيت المقدس وهو وهم منه، ثم إن السلطان فرق الأموال التي أخذها من الأفرنج، وكانت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار، على العلماء والفقهاء والصوفية.

ذكر ما فعله السلطان صلاح الدين بعد فتحه القدس:

فمن ذلك تفرقة الأموال التي أخذها من الأفرنج - كما ذكرنا - ومن ذلك أنه جلس بعد صلاة الجمعة بعد أن خطب الخطيب، ودعا للخليفة

العباسي وللسلطان الملك الناصر صلاح الدين، وسمع وعظ الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا المصري، لأنه بعد صلاة الجمعة جلس على كرسي للوعظ باذن السلطان، فوعظ الناس، وكان وقتاً مشهوداً، واستمر القاضي محيي الدين بن زكي الدين الخطيب بالناس في أيام الجمع أربع جمع، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً، وأمر الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يعمل حول الصخرة شبائيك من حديد، ورتب لها اماماً وراتباً، ووقف عليه رزقاً جيداً، وكذلك على امام المحراب الاقصى، وعمل للشافعية المدرسة الصلاحية، ويقال فيها الناصرية أيضاً، وكان موضعها كنيسة حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصوفية رباطاً كان دار البترك إلى جانب القمامة، وأجرى على الفقهاء والفقراء الجامكيات والجرايات، وأرصد الختم والربعات في أرجاء المسجد الاقصى لمن يقرأ أو ينظر فيها من المقيمين والزائرين، وتنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات بالقدس الشريف للقائمين والظاعنين والقاطنين، وعزم السلطان على هدم قمامة وجعلها دكاً لتنحسم مادة النصارى عن بيت المقدس، فقليل إن هؤلاء لا يتركون الحج إلى هذه البقعة ولو تركتها قاعاً صفصفاً، وقد فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس وترك القمامة على حالها، فتركها صلاح الدين أيضاً تأسيساً بأمر المؤمنين، أحد الخلفاء الراشدين، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة أنفس يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة وعفى آثارها، وهدم ما كان هناك من القباب وعجل دمارها.

ومن ذلك أن السلطان أمر للعماد الكاتب أن يكتب كتاباً إلى بغداد بالفتح، وكان القاضي الفاضل بدمشق مريضاً لم يحضر هذا الفتح، فكتب في أوله: ﴿وعدا لله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ إلى قوله: ﴿من بعد خوفهم أمناً﴾ [النور ٥٤ - ٥٥] الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك

والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، وبذل الأمن به من المخافة، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوي ومنحه أخلص أوليائه، وأخص أصفياه بعد أن انقضى من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وفوت ترجيه، وتقاصرت عنه الهمم، وتخاذلت عنه الامم، فله الحمد الذي حقق بفتح ما كان في النفس، وبذل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمسه، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس، وعباد الصليب والشمس، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الاحد، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل ﴿قل هو الله أحد﴾ وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس وجميع ماحوت مملكة الفرنج إلى نابلس، وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين، ونزع لباس اليأس بافاضة ثواب المحسنين، ورجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وطلع قمر الهدى من سراره، وعادت الارض المقدسة إلى ماكانت عليه من التقديس، وأمنت المخاوف بها، وفيها فصاحة صباح السرى ومناخ التعريس، وأقصى المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون المقربون وخرس الناقوس برحيل المسيحيين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لاهله: مرحباً وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين ما جمع الله لهم فيه شملًا، ورفعت الاعلام الاسلامية على منبره، فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عزها: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف ١٣] وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين، وبعد أهل الاحاد من قربها بقرب الموحدين، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه.

وذكر العباد فصولاً في هذا المعنى:

نكتة غريبة: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن عن أبي محمد السنجاري في تفسير أبي الحكم

الاندلسي، يعني ابن حيان، في أول سورة الروم — أخباراً عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، قال السنجاري: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه مما زعم من قوله: ﴿غلبت الروم﴾ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين ﴿[الروم ٢-٤]﴾ فبنى الأمر على التاريخ كما يفعله المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه الحالة وافقت إصابة إن صح أنه قاله قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولا بد من باب الكرامات لأنها لا تبان بحساب.

قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

ذكر رحيل السلطان من القدس طالباً صور:

لما قرر السلطان صلاح الدين أمور القدس الشريف انفصل عنه في الخامس والعشرين من شعبان وسار حتى أتى على عكا، ثم سار منها إلى صور، وكانت قد تأخرت من بين تلك النواحي، وقد استحوذ عليها من بعد وقعة حطين رجل من التجار ويقال مركيس، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدة استدعى بالأسطول من الديار المصرية في البحر، فاحتاط بها براً وبحراً، فعدت الفرنج في بعض الليالي على خمس شواني من الأسطول فملكته، فأصبح المسلمون واجمين، وقد دخل البرد وقلت الأزواد وكثرت الجراحات وكل الأمراء من الحصارات، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق في هذا الوقت حتى يستريحوا، ثم يعود إليها بعد هذا الحين فأجابهم على تمنع منه، وذلك أن السور من صور كان قد هدم أكثره ولم يبق إلا الفرج والنجح، فتوجه إلى دمشق.

وفي المرأة: وفي شعبان سار السلطان إلى صور فوصلها غرة رمضان فوجدها مدينة حصينة وهي في البحر مثل السفينة، والبحر محيط بها من جوانبها، وليس لها طريق في البر إلا من مكان واحد فيه سبعة أبراج، وبها المركيس، وكان شجاعاً حازماً وقد انضم إليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج.

وفي النوادر: قدم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، صاحب حلب على أبيه، وهو على صور في الثامن عشر من شهر رمضان، وسرّ بوصله سروراً عظيماً، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل، وكان السلطان خلف أخاه العادل في القدس لتقرير قواعده فاستدعاه، فوصل إليه في خامس شوال، وسير من حاصر هونين فسلمت بأمان في الثالث والعشرين من شوال.

وكان السلطان قد قدم على الاسطول انسانا يقال له الفارس بدران، وكان ناهضاً جليداً في البحر، وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن، وكان قد أكد الوصية في أخذ الحذر منهم، فغفلوا عن أنفسهم في الليل، فخرج اسطول الكفار من صور، فكبسهم، وأخذوا المقدمين، وأخذوا منهم خمس قطع وقتلوا قتلاً كثيراً من الاسطول الاسلامي، وذلك في السابع والعشرين من شوال، فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق صدره، وأشار بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعداداً جديداً، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنقات وسيرها، وأحرق ما لم يمكن نقله، وكان رحيله يوم الاحد ثاني ذي القعدة، ففرق العساكر وأعطاهم دستوراً، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال ابن كثير: ولما وصل السلطان إلى عكا نزل بقلعتها، وأسكن ولده الافضل برج الداوية، وولى نيابتها عز الدين جرديك، وقد أشار بعضهم

على السلطان بتخريب عكا خوفاً من عود الفرنج إليها، فكاد أن يفعل ولم يفعل فليته فعل، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوي (٢٣)، ووقف دار الاستار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الاسقف مارستاناً، ووقف على ذلك كله اوقافاً دارة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين بن الشيخ أبي النجيب، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً رحمه الله.

ذكر ماجرى بعد دخول السلطان دمشق:

ولما انفصل السلطان عن عكا وتوجه إلى دمشق جاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الاقطار والامصار بالتحف والهدايا.

وفي المرأة: وصل إلى السلطان من بغداد تاج الدين أبو بكر، أخو العماد الكاتب، فالتقاه السلطان وأكرمه، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على أسباب منها أن الخليفة عتبه لاجل ابن البوشنجي، ويلقب بالرشيد، وكان صبيّاً ببغداد ولا يؤبه إليه، فخرج إلى الشام واتصل بصلاح الدين، وقيل له: هذا من بيت كبير، وكان أديباً فأعجب السلطان، فسأله أن يبعثه إلى بغداد في رسالته فبعثه إلى الخليفة، فقال: ما كان عنده غير هذا؟ وقصر في حقه، فلما عاد إلى السلطان تكلم بكلمات، وقال: ما التفت إلي، ومنها إن كل من هرب من بغداد لجأ إلى السلطان يقبل عليه مثل رئيس الرؤساء وابن هبيرة، وابن أبي النجيب وأمثالهم، ومنها مشاركته في لقب الخليفة بالناصر، وأشياء من هذا الجنس، ثم قال في آخره: يمن علينا بفتح القدس، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته، فاستشاط السلطان غضباً، وقد كان يرجو أن يأتيه كتاب الخليفة يشكره على ما فعل، ثم قال السلطان لأخي العماد: أما ابن البوشنجي فمن عندكم جاء، وقيل لي إنه من بيت كبير وصحبني وسألني انفاذه إلى بغداد ليمن على أهله، ويتجمل بكم، فما

أمكنني رد سؤاله، وأما الذين التجأوا إلي من أرباب البيوت، فإن
الإنسان قد يلتجئ إلى كوخ عجوز في البرية فتجيره من القتل، فأنا
فعلت فعل العرب، وحفظت الدمام، وعرفت حق من قصدي ولجأ إلي
وصتهم أيضاً عن ألسن الناس فيصير ذلك عاراً عليكم، وأما مشاركتي
في اللقب فوالله إنني ما اخترته ولا اقترحتة، ولكن لما أزلت دولة عدوه
القائمة من مائتي سنة وكسر وفعلت ما فعلت لقبني المستضيء بهذا
اللقب، وكتب من بغداد إلى نور الدين بذلك، ولم يكن في زمانكم، ثم
لو وقع هذا ففني عسكري عشرة آلاف تركماني وكردية لقب كل واحد
صلاح الدين فلم أنكر عليه، وأما قوله إنني فتحت القدس تحت راياته
وعسكره، فأين راياته وعسكره؟ والله ما فتحت إلا بعسكري وتحت
رايائي، وأرعد السلطان وأبرق، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة
باطنيا، وأمسك السلطان نفسه ظاهرياً، فكتب كتاباً إلى الخليفة يقول
فيه: «المحاqqة توجب المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه،
واندمال هذا الجرح خير وأولى من إتساعه وخرقة».

وقال السبط: وقد ذكر محمد بن القادسي قضية ابن البوشنجي، فقال:
كان أمرداً في دروب بغداد، فطلعت لحيته فخرج إلى الشام، فخدم
يوسف بن أيوب وسأله أن يرسل إلى الديوان في رسالة فأرسله فقامت
القيامة على الديوان، فلما عاد ابن البوشنجي إلى الشام أكثر كلامه، فما
مضى إلا اسبوع حتى جاءته نشابة فذبحتة، وكان ذلك عقوبة لما بسط
به لسانه.

قلت: وهذه من هنات ابن القادسي، فإنه كان عالماً، يعتمد المثالب،
وقد أساء الأدب في مواضع منها قوله:

كان أمرداً في دروب بغداد، ومنها قوله على السلطان يوسف بن
أيوب، وما ذكره ببعض القابه، ومنها قوله: جاءته نشابة فذبحتة، جعل

الشهادة في سبيل الله عقوبة، وهذه الواقعة في هذه السنة، وابن البوشنجي استشهد في سنة ست وثمانين وخمسمائة بعد أخذ الفرنج عكا من السلطان، ومن العجائب في هذه الواقعة أنني اجتمعت بشيخ دار الحديث المظفرية بالموصل في سنة خمس وستمائة، وجرت مذاكرة في غزوات صلاح الدين، فقال: حضرت معه في برج عكا، والفرنج قد أخذوا عكا، فبينما أنا قاعد في سوق العسكر، وإذا بشاب من أحسن الشباب قد جلس إلى جانبي، فذاكرته فوجدته فاضلاً فصيحاً من أهل بغداد من بيت البوشنجي، قلت فما اللقب؟ قال: يقبح بي أن ألقب نفسي، فأقسمت عليه فقال: يقال الرشيد، فقلت وما الذي جاء بك إلى هاهنا؟ فقال: سمعت أن السلطان يعرف مقدار اولاد الناس ويحسن إليهم، ورغبت أيضاً في الشهادة فأتيت إليه، فأحسن إليّ وأكرمني وأعطاني، ثم قال: أخاف ان تنقضي هذه الغزوات وما تحصل لي شهادة، فأسأل الله أن يرزقني الشهادة فقد تآقت نفسي إليها، قال: فدعوت الله أن يختار له مافيه الخير، ثم قلت: ياسيدي أنشدني شيئاً من شعرك فقال: نعم..... ثم قام من عندي باكياً وقصد الفرنج فاستشهد رحمه الله تعالى.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير محمود أخو جاولي:

استشهد في هذه السنة، وسبب ذلك أن السلطان وكله بحصن قلعة كوكب الذي على الغور وكانت فيها الاستتارية، وقد كانوا تمنعوا لشدتهم ومنعتهم.

وكانت جيلة وأخذها في الثامن عشر من جمادى الاولى حال وصوله على مذكوره.

وقال العماد الكاتب: وأشرفنا على جيلة يوم الخميس الثامن عشر، وتسلمنا الحصن في ذلك اليوم، وأقام السلطان بها أياماً.

وفي النوادر: ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل السلطان على تل قبالة حصن الاكراد، ثم سير الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا على تيزين في هذا التاريخ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بالسلطان في هذه المنزلة، فأقام في منزلته هذه ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه إلى حصن الاكراد وحاصره يوماً يحسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره، واجتمعت العساكر من الجوانب، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية العساكر.

ولما كان يوم الجمعة الرابع من جمادى الاولى دخل على تعبئة للقاء العدو، ورتب الاطلاب، وسارت الميمنة اولا، وتقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الاخير ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار الثقل في وسط القلب حتى أتى المنزل، ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت، ورحل عنها يوم الاحد، ووصل إلى انطربوس ضحوة نهار الاحد السادس من جمادى الاولى.

ذكر فتح انطربوس:

ولما وصل انطربوس في التاريخ المذكور، وقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاختيار، ثم اختار النزول، فأمر الميمنة والميسرة بالنزول على البحر من الجانبين، ونزل هو أيضاً في جانب آخر فأجدقت بها العساكر من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان حصينان كالقلعتين، ثم أمر الناس بالزحف والقتال، وشدوا عليها

جداً، وما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها عنوة، وغنم العسكر جميع ما فيها، وخرج الناس والاسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالتهب والكسب ووفى السلطان بقوله، فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله، وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً، ثم أمر بتخريب سور البلد، وتخريب بيعة عظيمة عندهم كانوا يحجون إليها من اقطار بلادهم، وأمر بوضع النار في البلد فأحرق جميعه، فأقام عليه إلى الرابع عشر من جمادى الاولى، ثم سار يريد جبلة، وكان وصوله إليها في الثامن عشر من جمادى الاولى يوم الجمعة.

ذكر فتح جبلة:

ولما وصل السلطان الى جبلة في التاريخ المذكور أخذ البلدة يوم وصوله، وكان فيها مسلمون مقيمون فيها، وقاض يحكم بينهم.

وفي المرأة: وكان قاضيها منصور بن بليل فأرسل الى السلطان يشير عليه بقصدها، وقيل إن القاضي والاعيان خرجوا إليه وهونوا عليه أمرها، وأخذ القاضي من السلطان اماناً لاهل جبلة، وكان ابرنس انطاكية قد سلمها الى القاضي ووثق به في حفظها فنازلها وفتحها في التاريخ المذكور، وامتنع الحصن عليه يوماً ثم سلموه اليه يوم السبت بالامان بعون الله وفضله وأقام عليها إلى الثالث والعشرين من الشهر المذكور ثم سار عنها يطلب اللاذقية.

ذكر فتح اللاذقية:

نزل السلطان عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الاولى وهي بلدة لها ميناء وقلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد فنزل رحمه الله محققاً بالبلد، وأخذت العساكر منازلهم مستديرين على القلعتين من

جميع نواحيها الا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف وأخذوا البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة، فإنه كان بلد التجار وفرق بين الناس الليل، وأصبحوا يوم الجمعة مقابلين مجتهدين في النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، واشتد الزحف عليهم حتى صعدوا الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة بالأيدي، فلما رأوا ذلك استغاثوا وطلبوا الامان عشية الجمعة الخامس عشر من الشهر المذكور، وطلبوا قاضي جبلة فدخل إليهم ليقرر لهم قاعدة الامان فأجيبوا الى ذلك، فدخل القاضي وقرر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم ونسائهم وذرائعهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم السلطان دواب يركبونها الى مأماتهم، ثم رقا عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية السبت السادس عشر منه، وأقاموا عليه إلى يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى.

وقال العماد رحمه الله: ولما رحل السلطان من جبلة اتى اللاذقية وفتحها في الرابع والعشرين من جمادى الاولى، وهي ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل، فلما عرفوا انهم مدركون طلبوا الامان وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين عشية، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وانتقل الباقون إلى انطاكية، ثم رتب السلطان جماعة من خواص مماليكه وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها أهل التوحيد وولى بها سنقر الخلاطي مملوكه، ثم ركب السلطان الى البلد وطافه، وكانت قلعتهم هذه منيعة عالية مرتفعة، ولما ملك صلاح الدين الساحل وهلك الباطل، وافتتحت طبرية وأعمالها، تمنعت من ذلك قلعتان: قلعة صفد بالداوية، وقلعة كوكب بالاستارية، وتعذر فتحهما، ورتب السلطان على صفد جماعة يعرفون بالناصرية، ومقدمهم مسعود الصلتي، ورتب على كوكب هذا محمود المذكور، وكان ديناً صالحاً مشكور السيرة، فأقام بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا، وكان يسهر اكثر ليله متهجداً، وقد

جعل منزله مسجداً، فلما كان آخر ليلة من شوال، وكانت ليلة مظلمة مدلهمة خرج أهل كوكب وقت السحر، ومضوا إليه، والناس رقود، والحراس هجود، فما أحس محمود إلا وقد هجم الفرنج عليهم، فجاءتهم الشهادة، وبقي الأمير حتى استشهد محصوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ونقلوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع، فلما عرف السلطان ما أصابهم ندب إلى كوكب صارم الدين قاياز النجمي فضايقها وحصرها، ولم يزل عليها مقيماً إلى أن يسر الله فتحها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين مقيم على عكا.

ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته في هذه السنة:

وسار السلطان من عكا في المحرم، وحاصر حصن كوكب، فراه منيعاً صعباً، ووقته مشغول بغيره، فوكل به الأمير قاياز النجمي في خمسمائة فارس يضيقون عليه المسالك، وكذلك بصفد، وكانت للداوية، خمسمائة فارس مع طغرل الجاندار، يمنعون وصول الميرة والتقاوي، وبعث إلى الكرك والشوبك جيشاً آخر يحاصرونها ويضيقون على أهلها ليفرغ من أموره لقتال هذه الأماكن وحصارها، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس به، وكتب إلى ملوك الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام ثم خرج على ما ذكره.

وفي المرأة: وكان الذي أرسله صلاح الدين إلى الكرك والشوبك صهره يقال له لوجيا.

وفي النوادر: ولما خرج السلطان نزل على بحيرة قدس غربي حمص، ووافته العساكر بها وأولهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكمل عسكره رحل ونزل تحت حصن الاكراد وشن الغارات على بلاد الافرنج، وسار من حصن الاكراد فنزل على انطرطوس سادس جمادى الاولى فوجد الفرنج قد أدخلوا انطرطوس، فسار إلى مرقب فوجدهم قد أدخلوها أيضاً، فسار إلى صوب جبلة وهز إلى احسانها أعطافه، ثم رحل نحو صهيون.

ذكر فتح صهيون:

ولما سار السلطان راحلاً من اللاذقية نزل على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الاولى، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الاربعاء، ونصب عليها ستة مناجيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً وهو نقر في صخر، ولها ثلاثة أسوار: سوران دون ريبضها، وسور دون القلعة، وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الاسلامي وقع.

قال صاحب النوادر: شاهدت ذلك حين وقع، فاستبشر المسلمون بذلك، وعلموا أنه النصر والفتح، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر صاحب حلب، وكان قد لحقه قبيل فتح جبله بجحفله وعسكره، وحضر فتوحها، ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدم وأمر المنجنوقات بتواتر الضربات، وما كان ساعة الا وقد رقا المسلمون على أسوار الريبض، واشتد الزحف، وهجم المسلمون الريبض، وانضم من كان فيه إلى القلعة، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الامان، فبذل لهم السلطان الامان على أن يسلموا بأنفسهم

وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشر دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير دينارين، وسلمت القلعة، وأقام السلطان حتى تسلم قلاعا غيرها، وهي: بلاطيس، وعيد، وقلعة الجماهير وغير ذلك .

وقال العماد: وكان تسلم عيد يوم السبت، وقلعة الجماهير يوم الأحد، وقلعة بلاطيس يوم الاثنين، وقرر في كل حصن من تسلمه، وممكنوا من الخروج حتى أحضروا ماقرر عليهم، وتولى جباية ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار.

وقال العماد: ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين.

ذكر فتح بكاس:

ولما رحل السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة وصل إلى قلعة بكاس سادس جمادى الآخرة وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، ونزل السلطان على العاصي.

قال النويري: تسلمها يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور، وكان أهلها اخلوها قبل وصول السلطان وتحصنوا بقلعة شغر.

وفي النوادر: صعد السلطان جريدة إلى القلعة، وهي على جبل مطل على العاصي، فأحرق بها من كل جانب، وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنقات والزحف إلى يوم الجمعة، ثم يسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم، وغنم جميع ماكان فيها،

ذكر فتح شفر

ولما تحصنت الفرنج بقلعة شفر، وهي قلعة شاحخة منيفة، خيم السلطان بخيمة خفيفة الى الجبل لحصار القلعة فحاصرها في الثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الثلاثاء، ثم سلم السلطان حصن بكاس وحصن شفر الى غرس الدين قلع الساقى.

وفي النوادر: وكان لبكاس قلعة تسمى الشفر قريباً منها، يعبر اليها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأوا أنهم لناصر لهم، فطلبوا الامان، وذلك في يوم الثلاثاء، وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، فأذن السلطان في ذلك، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعها يوم الجمعة السادس عشر منه، بعون الله تعالى وفضله.

ذكر فتح سرمانية:

ولما فتح السلطان حصن شفر، أرسل ولده الملك الظاهر صاحب حلب، فحاصر سرمانية وأخذها بالامان، وهدم الحصن وعفى أثره.

وفي النوادر: أرسل صلاح الدين ولده المذكور الى قلعة تسمى سرمانية، يوم السبت سابع عشر جمادى الآخرة فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور، فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع، وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان رحمة الله عليه حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، ولم يتفق مثلها في تاريخ، وكان في هذه الحصون المذكورة من أسرى المسلمين عدد لا يحصى، فأطلقوا وأعطوا النفقة والكسوة.

ذكر فتح حصن برزية:

ثم سار السلطان من شغلر إلى برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الأفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو تلها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً.

وقال العماد: وكان وصول السلطان إليها يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وملكها يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

قال: فأحدقنا بها وبالجبل ونصبنا عليها المجانيق في سفحها، ولما رأى السلطان أنه لا وصول إليها بالمجانيق، وأن الاشتغال بها يطيل الزمان، مال إلى الزحف، فقسم الناس ثلاثة أقسام، وجعل النوبة الأولى لعماد الدين زنكي صاحب سنجار، والملك العادل، وتقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية، واشتد القتال، وضاق بها الحال، ولما أيقنوا بأنهم ملكوا طلبوا الأمان، وكفوا عنهم، وكانت زوجة صاحب حصن برزية أخت زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سييت وخييت، فما زال السلطان يطلبها حتى أظهروها وأحضروها فمّن عليها بالاعتاق، وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم، وأدخلهم معها في الإطلاق وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على أهلهم، فسرت زوجة الابرنس بأختها.

وفي المرأة: وكانت زوجة صاحب حصن برزيه عين للسلطان على الفرنج، والسلطان كان يرى إليها ويلطفها، ولما فتحت القلعة أسرها السلطان وزوجها وأولادها، فأحسن إليهم وأطلقهم، وبعث معهم من أوصلهم إلى أنطاكية، فزادت محبتها للسلطان ومناصحتها له، وأنعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين المذكور عن قريب.

ذكر فتح قلعة دربساك:

ولما رحل السلطان من حصن برزية عبر من عند شقيف دركوش إلى شرقي العاصي، وجاء إلى جسر الحديد، وأقام هناك أياماً حتى تلاحق به العسكر، ثم سار إلى دربساك، ونزل عليها يوم الجمعة الثامن من شهر رجب وهي قلعة منيعة مرتفعة، وهي عش الداوية، وقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وأمر بالنقب تحت برج، وتمكن النقب منها حتى وقع، وحموه بالرجال المقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها.

قال صاحب النوادر: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عرض الجدار مكشوفين إلى أن اشتد بهم الأمر حتى طلبوا الأمان فأمنهم السلطان، وشرط عليهم أن ينزلوا بأنفسهم وبشباب أبدانهم لا غير، فعند ذلك رقا عليها العلم الاسلامي يوم الجمعة أيضاً الثاني والعشرين من رجب وأعطاهما لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم سار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من رجب متوجهاً إلى بغراس.

ذكر فتح قلعة بغراس:

وهي قلعة منيعة على رأس جبل شامخ قريبة من أنطاكية، كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها وصعد السلطان في جريدة عسكره إلى الجبل، ووقف بازاء الحصن، فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته، وعين يزكاً لجانب انطاكية كيلا يحصل التشويش من جهة انطاكية، فضرب اليزك على باب انطاكية بحيث لا يقدر أحد أن يخرج منها.

وقال صاحب النوادر: وأنا كنت في اليزك في بعض الايام، ولم يزل السلطان يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة حتى ضاق بهم الحال، فخرج

مقدم الداوية يستأذنه في الحضور، فأذن له، ولما حضر طلب الامان فأمّنهم السلطان على حكم دريساك، ورقا العلم السلطاني عليها في الثاني من شعبان، ثم سلم السلطان قلعة بغراس لعلم الدين سليمان المذكور آنفاً، فتسلم الحصنين: دريساك وبغراس، وكان علم الدين هذا صاحب أعزاز وتسلمها بذخائرها، ووجد في بغراس خاصة من الغلة اثني عشر ألف غرارة، سوى مافيه من سائر الاقوات.

ذكر مهادنة صاحب انطاكية:

ولما فرغ السلطان من أمر بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية، وكان الابرنس صاحبها عجل بارسال أخي زوجته يسأل من السلطان المهادنة والصلح على أن يطلق كل أسير عنده، وأجابه السلطان إلى ذلك، ووقع الصلح إلى ثمانية أشهر، وكان الابرنس هذا من أعظم ملوك الافرنج في هذه البلاد، وكان أهل اطرابلس سلموا إليه اطرابلس أيضاً بعد موت القومص صاحبها، وجعل الابرنس ابنه في اطرابلس.

وقال صاحب النوادر: وكانت هدنتهم إلى سبعة أشهر على أنه إن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلدان إلى السلطان رحمه الله.

ذكر رحيل السلطان متوجهاً إلى دمشق:

لما فرغ السلطان من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية رحل قاصداً الشام، فأتى حلب ودخلها في حادي عشر شعبان، ثم أعطى دستوراً للعسكر، وودع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بعد أن أنعم عليه بأنواع التحف والامتعة والدواب، ويقال إنها دخل السلطان حلب لأن ولده الملك الظاهر سأله ذلك، فأتاها وأقام بقلعتها ثلاثة أيام، وولده يقوم بالضيافة حق القيام، ولم يبق من العسكر إلا من ناله شيء من نعمته، وبالغ في ذلك حتى أشفق عليه والده، ثم سار السلطان

من حلب في رابع عشر من شعبان قاصداً دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، واصطنع له طعاماً حسناً، وأحضر له سماع الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية، ثم سار على طريق بعلبك حتى أتاه، وأقام بمرجها يوماً ودخل إلى حمامها، ثم سار منها حتى أتى دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة، فأقام بها حتى دخل رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكن، وكان قد بقي له من القلاع القرية من حوران التي يخاف عليها من جانبها: صفد وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال ابن كثير: ولما دخل السلطان دمشق أشاروا عليه بتفريق العسكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير، والاجل غير مأمون، فخرج من دمشق لغزوته في أوائل رمضان يريد صفد.

ذكر فتح صفد:

ولما خرج من دمشق أتى على صفد في أثناء شهر رمضان، وهي قلعة منيعة قد تقاطع حولها بالآودية، فأحرق العسكر بها، ونصب المجانيق، ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلموها بالآمان في الرابع عشر من شوال من هذه السنة.

ذكر فتح قلعة كوكب

ولما فرغ السلطان من أمر صفد سار إلى كوكب وعليها الأمير قايماز النجمي وقد ذكرنا أن السلطان خلاه عليها يحصرها، ونزل السلطان على سطح الجبل، وجرّد العسكر وأحرقوا بالقلعة وضايقوها بالكلية، وكانت الأمطار متوالية، والوحول كثيرة بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة كبيرة، وعانى السلطان شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار،

وكون العدو متسلطاً عليهم بعلو مكان، وجرح خلق من العسكر وقتل جماعة، ولم يزل السلطان راكباً مركب الجدد حتى تمكن النقب على سورها، ولما أحسوا بالنقب وقد تمكن علموا أنهم مأخوذون فطلبوا الأمان إلى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع كلها في صور.

وقال ابن كثير: وكان حصن كوكب معدن الاستارية، كما ان صفد معدن الداوية، وكانوا أبغض أجناس الأفرنج إلى السلطان، لا يكاد يترك منهم أحداً إذا وقع من المأسورين، ولما فتحت قلعة كوكب عرضها السلطان على جماعة فلم يقبلوها، وتولاها قايماز النجمي عن كراهة.

ذكر فتح الكرك:

لما كان السلطان سار إلى البلاد الشمالية جعل على الكرك وغيرها من حاصرها أخاه الملك العادل في تلك البلاد يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان، فأمر العادل المباشرين لحصارها بأن يتسلموها فتسلموا الكرك والشوبك وغيرها مما في تلك الجهات.

وقال العماد: وكان الملك العادل مقيماً بتبنين بالعسكر تحزراً على البلاد من غائلة الفرنج، مقوياً للامراء المرتين على الحصون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلًا وبأهله منكلاً، فتوسلوا بالملك العادل حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وكان فتح الكرك في أثناء شهر رمضان.

وفي تاريخ بيبرس: قد كان الملك الناصر صلاح الدين رتب على الكرك العساكر صحبة سعد الدين كمشبه، صهر الملك العادل فحاصروها ليلاً ونهاراً مدة حتى فنيت منها الأزواد، وأكل أهلها جميع

الحيوان الذي عندهم، فأذعنوا للتسليم وسلموا، وكفى الله المسلمين شرهم.

ذكر ما فعل صلاح الدين بعد هذه الفتوحات في هذه السنة:

قد ذكرنا أنه لما فرغ من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية توجه إلى دمشق، وجعل طريقه على حلب، وكان معه الأمير قاسم بن مهنا أمير المدينة، وكنيته أبو فليته الحسني، وكان ميمون النقيبة، مبارك الطلعة، وكان السلطان قد تيمن بطلعته، فما حضر معه بلداً إلا فتحه، ثم جعل السلطان طريقه على المعرة، فزار قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، والشيخ أبا زكريا المغربي.

وقال العماد الكاتب: ولما خرجنا من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قصد السلطان زيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي أبي زكريا المغربي، وكان مقيماً هناك، وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة، وكان القاضي الفاضل مع السلطان في هذه المواقف المذكورة، فكتب عن السلطان إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن يستدعيه إلى الشام لنصرة أهل الإسلام، فإنه قد عزم على حصار أنطاكية بنفسه، ويكون تقي الدين حاصراً طرابلس إذا نسلخ هذا العام، ثم عزم القاضي الفاضل على الدخول إلى الديار المصرية، فسار السلطان معه لتوديعه، ثم عدل السلطان إلى القدس الشريف، فصام فيه الجمعة وعيد فيه عيد الاضحى، ثم سار ومعه أخوه الملك العادل إلى عسقلان، ثم أقطع أخاه الكرك عوضاً عن عسقلان، وأمره بالانصراف ليكون عوناً لابنه الملك العزيز في الديار المصرية، على حوادث الزمان، ثم عاد السلطان فأقام بمدينة عكا حتى انسلخت هذه السنة.

وفي النوادر: وكان دخول السلطان بيت المقدس، وصحبه أخوه الملك

العادل في ثامن ذي الحجة من هذه السنة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة، وصليا صلاة العيد بها يوم الأحد، ثم عاد السلطان إلى خيمته، وأمضى بقية يومه، ثم سار يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة طالباً عسقلان لينظر في أحوالها ويودع أخاه، فأقام بها أياماً يلتمس شعثها، ويصلح أحوالها، وودع أخاه العادل، وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان، ثم عاد يطلب عكا على طريق الساحل، فأقام بها إلى أن مضى أكثر المحرم من السنة الآتية، ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة، ثم سار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا مدد حفظها، ودخل دمشق في مستهل صفر من السنة الآتية على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن طائفة من الرافضية بمصر خرجت يريدون أن يعيدوا دولة الفاطميين الذين حكموا في الديار المصرية والشامية وغيرهما، واغتنموا غيبة الملك العادل عن مصر، واستخفوا بأمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فبعثوا اثني عشر رجلاً ينادون في الليل: يا آل علي، على أن العامة تجيبهم إلى ما عزموا عليه، فلم يلتفت إليهم أحد، فلما رأوا ذلك انهزموا فأدركوا وأخذوا وقيدوا وحبسوا، ولما بلغ أمرهم إلى السلطان ساءه ذلك، وكان القاضي الفاضل عنده بعد، ولم يفارقه لاجل سفره إلى مصر، فقال له: أيها الملك ينبغي أن تفرح ولا تحزن، فإنه لم يصنع إلى دعوة هؤلاء الجهالة أحد من رعيتك ولا التفتوا إليهم، ولو أنك بعثت من قبلك جواسيس يختبرون رعيتك لسرك ما بلغك عنهم، فسرى به عنه ذلك، ورجع إلى قوله، ولهذا أرسله إلى مصر ليكون له عيناً وعوناً ومعيناً...

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

أسامة بن منقذ: وهو أبو المظفر أسامة بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبي الشيزري، الملقب مؤيد الدولة، مجد الدين، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم، له تصانيف عديدة في فنون الادب، وله ديوان شعر في جزئين، ذكره ابن المستوفي وأثنى عليه، وعده في جملة من ورد عليه، وأورد له مقاطيع من شعره.

وذكره العماد في الخريدة، وقال بعد الثناء عليه: سكن دمشق، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام بها حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فاستدعاه، وقد شيخ، فجاوز الثمانين، وقال العماد: وكنت أتمنى أبداً لقياه حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين، وسألته عن مولده فقال: يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بقلعة شيزر، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وتوفي والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وقال ابن خلكان: فرأيت ديوانه بخطه ونقلته منه:
لا تستقر جلدأعلى هجرانهم
فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم
طوعاً وإلأعدت عودة راغم

وقال: ونقلته من خطه لنفسه وقد قلع خرسه، وقال: عملتها ونحن بظاهر أخلاط، وهو معنى غريب يصلح أن يكون لغزاً في الخرس:
وصاحب لأمل الدهر صحبته
ليشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم ألقه منذ تصاحبنا حين بدأ
لناظري افترقنا فرقة الأبد .

ويروى: فذ وقعت عيني عليه افترقنا فرقة الأبد.....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين يوسف مقيم على عكا، والامر مستقيم، فوصل إليه جماعة من مصر، فأمرهم بالاقامة فيها محافظة على الحماية، وأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء السور وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا والياً، ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر من هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس أن السلطان قدم عكا في أول هذه السنة، والصحيح أن السنة دخلت وهو مقيم على عكا.

وذكر صاحب النوادر أنه كان مع السلطان، وأنه وصل إلى عكا في أواخر ذي الحجة من السنة الماضية، وأنه أقام بعكا معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم سار حتى دخل دمشق في مستهل صفر منها، وأقام حتى دخل ربيع الاول.

وفيه جاء رسل الخليفة إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى:

ذكر خروج السلطان صلاح الدين لأجل شقيق أرنون:

قال ابن كثير: أقام السلطان شهر صفر في دمشق، ثم خرج منها في ثالث ربيع الأول يوم الجمعة وأتى مرج برغوث، وأقام به إلى يوم السبت حادي عشر الشهر، ثم رحل على سمت بانياس، وأتى مرج عيون، وخيم

بقرب الشقيف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول، وكان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، فنزل إلى خدمة السلطان، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان فقال له في التسليم، فقال: لا يوافقني عليه أهل الحصن، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبس بها، ثم تحول السلطان من مخيمه إلى أعلى الجبل يوم الاربعاء الثامن من رجب لمحاصرة الحصن، ورتب له عدة من الامراء وأمرهم بملازمته في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه، وأجرى عليه حكم الحكيم.

وفي تاريخ بيارس: لما نزل إلى السلطان صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، أظهر الطاعة والمودة، وقال: أنا محب لك ومعتز باحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور ما بيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى فانهم عنده، وأشتهي ان تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم، وحيث أحرص أنا وإياهم إلى خدمتك ونسلم الحصن، وأكون في خدمتك، ونقنع بما تعطينا من اقطاع، فظن صدقه، فأجابه إلى ماسأل، وأقام بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب المدة، أعني مدة المهادنة التي بينه وبين صاحب أنطاكية، فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره وعساكر الشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء مدة الهدنة، وكان بلغه ان الفرنج اجتمعوا بمدينة صور، وما يتصل بهم من الامداد في البحر، وأن صاحب عسقلان الذي كان أسره ومن عليه اجتمع مع المركيس بصور وأنهم خرجوا في خلق لا تحصي، وكان يخشى أن يترك الشقيف وراء ظهره ويتقدم الى صور وفيها الجموع المتوفرة فتقطع الميرة عنه، وكان أرناط صاحب الشقيف يجتهد في تحصينه وتحصيل ما يقويه من الاقوات والسلاح، وبلغ ذلك الناصر فأحضره قبل انقضاء المدة فقال: تسلم الحصن، فاعتذر، وذكر ما ذكرناه الآن.

وقال صاحب النوادر: نزل صاحب الشقيف بنفسه، فما حسنا به الا وهو قائم على خيمة السلطان، فأذن له فدخل واحترمه وأكرمه، وكان من كبار الافرنج وعقلائها، وكان يعرف بالعربي، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده ثان، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وأنه يحب طاعته، وأنه يسلم المكان إليه من غير نقب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج، وكان قد تردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي أتى إليه، وكان كل وقت يناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه.

ذكر ما تجدد للسلطان مدة اقامته بمرج عيون من الاحوال:

وبلغه أنه اجتمع من كان سلم من الافرنج على ملكهم الذي خلاص من الاسر، وقالوا: نحن في جمع خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد من البحر فانقض بنا إلى ازالة هؤلاء عنا، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، فلم يمكنه من دخول البلد، ثم احتج أنه من قبل الملوك الذين من وراء البحار، وأنه منتظر لما يبرمونه من الامر، ثم اتفقوا على أن يقيم المركيس بصور، وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم، ويتساعدون على رم ما تشعث من أموالهم ويقصدون بلداً اسلامياً من الساحل والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع ما يحتاجون إليه من الميرة والاسلحة والعدد، ووصل هذا الخبر يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاولى من اليزك، قالوا: إن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر، وأنهم

على قصد صيدا للحصر، فركب السلطان في الحال، فقبل وصول السلطان التقت اليزكية بهم فكسرتهم، وأسروا منهم سبعة من سباعهم، واستشهد من الممالك الخواص أيبك الآخرس، وقد كان شجاعاً شهياً، وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان، وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك، وأقام الى يوم الاربعاء تاسع الشهر، وركب في ذلك اليوم ليطلع في الجبل على القوم، ولم يكن له نية القتال، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال، وتبعه خلق كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال، وعلى عزمه، وكان الفرنج قد بصروا بالقوم فطمعوا فيهم، ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا، وحمل عليهم العدو فأسروهم وقتلوهم وختم الله لهم بالشهادة، وحمل الحاضرون من الامراء والعسكر على الافرنج حملة واحدة، وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر، والحرب سجال، فيوم لنا ويوم علينا، ولم يكن لاولئك الفرقاء بقتال الفرنج دربة، ومن لقي الله بالشهادة وختم له بالسعادة الامير غازي سعد الدولة بن مسعود ابن البصارو، وكان شاباً شجاعاً، فلم يصب الكفار، من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة.

وفي النوادر: لما كان يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاول بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا، وهي الأرض التي نحن عليها، فركب السلطان وصاح الجاوش بالناس، فركب العسكر يريدون نحو اليزك، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر جماعة منهم الجسر، فنهض لهم اليزك الاسلامي، وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا، ورموا جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الآخرس، وكان شجاعاً بأسلاً مجرباً للحرب ممارساً، تقنظر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا

عليه فقاتلوه، ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته، وعاد السلطان من
الوقعة إلى مخيم ضرب له قريب المكان، وأقام هناك إلى يوم الاربعاء
تاسع عشر جمادى الاولى المذكور، وركب يتشوف على القوم على عادته
فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وأمر السلطان بردهم
فلم يرتدوا، وذلك لأن المكان كان صعبا ليس للرجالة فيه ملجأ، ثم
هجم الرجالة على الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم، وجرى
بينهم قتال شديد، واجتمع من الفرنج خلق كثير فحملوا عليهم حملة
واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيدا عنهم، ولم يكن معه
عساكر، وأسروا من المسلمين جماعة وقتلوا جماعة، وعدّ من كان قتل من
الرجالة في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً
عدة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية،
وكان عندهم عظيماً.

ذكر مسير السلطان جريدة إلى عكا:

ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين في تلك الوقعة البادرة جمع
أصحابه وشاورهم، وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ويعبر الجسر
ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا
قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ أو أزيد منه بشيء يسير،
فلما صمم العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس السابع والعشرين
من جمادى الاولى على ذلك، وركب وسار وتبعه الناس المقاتلة
والعساكر، ولما وصل أواخر الناس إلى اوائلهم وجدوا اليزك عائداً،
وخيامهم قد قلعت فسئلوا عن ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى
صور ملتجئين الى سورها، معتصمين بقربها، ولما رأى السلطان ذلك
منهم، رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي
ويعود، فراح على تبين، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى الى عكا
ورتب أحوالها، وأمر بتتمة عمارة سورها، وأمر بالاحتياط، ثم عاد إلى

العسكر المنصور الذي بمرج عيون، وأقام منتظراً مهلة صاحب الشقيف.

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت السادس من جمادى الآخرة، بلغ السلطان أن جماعة من رجاله العدو يتبسطون ويصلون إلى تبين يحتطبون، وفي قلبه مما جرى على رجاله المسلمين شيء عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم ويأخذهم فيه، ثم بلغه أن ورائهم خيلاً يحفظونهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبين وتقدم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير مغيرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها، وأن يكون ذلك صبيحة يوم الاثنين الثامن من جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسيروا حتى يكونوا وراء عسكر العدو، حتى إن تحركوا في نصره أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين في السلاح متجردين ليس معهم خيمة إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبين، وسار حتى قطع تبين ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهر ويتأوشوهم وينهزمون بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يقدمهم الملك، وكان قد بلغهم الخبر، فتعبوا تعبئة القتال، وجرى بينهم وبين هذه السرية السيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الحرب بينهم إلى آخر النهار، ولم يرجع أحد منهم إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى، واتصل الخبر بالسلطان في آخر الأمر، وقد هجم الليل، فبعث إليهم بعوثاً كثيرة، ولما علم الفرنج بأوائل المدد عادوا منهزمين ناكسين على أعقابهم بعد أن جرت مقتله عظيمة من الجانبين، وكان القتلى من الفرنج على ما ذكره من حضر زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة نفر: اثنان من اليزك، وأربعة من

العرب، منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسناً مقدماً عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه، ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً فرسه، وأسره و ثلاثاً من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة، وكان للسلطان مملوك يسمى أيبك أثخن بالجراح، حتى اندس بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقدته أصحابه فلم يجدوه معرفوا السلطان، فأنفذ من يكشف خبره، فوجده بين القتلى فحملوه الى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر المذكور، منصوراً فرحاً مسروراً، جزاه الله خيراً

وقال ابن كثير: وقتل مع زامل أمير العرب، الأمير حجي بن منصور ابن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن مري بن ربيعة، وآخر معهم.

ذكر ركوب الأفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان إلى قبالتهم:

ولما وصل الخبر إلى السلطان أن العدو قد ركب نحو عكا، وذلك يوم الأربعاء ثامن رجب - وكان قد اجتمع بصور من أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان خلق عظيم حتى صاروا في عالم لا يحصون كثرة وأرسلوا إلى البحر ييكون ويستنجدون، وصورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة، وساروا إلى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب، وضايقوا عكا، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريباً من الأفرنج بمرج عكا على تل كيسان.

وقال صاحب النوادر: كتب السلطان إلى سائر أرباب الأطراف بأن يتقدموا إلى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم، وقال: سار السلطان بالليل، وأصبح صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سائراً إلى عكا من طريق طبرية، إذ لم يكن ثمة طريق تسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبين يستطلعون العدو ويواصلوه بأخبارهم.

قال: وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له منية صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب، وفيه بلغنا أن الأفرنج نزلوا على عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وسار هو جريدة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذهم على طريق تبين، بمرج صفورية، فإنه كان واعدهم إليه، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث بعثاً بعد بعث حتى حصل فيه خلق كثير وعدد وافر، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً، وسار من الخروبة، وقد كان نزل عليها يوم الاربعاء خامس عشر الشهر، فسار منها حتى أتى تلاً يقال له تل كيسان في أوائل مرج عكا، وأمر الناس أن ينزلوا على هذه التعبئة، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة يقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخدول، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت، ورتب اليك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد إلا ويجرح أو يقتل، وكان معسكر العدو المخدول على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، ومددهم من البحر لا ينقطع، وجرى بينهم وبين اليك مقاتلات عظيمة متواترة والبعوث تتواصل من المسلمين والملوك والأمراء من الأقطار متتابعة، فأول من نزل ووصل الأمير الأجل الكبير تقي الدين صاحب حماه في

جحفله، وتتابع الامراء والعساكر الاسلامية، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الخلاطي بأسهال شديد، فأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، فإنه كان شجاعاً ديناً، ثم إن الفرنج تكاثروا واستفحل أمرهم واستداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها وذلك يوم الخميس سلخ رجب، فلما رأى السلطان ذلك ضاق صدره وثارته همته العالية لفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فاستحضر أمرائه وأصحاب الرأي وشاورهم في مضايقة القوم، واتفقوا على أن يضايقوا بحيث ينفصل الامر بالكلية او يفتح الطريق إلى عكا.

ذكر قيام الحرب لاجل فتح الطريق:

ولما أصبح نهار يوم الجمعة مستهل شعبان من هذه السنة أصبح السلطان على عزم القتال، فرتب عسكره ميمنة وميسرة وقلباً واتفقوا على أن تكون الملاقاة وقت الصلاة والخطباء تخطب، وهو وقت قبول الدعوات، فحملوا حملات عظيمة وهم كالسور المحيط مافيه متسلق، والمسلمون كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، فلم يتحرك الملاحين يوم من موضعهم، ودامت الحرب بينهم وكلما قتل واحد وقف آخر مكانه حتى دخل الليل وحجز بينهم، فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا، واشتدت الحرب أكثر مما كان، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا، فلم يكن هناك خيم، لكن عساكرهم ممتدة من كل ناحية، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فانهزموا الى تل المصلين نحو القبة، وأخلوا ذلك الجانب، وأصبح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جدده، وصار الطريق مهيئاً يمر فيه السوقي ومعه الحوائج، ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان رحمه الله في ذلك اليوم عكا، وركب على السور ونظر إلى عسكر العدو، وفرح المسلمون بنصر الله، وخرج

العسكر الذين كانوا بها الى خدمة السلطان، ثم استدار العسكر الاسلامي حول عسكر الافرنج وأحدقوا بهم من كل جانب.

ذكر الوقعة العظمى:

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من شعبان من هذه السنة برزت الافرنج بأجمعهم وضربوا مع السلطان مصافاً، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج، واشتغلوا بقتال الميمنة، فصاح السلطان: يا لاسلام، فركبت الناس بأجمعهم، وحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان كل واحد من المسلمين قتل أربعين أو خمسين من الفرنج، وكان قتلى الفرنج تقدير عشرة آلاف، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية، وبعضهم وصل الى دمشق، ولم يكن وقف من المسلمين ثابتين نحو ألف نفس، فردت مائة ألف، وجافت الارض بعد هذه الوقعة من قتلى الفرنج، فلحق السلطان مرض، وحدث له قولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان الى الخروبة، فلما رحل السلطان تمكن الفرنج حيثئذ من حصار عكار، وانبسطوا في تلك الارض، ولم يعلم السلطان أن ذلك كان من أكبر المصالح للعدو المخذول فإنهم اغتتموا هذه الفترة فحفروا حول خيمهم خندقاً يجمع جيشهم من البحر الى البحر محديقاً، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً، وجعلوا له أبواباً يخرجون منها إذا أرادوا، وتمكن الأمر وقوي الخطب.

وقال صاحب النوادر: واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك، وبين يديه الانجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطى، يمسك أربعة أنفس أطرافه، يسرون بين يدي الملك، وامتدت

الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى آخرها ، وكذا امتدت ميسرتهم في مقابلة ميمنة المسلمين الى آخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر ، والسلطان رحمه الله رتب عسكره في مقابلتهم ، فوقف هو في القلب ، وفي الميمنة ولده الملك الافضل ، ثم ولده الظاهر ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قاياز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو مظل على البحر ، واما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي المشطوب وعلي بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكرارية ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج ورسالان بغا ، وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ، وفي مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه .

وهذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه ، يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النوال ، ويرغبهم في نصرة دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً ، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً ، فأيده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ثم جاءت منهم حملة على عسكر ديار بكر ، وكانت بهم غرة عن الحرب ،

فلم يصبروا وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى كسرهم إلى انكسار معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضيه ، وصعدت طائفة منهم إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك ، وفي هذا اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة ، وأما الميسرة فإنها ثبتت ، فإن الحملة لم تصادمها ، وأما السلطان فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم بالاسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الاطلاب ويحرق الصفوف ، ثم أوى الى تحت التل الذي كان عليه الخيام وأما المنهزمون فإنهم بلغوا الى الاقحوانة فقطعوا جسر طبرية ، وقوم وصلوا إلى دمشق ، وأما المتبعون فاتبعوهم إلى العياضية ثم رجعوا عنهم ، وقتلوا في الطريق جماعة من الغلمان والخريندية والساسة المنهزمين ، ثم جاءوا على رأس السوق فقتلوا جماعة ، وقتل منهم جماعة أيضاً ، فإن السوق كان فيه خلق عظيم ولهم سلاح ، ثم لما رأوا أن الميسرة الاسلامية ثابتة علموا أن الكسرة لم تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم ، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفريسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، ولما رأهم نازلين من التل أرادوا لقاءهم فصبرهم السلطان إلى أن ولوا ظهورهم ، فحملوا عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتراجع الناس من كل جانب فنصر الله الاسلام ، وظل الناس في قتل وضرب وجرح الى ان اتصل المنهزمون الى عسكر العدو ، ثم رجع الناس عنهم السالمون بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى وهم فرحون ومسرورون ، وعاد السلطان إلى خيمته في ذلك اليوم فرحاً مسروراً ، فافتقدوا المسلمين فكان مقدار ما فقد من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً ، ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ، وكان قد وقع من فرسه وقتل عليه جماعة من أقاربه ، وقتل أيضاً الامير مجلي ، هذا الذي قتل من المسلمين ، وأما في العدو فحزر سبعة آلاف نفر.

قال الراوي: ورأيتهم قد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه فحزرتهم

بدون سبعة آلاف، ثم إن السلطان سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين من المسلمين حتى ردوا البعض من عقبة فيق، وكان الغلمان والحواشي نهبوا أموال الناس، فأمر السلطان بجمع ذلك كله، وأمر بالنداء بالوعيد والتهديد، فأحضروا شيئاً كثيراً حتى صار بين يدي السلطان مثل التل، ثم أمر بردها على أصحابها، وصار من عرف شيئاً واعطى علامته أعطاه، وكان ذلك يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان، ثم تحول السلطان الى موضع يقال له الخروبة، وهو موضع قريب من مكان الوقعة، ونزل هناك يوم السبت الرابع والعشرين منه، ثم في سلخ الشهر استحضر أعيان عسكره وقال: اعلموا أن هؤلاء الكفار قد نزلوا في بلادنا، ووطئوا أرض الاسلام، ولا بد من الاهتمام بقلع هؤلاء، والله قد وجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة نتنظرها سوى الملك العادل، وهو واصل انشاء الله، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءهم مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليتكلم كل منكم ماعنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية، فامتحضت الآراء، ثم اتفقت على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة لتراجع أنفسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب واستولى على نفوسهم الضجر، ولهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك، ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي، فوافقهم السلطان على ذلك لكونه قد حصل له مرض من كثرة ما حمل على قلبه، وماعاناه من التعب، وحمل السلاح، فأقام هناك ينتظر أخاه الملك العادل إلى يوم الاثنين عاشر رمضان، ثم إن السلطان أرسل الى مصر يطلب أخاه العادل ويستعجل الاسطول، فوصل إليه الاسطول في خمسين قطعة مع الامير حسام الدين لؤلؤ، وكان مظفراً شجاعاً، وظفر ببطسة للفرننج فأخذها ودخل بها إلى عكا، فقويت قلوب المسلمين لذلك، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر في منتصف شوال.

وقال العماد: وكان وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء عشر من ذي القعدة في المراكب المستعدة بالبأس والشدة، وكانت عدته خمسين شينياً، فأول ماظفر الاسطول المنصور بشيني للفرنج عظيم الشأن، فقتل مقاتلته، فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة واسعة، وتفرقت سفن الفرنج أيدي سباً في مدة هذا الحصار، ووصل إلى الافرنج في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنات الوجوه، اجتمعن من الجزائر، وسبلن أنفسهن لله تعالى بزعمهن، والتزمن أن لا يمنعن أنفسهن ممن أراد بطانتهم من مقاتلي الفرنج، وزعن أن هذه قرية للمسيح مافوقها قرية لاسيا إذا كان ممن اجتمعت فيه عزبة مع اقدام على القتال.

ذكر وصول خبر ملك الالمان لعنه الله:

وفي رمضان من هذه السنة وصل من حلب كتب من ولده الملك الظاهر غازي يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الالمان قد خرج إلى قسطنطينية في عدة عظيمة، قيل مائتا ألف، وقيل مائتان وستون ألفاً يريدون البلاد الاسلامية، وقيل إنهم في ثلاثمائة ألف مقاتل، وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع، وجاءت كتب أيضاً من صاحب قلعة الروم، مقدم الارمن يبدي نصيحة واشفاقاً وتخوفاً على البلاد واحترافاً، ويقطع ان الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عشرة، وأبرق في كتبه وأرعد، وأبدع بخطابه وأبعد، ولاشك إلى دينه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا الخبر كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، واشتد ذلك على السلطان، وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام الخليفة بذلك.

قال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم صاحب النوادر: استندبني السلطان لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب

سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى بغداد لاعلام الخليفة الناصر لدين الله.

قال: وكان مسيري في الحادي عشر من رمضان من هذه السنة ويسر الله الوصول إلى الجماعة المذكورين فأجابوا، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة، وسار ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة بنفسه يجر عسكره، وسير صاحب الموصل عز الدين ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره.

قال: وحضرت الديوان السعيد ببغداد، وأعلمت الخليفة بذلك، ووعد بكل جميل، ثم عدت إلى خدمة السلطان وكان وصولي إليه يوم الخميس خامس ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة، وكانت العساكر قد تجهزت فسبقتهم وعرفته باجابتهم بالسمع والطاعة، وتأهبهم للمسير، فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً، وانسلخت هذه السنة والحال على ما هو عليه، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه في محرم أمر الخليفة أن يعهد إلى ولده أبي نصر، وأن أمير المؤمنين أنعم النظر للمسلمين بتفويض عهده والإمامة من بعده إلى ولده عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد، لما علم من عقله الراجح وهديه الواضح، وبعث الخليفة مع ضياء الدين عبد الوهاب بن علي الصوفي، ويعرف بابن سكيّنة، نسخاً إلى صلاح الدين في الخطبة، وبعث إلى جميع الآفاق، فالتقاء السلطان وخطب له على المنابر، وكان الخطيب بدمشق عبد الملك بن زيد الدولعي، وبعث السلطان جواب الرسالة مع ضياء

الدين بن الشهرزوري، وبعث معه بصليب كان على صخرة بيت المقدس، فجعل على باب النوبي تطأه الاقدام ويهان، وهو بحاله إلى هلم جرا.

وقال ابن كثير: وفي صفر قدم من جهة الخليفة رسل يعلمون صلاح الدين بولاية العهد إلى عدة الدين الملقب بالظاهر ابن الامام الناصر لدين الله، فأمر السلطان الخطيب دمشق أن يخطب له بعد الخليفة، فخطب يوم الجمعة ثالث صفر، ونثر عليه الدنانير والدراهم، ثم جهز السلطان مع الرسل تحفاً عظيمة وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج على هيتهم في حال حربهم، وأرسل بصليب الصليبوت ودفن تحت عتبة باب النوبي من دار الخلافة فكان يداس بعدما كان يقبل ويياس، وصار يصبق عليه بعدما كان يسجد عليه، وكان هذا الصليب من نحاس مطلياً بالذهب.

ومنها أن السلطان صلاح الدين ولى دمشق بدر الدين مودود أخا العادل لأمه شحنة دمشق.

ومنها أنه في جمادى الاولى ولد للملك العزيز ولد سماه محمداً، ولقبه ناصر الدين، وهو الذي اجتمع عليه أصحاب العزيز عند موته سنة خمس وتسعين وخمسة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان ملازماً للسلطان صلاح الدين يوسف حتى توفي في ركابه، وكان ممن تفقه على الشيخ أبي القاسم البزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والامراء الكبراء.

وقال العماد: توفي الفقيه عيسى بمنزلة الخروبة سحرة يوم الثلاثاء
تاسع ذي القعدة لسنة خمس وثمانين وخمسمائة، وحمل من يومه إلى
القدس فدفن به، وكان من الاعيان، ومن مقربي السلطان.

وفي المرأة: وكان لقبه ضياء الدين، وحضر فتوح القدس والفرات،
وكان صلاح الدين يحبه ويحسن الظن به ويستشيريه، وكان الله قد أقامه
لقضاء حوائج الناس، ويفرج عن المكروبين مع الورع والفقه...

الأمير موسك بن جلودا والد الامير عماد الدين داود بن موسك، ابن
خال السلطان صلاح الدين، حفظ القرآن وسمع الحديث وكان محسناً
إلى الناس يقضي حوائجهم ويتلطف بهم، وكان ملازماً للسلطان في
غزواته لم يتخلف عنه في مشهد منها، وكان ديناً صالحاً جواداً مرض
بمرج عكا مرضاً شديداً، فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق يتطبب،
فجاء إلى دمشق فتوفي بها ودفن بقاسيون رحمه الله، وكانت وفاته في
شعبان من هذه السنة.

الأمير حسام الدين طمان - صاحب الرقة - كان شجاعاً جواداً
محسناً محباً للخير، كثير الصدقات مائلاً إلى العلماء والفقهاء، بنى مدرسة
بحلب لاصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان السلطان صلاح الدين
يحبه، ويعتمد عليه، ولما احتضر والسلطان في مقابلة الافرنج، طلب
حصانه وزرديته ليركب ويشهد من حرصه على الغزاة، فلم يقدر
لضعفه، فجعل يبكي ويتأسف على موته على فراشه، وكان من شجعان
المسلمين، توفي في ليلة النصف من شعبان، ودفن في تل العياضية، وحزن
السلطان والمسلمون عليه.

الأمير سنقر الخلاطي: توفي في ليلة الاثنين السابع والعشرين من
رجب من هذه السنة، وذلك أيضاً حين كان السلطان على عكا رحمه
الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسultan صلاح الدين مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة، وعكا محصورة، وجموع الفرنج على حصارها محشورة، وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع خلق كثير لان القتال لم ينقطع والتوقع لم يرتفع.

ذكر وقعة الرمل:

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يركب أحياناً للصيد، ولكن لا يبعد من المخيم، وركب يوماً في صفر على عادته، فتصيد وطاب له الصيد فأبعد، واليزك على الرمل وساحل البحر من الميسرة على حذرهم واحتياطهم فإذا الفرنج خرجوا في عدد لا يحصى وقت العصر فتسمع المسلمون، فزحفوا إليهم، وحملوا عليهم وطردهم إلى خيامهم من خلفهم وأمامهم، ولم يزل بينهم حملة وردة ورمية حتى فني الشاب، فلما علم الفرنج بذلك حملوا حملة واحدة ردوا بها المسلمين إلى النهر، فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، فوقع بينهم قتال عظيم واستشهد جماعة من الشجعان وذلك لانهم ردوا الفرنج إليهم فلقوا فرساناً وصرعوا شجعاناً، ونزلوا واشتغلوا بالغنيمة، فحملت الفرنج عليهم حملة منكرة، فأشغلتهم عن الوثوب والانتهاض، وأظلم الليل، وافترق الفريقان عن قتلى، وكان ممن استشهد من المسلمين الحاجب ايدغمش المجدي رحمه الله ومملوك للسلطان كان يدعى أرغش، وكان خيراً صالحاً، ومن عجائب هذه الواقعة أن مملوكاً للسلطان يسمى قرا سنقر كان من الأبطال المشهورين عشر به جواده فصار راجلاً، فقبض

عليه من أسره وسحبه من شعره، وجاء آخر وسل سيفه عليه ليضربه،
فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتد يعدو وهم يعدون وراءه ليقتلوه،
وفاتهم بعون الله تعالى.

ذكر فتح شقيف أرنون:

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم صلاح الدين بالامان
شقيف أرنون، وكان الحصار مستمراً عليه من السنة الماضية، وكان
السلطان حبس صاحبها أرناط في دمشق على مافصلناه، فلما تسلم
السلطان شقيف أرنون أفرج عن أرناط، وصار الى صور، وكان هذا من
أدهى الفرنج وأخبرهم بأيام الناس، كما قرأ في كتب الحديث وتفسير
القرآن، ومع هذا كان غليظ الجلد كما في القلب قبحه الله.

وفي النوادر: لما كان التاريخ المذكور علم الفرنج المستحفظون
بالشقيف أنه لاعاصم لهم من أمر الله، وأنهم أخذوا عنوه، فطلبوا
الامان، وكانوا علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد العذاب،
فاستقرت القاعدة على أن يطلق صاحبهم وجميع من فيه من الفرنج،
ويترك مافيه من أنواع المال والذخائر، فأمنهم السلطان على ذلك
وسلموا الشقيف، وعاد صاحبهم والفرنج الذين كانوا به إلى صور.

ذكر حال عكا وكيفية الوصول إليها:

كان السلطان قد قوى عكا بتسيير الغلات والاقوات إليها، وملأها،
بالذخائر والاسلحة، ثم لما انقضى الشتاء وانفتح البحر، وحان زمان
القتال كتب السلطان إلى العساكر يستدعيهم من الاطراف، ولما تواصل
أوائل العساكر، وقوي جيش الاسلام رحل السلطان رحمه الله نحو العدو
فنزل بتل كيسان، وذلك في الثامن عشر من ربيع الاول من هذه السنة،

ورتب عساكره، وكان خبر البلد قد انقطع عن السلطان، وامتنع عليه دخول البلد والمدد، فعند ذلك اشتد العوامون بالسباحة، وكانوا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، وكان أهل عكا يكتبون إلى السلطان، ويكتب السلطان إليهم على أجنحة الحمام ويعرف الاحوال بذلك.

وقال ابن كثير: فلما انحسر الشتاء وانكسر البرد، وانتشر الربيع أمر السلطان باجتماع العساكر وكانوا قد تفرقوا فتوافوا، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم، ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان، ثم رحل السلطان ونزل على كيسان في التاريخ المذكور، وترتبوا في النزول ميمنة وميسرة وقلبا، وكان الملك الافضل في أول الميمنة وأخوه الملك الظاهر في أول الميسرة.

ذكر وصول رسول الخليفة: لما كان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة وصل رسول من بغداد من عند الخليفة الناصر، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، وذلك في جواب رسالته مع ضياء الدين الشهرزوري، وأرسل الخليفة معه أحمالا من النفط والرماح الخطية، ومعه نفاطة متقنون لهذه الصناعة غاية الاتقان، ومرسوم بعشرين ألف دينار، وذلك في رقعة من الديوان العزيز تتضمن الاذن للسلطان في أن يقترض عشرين ألف دينار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز، فقبل السلطان جميع ماوصل واستعفى عن الرقعة.

وفي المرأة: ومع الرسول توقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة، فشق على السلطان، وقال: أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا

وأضعافه، وما أنا مضرور ، ورد عليه جميع ما جاء به، فأشار عليه بعض أصحابه بأخذ النفط للغزاة فأخذه، ورد التوقيع، وقال: يرحم الله العاضد وصل إليّ منه في عشرين يوماً بمقام الفرنج على دميّ ألف ألف دينار ومعها عروض.

ذكر وصول الأمراء:

وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الآخر قدم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صاحب سنجار بمن استنهضه من العساكر، في جمع عظيم، ولقيه السلطان وأكرمه غاية الأكرام، ورتب له العسكر في لقائه، فكان أول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه، ثم لقيه أولاده بعد ذلك، ثم لقيه السلطان، ثم سار حتى أوقفه على العدو، ثم عاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له سباطاً لا ثقاً به، فحضر هو وجميع أصحابه، وكان قد بالغ في إكرامه حتى بسط له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوباً أطلس عند دخوله، ثم ضربت له خيمة على طرف الميسرة عند جانب النهر، وقدم إليه عشرة من الخيول العربية، وخمس عشرة بقجة قماش.

ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجرشاه بن غازي بن مودود، صاحب الجزيرة، بعساكره الكثيرة، وذلك يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة، ولقيه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمة ضربت إلى جانب عمه عماد الدين، ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خسروشاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود، وذلك يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى، وكان أبوه أرسله نائباً عنه مقدماً على عسكره، ففرح السلطان بقدومه وتلقاه من بعد وأنزله عنده في خيمة ضربت له بين خيام ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر، وقدم له تحفاً سنية، وكان ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب والملك مظفر الدين بن علي كوجك،

صاحب حران، قدما قبل احتراق الابراج التي صنعها الافرنج.

وقضيتها أن البحر لما انفتح تواترت الافرنج والنصارى من كل جزيرة ينصرون أصحابهم ويمدونهم بالقوة والميرة، وعملت الافرنج ثلاثة أبرجة خشب وحديد عليها جلود مسقاة بالخل والخمر لئلا يعمل فيها النفط والنار، وطموا خندق عكا، وسحبوا الابراج على العجل إلى السور، فأقبلت أمثال الجبال، فأشرفت على البلد، وفي كل برج خمسمائة مقاتل، فأيس المسلمون من البلد، وقد حيل بينهم وبين السلطان، وركب السلطان والعساكر واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدرُوا ورماهم الزرقون الذين في البلد بالنفط، فلم يحترق منها شيء، فأهم أمرها المسلمين وكانوا عليها خائفين، فأعمل السلطان حيله وفكره في احراقها واهلاكها، فاستحضر النفاطين ووعدهم الاموال الجزيلة، فانتدب شاب نحاس من دمشق يعرف بعلي، عريف النحاسين، والتزم باحراقها واهلاكها، فأخذ النفط الابيض، وخلط إليه أدوية عرفها، وغلاه في ثلاث قدور من النحاس حتى صار ناراً تتأجج، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا، فأحرق الابراج الثلاثة باذن الله تعالى، حتى صارت ناراً لها ألسنة في الجو متصاعدة، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير واحترق في كل برج من مقاتلتهم سبعين كفوراً، ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان ٢٦] وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر فاحترقت في يوم واحد.

وفي المرأة: وكان هذا الشاب بعكا ليس له في الديوان اسم، وكان عارفاً بالنفط والحريق، وقال لقراقوش: انصب إليّ منجنيقاً أحرق هذه الأبراج، فقال له: قد عجز الصنّاع فمن أنت؟ فقال: قد عملت قدوراً لله تعالى، وأنا لا أريد منكم شيئاً، وما يضركم أن أرمي بها في سبيل الله فإن نفعت، وإلا فأحسبني واحداً منهم، فقال قراقوش: ما يضرنا ذلك،

ثم نصب له المنجنيق، وكان قد هباً تلك القُدور، فرمى قدرة واحدة في برج فاحترق بمن فيه، ثم فعل ذلك بالثاني والثالث، فكبر المسلمون، وسمع السلطان فكبر والعساكر وفرح قراقوش والأمراء وطموه بالخلع والاموال، فلم يأخذ شيئاً، وقال: أنا فعلت هذا لله تعالى ولم يأخذ عليه شيئاً من الدنيا، وكان السلطان أيضاً قد عرض عليه العطية السنية فامتنع من قبولها، وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه الله فلا أريد منكم جزاء ولا شكوراً.

ذكر وصول الاسطول من مصر:

وكان السلطان قد أمر بتعمير اسطول آخر من مصر، تصل فيه الميرة والذخير والعدد الكثيرة، فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول فركب السلطان في جحافله ليشغل الفرنج عن قتال الاسطول، وعمر الفرنج أيضاً اسطولاً، وصفوا شوانيه على البحر عرضاً وطولاً، وأرادوا أن يلاقوا الاسطول المنصور، فجاءت مراكب الموحدين ونطحت مراكبهم وطحنتها، وأخذ المسلمون لهم مركباً، وأخذ الافرنج للمسلمين مركباً وكان التقصير من الرؤساء، واتصل الحرب في البر إلى حين غروب الشمس، وعاد المسلمون مسرورين، وقتل من الافرنج عدد كبير لعنهم الله.

وقال القاضي بهاء الدين رحمه الله: التقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر، واضطربت نار الحرب، وباع كل فريق روحه براحته الاخروية، ورجح حياته الابدية على حياته الدنياوية، وجرى بين الاسطولين قتال شديد أفصح عن نصره الاسطول الاسلامي، وأخذ منه شيني وقتل من فيه، ونهب جميع مافيه وظفر العدو أيضاً بمركب كان واصلاً من قسطنطينة، ورحل الاسطول المصري إلى عكا، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن حجز بينهما الليل، وقد قتلوا من

الافرنج خلقاً كثيراً، إلا أنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع في البحر والبر، ومن داخل عكا.

ذكر قصة ملك الالمان:

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج، وأنه وصل بجمعه إلى مضائق صعب عليه العبور، فقبل إنهم أقاموا في قفار ومواضع صعبة شهراً عذبوا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً، وكان التركمان الأوجية على طريقهم يمنعون شريعتهم، فاضطروا إلى المقام بغير زاد، فصاروا يذبحون خيولهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها، فترجلت منهم ألوف، وكان ذلك في البرد الشديد وزمان الثلج والجليد، وعذبوا الدواب لحمل الاثقال، ونقلوا عدد الرجال فدفنوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأحرقوا منها، وكان ظنهم أنهم إذا عادوا أخذوا مادنوه، فأخذ المسلمون مادنوه، وكانوا في عدد كثير، فما أثر فيهم ذلك ولا كسرهم عن مقصدهم ومازالوا يسرون حتى بلغوا إلى بلاد صاحب الروم قونية وغيرها وهو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن (سليمان بن) قتلش بن سلجوق.

وفي المرأة: وكانوا في ستمائة ألف مقاتل جاءوا من فرنجة، فخاف منهم ملك القسطنطينية فقالوا له: لا تخف نحن ماجئنا إلا لنخلص القدس وصليب الصليبوت، ونملك بلاد المسلمين، وكان بين السلطان صلاح الدين وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى السلطان بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة وجواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع في قسطنطينية، وكانت الخطبة أقيمت وأكرم الرسول أكراماً زائداً، وكان السلطان قد أنفذ مع الرسول خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً، ولما رقا

الخطيب المنبر حضر هناك جمع كثير من التجار والمسلمين مقيمين بها، وأقام الخطيب الدعوة العباسية وبعد ذلك كله جاء رسول صاحب القسطنطينية الذي ذكرناه ومعه ترجمان يترجم، وهو شيخ حسن الوجه وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب مختوم بالذهب دون عرض كتاب بغداد مترجم في ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجه وضع فيها الختم من الذهب المطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع، وعلى الختم صورة الملك وصورة السطرين المذكورين:

«من ايتاكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله، المنصور العالي أبداً، فقتوس المدبر من الله، القاهر الذي لا يغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس.

إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين».

وأما الذي في باطن الكتاب فإنه يتضمن اظهار المحبة والمودة، ثم ذكر خبر ملك الالمان، وقال: «لا تحمل على قلبك منهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم، وإنهم قد خسروا كثيراً من الاموال والدواب والرجال وبلغوا بالشدة، وقد تخلصوا من أجناد بلادي بالغصب، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً في شدة بعد شدة».

وأكرم السلطان رسوله وأقام بحقه كما هو العادة بين الملوك.

ووصل أيضاً كتاب إلى السلطان من مقدم الارمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات، وصورته: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس: مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين، سلطان

الاسلام والمسلمين آدام الله إقباله وضاعف جلاله وصان مهجته وكماله،
وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله.

وأما أمر ملك الالمان فإنه دخل بلاد الهنكر غصباً، وأذعن له ملك
الهنكر ودخل تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار، ثم إنه دخل
أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك
الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفرًا من خالصائه،
وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فضة، وثياباً طلساً، مبلغاً
عظيماً، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى
أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، ورد الرهائن، وبقي سائراً
ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع
فداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع بينهم وبين التركمان،
وضايقهم التركمان ثلاثة وثلاثين يوماً، ثم ذكر ما وقع بينه وبين قليج
أرسلان على ما ذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر ماجرى بينهم وبين قليج أرسلان:

ولما وصلوا إلى بلاد قليج أرسلان، وكان مملوكاً من ولده قطب الدين
ملكشاه، وهو يدبر أمره، عارضهم وتعرض لقتالهم وطاردهم ليضيق
عليهم، ثم اندفع من بين أيديهم، ودخلوا قونية، واعتصم قليج أرسلان
بقلعتها وتراسل هو وملك الالمان واتفقا بالموائيق والايان على أن يوافقاه
على العبور إلى الاقاليم الشامية والبلاد الاسلامية، وعلى أن يسير في بلاده
إلى بلاد لافون ملك الأرمن، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمراءه
ليكونوا معه حتى يصل إلى الماء، وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه،
وأقام لهم الاسواق، فساروا في رفق ورفاهية، ولما وصل الملعون إلى بلاد
الأرمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الظعائن، واحتج عليهم بأن
التركمان سرقوا منهم في طريقه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قربوا من قونية خرج إليهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان ليمنعهم، فلم يمكنه ذلك لكثرتهم، فراسله ملك الالمان، وأرسل إليه هدية وهادنه، وطلب منه من يسير معه إلى بيت المقدس، ثم سار إلى بلاد الارمن.

وفي المرأة: ولما دخلوا بلاد قليج أرسلان لم يكن له بهم طاقة، فاحتاج إلى مسالمتهم، وكتب إلى السلطان يعتذر بالعجز عنهم، وساروا طالين الشام، ووقع فيهم الوباء وبدوا بهم.

وذكر في النوادر: ولما قربوا من قونية، جمع قطب الدين بن قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به الملك، وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرجت إليه جموع كثيرة من المسلمين فردهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف، وقتل منهم عالماً عظيماً من المسلمين، وأقام بها خمسة أيام، فطلب منه قليج أرسلان الامان، فأمنه، واستمرت بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل ذلك وقبل منه.

وفي المرأة: ووصلوا إلى نهر طرسوس فتحصن منه ابن ليفون بقلعة من قلاعه لانه أرمني وهم روم.

قلت: التوفيق بين الكلامين أنه تحصن أولاً منه خوفاً، ثم طلب منه الامان فأمنه، ونزل إلى خدمته، وأقام بواجبه.

ذكر هلاك ملك الالمان:

لما وصل ملك الالمان الى طرسوس، اجتاز هناك بنهر شديد الجرية، فدعته نفسه الخبيثة ان يسبح فيه، فنزل وصار فيه، فحمله الماء إلى جذم

شجرة هناك ففشخت رأسه، وأخذت أنفاسه، وراحت روحه إلى الهاوية، وأراح الله المسلمين منه، وكان شيخاً مسناً.

وفي تاريخ بيبرس: ثم سار إلى أنطاكية، وكان في طريقهم نهر، فنزلوا عنده، فعبر الملك النهر ليغتسل فمرض فمات، وكفى الله شره.

وفي المرأة: أراد الملك أن يسبح في نهر طرسوس، وكان ماؤه بارداً، فنهوه، وقالوا: لاتفعل فأنت متعوب، فقال: لا بد من ذلك فسبح فيه، فأخذته الحمى، فأقاموا على النهر بسببه، فأوصى إلى ولده الذي كان في صحبته ومات فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوها في القدس.

وذكر صاحب النوادر: نزل على شط بعض الانهار، فأكل خبزاً ونام ساعة، وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج، وكان من أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

ولما شاهد لافون ملك الارمن هذا هرب وتحصن في بعض حصونه، واحتفى هناك.

ذكر إقامة ابن الملك مقامة:

ولما هلك اللعين المذكور أقيم ولده الاصغر في الملك بعده، وقد تمزق شملهم، وتفرق جمعهم.

وفي المرأة: ولما مات اختلفوا على ولده لانه كان له آخر أكبر منه، وكانوا يميلون إليه، فتأخر عنه أكثرهم، ودخل أنطاكية في جيش قليل.

وفي تاريخ بيبرس: وكان معه ولده فصيروه ملكاً عليهم، فاختلفوا

عليه، ومال بعضهم إلى أخيه، فسار فيمن بقي معه، وعرض جماعته، فكانوا نيفاً وأربعين ألفاً، ووقع فيهم الوباء، وتخطفهم عسكر حلب وغيرهم، ثم ساروا إلى طرابلس، فلم يبق منهم سوى ألف، ثم ركبوا البحر وقصدوا عكا، ثم أجمعوا على العود إلى بلادهم في البحر، فغرق بهم المركب، ولم ينج منهم أحد، وأرسل قليج أرسلان صاحب الروم يعلم السلطان صلاح الدين بذلك، وبلغ الفرنج هلاكه فأشعلوا النيران حزناً عليه.

وفي تاريخ ابن كثير: وأما ولد ملك الالمان فإنه مرض أياماً في بلد الارمن، وهلك أصحابه جوعاً، ووقع الموت في خيلهم، وحمل الملك وهو مريض، وساروا أمامه في ثلاث نوب لكثرتهم، ومعظم رجالتهم حاملين العصي وركاب حمير، وهم غير عارفين بالطريق، والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم، ووصلوا إلى أنطاكية وضاق بالابرنس صاحب أنطاكية ذرعاً، ولم يجد عنده مرتجى، وطلب منه القلعة فأخلاها له، ونقل ماله إليها وسأله أن يجعل طريقه على حلب، فخاف وأبدى الخلاف، وقبل وصوله إلى انطاكية قلت جموعه وجنوده، وبليت بحشد التركمان حشوده، واجتازت الفرقة الاولى منهم على بغراس من تحت قلعتها، فخرج رجالها عليهم على قلتهم، فأسروا منهم أكثر من مائتي أسير، وقيل إنهم حسبوا أن بغراس باقية على حالها بيد الداوية، فجاءوا إليهم سحراً بأحمالهم وأموالهم السنيه، فلم يشعر واليها إلا البغال على الباب واقفة، فخرج إليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب، وتخلّى عنها أصحابها لما عرفوا الحال، ولم يعرجوا على حرب، وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر، وحصل للابرنس صاحب انطاكية أموال كثيرة من الذخائر المودعة وغيرها، ثم سار هؤلاء الملاعين على طريق الساحل، فخرجت عليهم خيل اللاذقية وجبله وسقتهم أنواع العذاب، فجدوا السير حتى وصلوا إلى طرابلس وقد نقص نصفهم، وخاف الملك من المسير على الطريق لما افترقت جموعه، فركب البحر في عديسير لايزيد على ألف، واختلط مع

الافرنج على عكا، فسقط اسمه وبطل حكمه، وكذلك شأن من يكفر بالله.

وقال ابن كثير: وصل ملك الالمان في خمسمائة ألف مقاتل، وإن ملوك الافرنج كلهم كرهوا قدومه عليهم لما يخافون من سطوته، وزوال دولتهم بدولته ولم يفرح به إلا المركيس صاحب صور، الذي حرك هذه الفتنة وأثار هذه المحنة لعنه الله، فانه تقوى به وبكيده، وكان خبيراً بالحروب والقتال، وقد أحدث أشياء كثيرة، من آلات الحرب لم تخطر ببال أحد، منها أنه نصب دبابات أمثال الجبال تسير بعجل ولها زلوم من حديد ينطح السور فيكسر ويثلم جوانبه، فمن الله العليم باحراقها واتلافها، وأراح الله المسلمين مز شرها (٢٤)

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التي في طريق ملك الالمان:

لما تحقق السلطان صلاح الدين رحمه الله وصول ملك الالمان الى بلاد لافون، ملك الارمن، وقربه من البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفق الرأي على أن بعض العسكر يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور، فكان أول من سار صاحب منبج، وهو ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفرطاب وبعرين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب بعلبك، ثم سابق الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، ثم عسكر حماه، وسار ولده الملك الافضل إلى دمشق لمرض عرض له، ثم بدر الدين شحنة دمشق لمرض عرض له أيضاً، وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر إلى حلب لحفظ الطرق وكشف الاخبار، وسار بعد ذلك الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد، وكان آخر من سافر ليلة السبت التاسع

عشر من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة، ولما سارت هذه العساكر خفت ميمنة السلطان، فإن معظم من سار كانوا منها، فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميمنة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفى، ومرض بعده الملك الظاهر ولد السلطان وشفى، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم، إلا أن المرض كان سلباً بحمد الله، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، مع كونه مقروناً بموتان عظيم، وأقام السلطان رحمه الله مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو.

وفي تاريخ ابن كثير: عزم السلطان على استقبالهم بالرد، وصدهم عن القصد، ثم ثبت عزمه على أن يعود الذين لهم بلاد على طريق هؤلاء الملاحين، فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج، ثم فلان وفلان على ما ذكرنا الآن، ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبله، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة، ورتب السلطان منازل العسكر الحاضره على ما ذكرنا وتقدم، وهدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت.

وفي المرأة: وانقطعت أخبار عكا عن السلطان، فندب أقواما للسياحة وأعطاهم المال في أوساطهم والطيور في أعناقهم ليرووا الأخبار، فعلم بذلك الفرنج فاحترزوا بشباك نصبوها في الميناء، فإذا جاء سباح وقع فيها، فامتنع الناس، وبعث قراقوش يشكو قله الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا، فقال لهم: ارفعوا الصليبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج، ففعلوا ذلك، فخرج إليهم الفرنج في الشواني، فقالوا: نراكم قاصدين البلد؟ فقالوا: أو ما أخذتموه بعد؟ قالوا: لا، فقالوا ورائنا بطسة أخرى ردها عن

البلد، فذهبوا عنهم فردوا القلاع إلى البلد، ودخلوا إلى الميناء، وكبر المسلمون وامتاروا أياماً.

ذكر الوقعة العادلة:

ولما كان يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، علم عدو الله أن العساكر تفرقت في أطراف البلاد للعدو، وأن ميمنة السلطان قد خفت، أجمع رأيهم على أنهم يهجمون على طرف الميمنة بغتة، فخرجوا ظهيرة يوم الأربعاء، وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً، وانبثوا في الأرض، وكانوا عدداً عظيماً، واستخفوا طرف الميمنة، وكان في طرفها مخيم الملك العادل، فلما بصر الناس بهم خرجوا من خيامهم كالأسود من أجامها، وركب السلطان صلاح الدين رحمه الله ونادى مناديه: يالاسلام، وركبت الجيوش وطلبت الاطلاق، وكان السلطان أول راكب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة ولدها الثاكلة، ثم ضرب الكوس فأجابته كوسات الامراء من أماكنها، وركب الناس، وأما الفرنج لعنهم الله، فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتى وصلوا قبل استتمام العساكر حتى وصلوا إلى مخيم الملك العادل، ودخلوا في وطاقه، وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة، وقيل وصلوا إلى الخيمة الخاص، وأخذوا من شرابخاناته شيئاً، وأما الملك العادل لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قاياز النجمي، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام، ووقف وقوف مخادع حتى توغل بهم طمعهم في الخيم، واشتغلوا بالنهب من الاقمشة والفواكه والمطاعم، فعند ذلك صاح العادل بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولله الكبير شمس الدين، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، وهجموا على العدو

هجمة الاسود على فرائسها وأمكنهم الله منهم، ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هارين على أعقابهم، وسيف الاسلام يلتقط الارواح من الاشباح، ويفصل بين الاجساد والرؤوس، ويفرق بين الابدان والنفوس، ولما بصر السلطان بذلك نادى في الناس يالاسلام، يا أبطال الموحدين، هذا عدو الله قد أمكن الله منه، وقد داخلهم الطمع حتى غشيوا خيامكم، فكان من المبادرين إلى إجابته جماعة من مماليكه وخاصته، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنفر الحلبي، وتتابع العساكر وتجاوبت الابطال، ووقف السلطان في القلب، فعند ذلك قامت الحرب على سوقها.

قال الراوي: فلم يك ساعة حتى رأينا القوم ﴿صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة ٧] وامتدوا مطرحين، أولهم من خيام الملك العادل، وآخرهم عند خيامهم، وكانت المسافة بين المضربين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، وقتلى الافرنج مطرحين فيها ولم ينج منهم إلا النادر.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي فاجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد فيهم أربع نسوة يقاتلن، وأسرت منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير، فإن السلطان أمر أن لا يستبقى أحد، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة، فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الامر، وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر، وانفصلت الحرب بعد العصر، ولم يفقد من المسلمين في هذا اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، وأما أهل عكا فإنهم كانوا يشاهدون الواقعة من أعالي السور، فخرجوا إلى مخيم العدو، وجرى بينهم مقتله عظيمة، وكانت النصر للمسلمين، فأخذوا جمعاً من النسوان

والاقمشة حتى القدور فيها الطعام، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فقليل كانوا ثمانية آلاف وقيل سبعة آلاف.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها عند خيم العادل وآخرها عند خيامهم، ولقد رأيت انساناً عاقلاً جندياً يسعى بين الصفوف من القتلى ويعددهم، فقلت له: كم عددت؟ فقال إلى هنا أربعة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً، وكان قد عدّ صفين وهو في الصف الثالث، لكن ماضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي.

ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب، ومعه كتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الإسلامي من حلب وأخذوا عليهم الطريق فلم ينج منهم أحد إلا من شاء الله عز وجل، فضربت البشائر، ولم ير يوم أحسن منه، وجاء في بقية ذلك اليوم من اليكز قيماز الحراني، وذكر أن العدو قد سأل من يصل إليهم ليسمع منهم حديثاً في سؤال الصلح، لضعف حل بهم، ولم يزل أعداء الله من ذلك الوقت مكسوري الجناح منهاضي الجانب حتى وصل إليهم كند يقال له كندهري.

ذكر وصول الكندهري:

هذا كان ملكاً من ملوك الافرنج ومن أعيانهم، وصل في البحر في مراكب عدة ومعه من الاموال والذخائر والمير والاسلحة والرجال عدد عظيم، فقوي بوصوله جأش الافرنج وحدثتهم نفوسهم بكبس العسكر الإسلامي ليلاً، وكثر هذا الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس، فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل، وكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرجوا ويبعدوا عن خيامهم فيمكن الله منهم، ووافقهم السلطان على ذلك، فرحل إلى

جبل الخروبة بالعساكر بأسرها، وكان في يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ونزل بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة.

هذا والكتب متواصلة من عكا على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة منهم، وكان الكندهري المذكور قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على مائقل الجواسيس والمستأمنون ألفاً وخمسمائة دينار، وأعدده ليقدمه على البلد، ولما رأى المسلمون أنهم سلطوا على البلد المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها لا ليلاً ولا نهاراً، وذلك في أثناء رجب من هذه السنة، وضيقوا على البلد، حركتهم النخوة الاسلامية، واتفقوا على أنهم يخرجون فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم، وكان مقدم العسكر الاسفهلار الكبير حسام الدين أبو الهيجاء المقدم في الكرم والشجاعة، ووالي البلد وحارسه الامير الكبير بهاء الدين قراقوش، وفتحوا الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب، ولم يشعر الفرنج إلا والسيف فيهم حاكم، وسهم قضاء الدين فيهم نافذ، وتقدموا إلى أن ولجوا في خيامهم، ولما رأوهم كذلك ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها، فوصلت إليها شهب الزراقين والنفاطين حتى اضطربت فيها النيران واحترق منها ماشيدته الاعداء في المدة الطويلة في أقرب أوان، وقتل منهم في ذلك اليوم سبعون فارساً، وأسر خلق عظيم، وكان في جملة الاسرى رجل مذكور فيهم ظفر به شخص من آحاد الناس، ولم يعلم بمكانته ولما انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا، فعرف الذي عنده أنه رجل كبير، وخاف أن يغلب عليه ويؤخذ منه فسارع إلى قتله فقتله، وبذل الفرنج فيه أموالاً عظيمة، ولم يزالوا يسألون ذلك حتى رموا إليهم رأسه، فضربوا بنفوسهم الارض، وحشوا على رؤوسهم ووجوههم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة واستخفهم المسلمون بعد ذلك فهجموا عليهم من كل جانب، ولاسيما العرب،

فإنهم يذفون (٢٥) فيهم من كل ناحية يسرقون وينهبون ويأسرون ويقتلون، فأنحلت عزيמתهم وضعفت قواهم، ولاسيما لما أحرق المسلمون ذلك المنجنيق العظيم الذي صنعه الكندهري، كما ذكرنا.

ذكر وصول البطس من مصر:

كتب الأمير بهاء الدين قراقوش متولي عكا إلى السلطان في العشر الأول من شعبان من هذه السنة أنه لم يبق عندهم من المؤن مايكفيهم إلى ليلة النصف، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسره في نفسه ولم يبد له أحد، خوفاً من شيوع ذلك فيبلغ إلى العدو فيقوى على المسلمين، وتضعف القلوب، وكان قد كتب إلى أمير الاسطول بالديار المصرية ليتقدم بمسيره إلى عكا، فوصلت ثلاث بطس ليلة النصف فيها من الميرة مايكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي في صحبة الأمير لؤلؤ الحاجب، فلما أشرفت على الناس، تقدم إليها اسطول الفرنج ليحاجز عن البلد، ويتلف البطس، فاقتتلوا في البحر قتالا عظيماً، والمسلمون في البر يبتهلون إلى الله تعالى عز وجل، والفرنج أيضاً يصرخون في البر والبحر، وقد ارتفع الضجيج، فنصر الله المسلمين، وسلمت مراكبهم وطابت الرياح للبطس فسارت فأحرقت المراكب الافرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، وفرح بها أهل البلد والجيش فرحاً عظيماً، وكان السلطان رحمه الله قد جهز قبل هذه الثلاث بطس المصريات بطسة عظيمة من بيروت فيها أربعمئة غرارة قمح وشيء من الجبن والبصل والشحم والقديد والنشاب والنفط، وكانت هذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من التجار أن يتزيوا بزي الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدوا الزنانير، واستصحبوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرمية، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية المسلمين، فاعتذروا بأنهم مغلوبون معها والريح قوية

لا يمكنهم أن يقفوا ولا ينصرفوا، وما زالوا كذلك حتى ولجوا الميناء، وأفرغوا ما كان معهم من الميرة، والحرب خدعة.

قال صاحب النوادر: وكان ذلك في العشر الاخير من رجب.

ذكر احتراق بطسه عظيمة للفرنج:

كان ميناء عكا يكتنفه برجان يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات، إذا أرادوا أن يضعوه على كل شيء من الاسوار والابرجة كلبوه فيصل إلى ما أرادوه، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها مختارين حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرقها، وذلك أن الافرنج أعدوا فيها نفطاً كثيراً وخطباً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض حتى إذا أراد المسلمون المحاققة عن الميناء بمراكبهم أرسلوا النفط على تلك البطسة الخطية فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين فتحرقها، وبطسة أخرى لهم فيها مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان انعكس الامر عليهم بقدرة الرحمن وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الاخرى فغرقت، ووصل الى بطسة المقاتلة فتلفت وهلك من فيها، فأشبهوا من سلف من الكفار كما قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بِيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ [الحشر: ٢].

ذكر قصة عيسى العوام رحمه الله:

وكان عواماً، قيم في العوم يقال له عيسى، وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من الافرنج، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب مشمعة للعسكر، فنزل في

البحر، فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عن المسلمين، وذلك لان عاداته أنه إذا دخل البلد أرسلوا طيراً يعرف بوصوله، فلم يجيء الطير فتحققوا أنه هلك، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طريق البحر في البلد إذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريباً فتسارعوا إليه فأخرجوه، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب المشمعة، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته الا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب من هذه السنة.

ذكر اشتداد الحصار على عكا:

وفي ثالث رمضان من هذه السنة اشتد الحصار من الافرنج للبلد حتى نزلوا إلى الخندق، فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتمكنوا من حريق الكباش الذي اتخذوه لحصار الاسوار، وسرى حريقه الى السفود، فارتفعت له لهبة عظيمة في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلايب من حديد في سلاسل، فحصلوه عندهم وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام فكان فيه من الحديد مائة قنطار بالدمشقي.

وقال العماد الكاتب رحمه الله: وعمل الفرنج دبابة هائلة في رأسها شكل عظيم يقال له الكباش، وله قرنان في طول رحين كالعمودين العظيمين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكباش بعد الحديد بالنجاس، فحاصل الكلام أبطل المسلمون سعيهم في ذلك وأحرقوها كما ذكرنا والله الحمد.

وفي أثناء ذلك حصل للسلطان سوء مزاج من كثرة ما يكابده من الامور التي هي أمر من الاجاج، فطمع العدو المخدول في الاسلام

فتجرد منهم جماعة للقتال، وثبت آخرون على الحصار، وأقبلوا في عدد كثير، وعدد غزير.

وكانوا صوروا القدس في ورقة عظيمة، وصوروا فيه صورة القمامة التي إليها يحجون ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه - على زعمهم الفاسد - وذلك القبر أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوروا القبر، وصوروا عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس، وأظهروا هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة، وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، فهاج بذلك خلأئق لا يحصون، ولما كثروا على المسلمين رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، فلما رأى الفرنج ذلك فروا من موقف الحرب، فقتل منهم خلق كثير وجم غفير، ولما دخل فصل الشتاء وانشمرت مراكب الافرنج عن البلد خوفاً من الهلاك، وبسبب الزمان سأل من في البلد من المسلمين السلطان أن يخرجهم ويريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم والمقاتلة ليلاً ونهاراً، وأن يرسل إلى عكا بد لهم، فرق لهم السلطان، وعزم على ذلك، وكانوا قريباً من عشرين ألف مسلم: مائتي أمير ومأمور، فجهز جيشاً آخر غيرهم.

قالوا: ولم يكن ذلك برأي جيد، ولكن ما قصد السلطان إلا خيراً، لان هؤلاء الذين يدخلون البلد جدد الهمم، ولهم قوة العزم، وكانوا في راحة بالنسبة لاولئك، ولكن اولئك كانت لهم خبرة بالبلد والقتال، وكانوا قد تمرنوا على ما هم فيه من المصابرة للاعداء براً وبحراً، وجهزت لهؤلاء الداخلين سبع بطس فيها ميرة تكفيهم سنة كاملة، فقدر الله تعالى أنها لما توسطت البحر واقتربت من مينائها هاجت ريح عظيمة في البحر فتلقت بتلك البطس على عظمها، فاخبطت واضطربت وتصادمت وغرقت وغرق من فيها من البحارة جميعهم، وما فيها من الميرة، فدخل

بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد مرض السلطان وازداد مرضاً إلى مرضه وكان ذلك عنواناً على أخذ البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب.

وذكر صاحب النوادر أن دخوله كان يوم الاربعاء السادس عشر من محرم سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء، ودخل مع المشطوب خلق كثير من الامراء وأعيان الناس.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:

منها أن في يوم الخميس السادس عشر من رمضان من هذه السنة وصل الكتاب على جناح طير من حماه، وكان قد جاء إليها من حلب يذكر فيه أن الابرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية لشن الغارة عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر غازي، ولد السلطان، فكمنت الكمنا، وخرجوا عليهم، فلم يشعر الابرنس بهم الا والسيف قد وقع، فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفراً، وأسر خلق كثير، واستعصم هو بنفسه في موضع يسمى شيجا حتى اندفعوا وساروا إلى بلدهم.

ومنها أن في أثناء العشر الاخير من رمضان ألقت الريح بطستين فيها رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة، وكانوا قاصدين نحو العدو فغنمهما المسلمون، وكانوا قد ظفروا ببركوس للمسلمين فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظفر بهاتين جبراً عن ذلك.

ومنها أنه قوي عزم الافرنج على الخروج إلى جهة المسلمين، وتغير

مزاج السلطان بحمى صفراوية، فاقتضى الحال أن انتقلوا في عشية الاثنين تاسع رمضان من هذه السنة، فنزلوا على أعلى جبل كفر عم ورؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة عن الوحل.

وفي ذلك الزمان مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل مرضاً شديداً بجمتين مختلفتين، واستأذن في الرواح فلم يؤذن له، ثم استأذن في الانتقال إلى الناصرة فأذن له في ذلك، وأقام بالناصرة أياماً وهو مريض، فاشتد به الأمر إلى ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان من هذه السنة، ثم توفي إلى رحمة الله، وعنده أخوه مظفر الدين، وحزن الناس عليه لشبابه وغربته، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده إربل واستنزله عن بلاده التي كانت في يده، وهي حران والرها ومايتبعها من البلاد والأعمال، وضم إليه شهرزور أيضاً، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه، وأقام مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بالمعسكر المنصور إلى قدوم تقي الدين، وقدم ضاحي النهار الثالث من شوال من هذه السنة، وفي صحبته معز الدين سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة، إذ ذاك، ثم تكرر سؤال عز الدين هذا في طلب الدستور، والسلطان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكررة في معنى الصلح فلا يجوز أن تنقص العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، وهو لا يألوا جهداً في طلب الدستور، إلى أن كان يوم عيد الفطر من هذه السنة، وحضر سحرة ذاك اليوم في باب خيمة السلطان فاستأذن في الدخول فلم يؤذن له، وكرر الاستئذان فأذن له، فدخل واستأذن في الرواح شفاهاً، فذكر له السلطان وجوها تمنع من الرواح، فانكب على يده وقبلها كالمودع له، ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن اكفئوا القدور وفيها الطعام واقلعوا الخيام، وتبعوه على ذلك، فلما بلغ السلطان إليه ذلك، كتب إليه: «إنك قد قصدت الانتهاء إليّ ابتداءً وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك

من أهلك، فقبلتك وآويتك، ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة لاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المدة وقلقت هذا القلق، وانصرفت عن غير طيب نفس، وغير فصل حال مع العدو، فانظر لنفسك وانظر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات».

وسلم الكتاب إلى نجاب، فلحقه قريباً من طبرية، فقرأ الكتاب ولم يلتفت إليه، وسار على وجهه، وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعي إلى الغزاة - كما ذكرنا الآن - فلقيه في عقبة فيق، وهو محث، وليست عليه امارات حسنة، وسأله عن حاله ففهم من كلامه أنه سار والسلطان غير راض عليه، فقال له: المصلحة أن ترجع إلى خدمته وتلازمها إلى أن يأذن لك السلطان، فأنت صبي لاتعلم غائلة هذا الامر، فلم يلتفت إليه، وأصر على الرواح، فخشن عليه الملك وقال: ترجع من غير اختيار، وكان تقي الدين شديد البأس مقداما على الامور، فلما علم معز الدين أنه قابضه إن لم يرجع، فرجع باختياره، ورجع معه حتى أتى العسكر، وخرج الملك العادل إلى لقاء الملك المظفر، فدخلا على السلطان وسألاه الصفع عنه فعفا عنه، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه، فأذن في ذلك، وأقام في جواره إلى حين ذهابه، وكذلك عماد الدين صاحب سنجار، كان قد أصر على الرحيل، ودخل على السلطان، فقبل يده وسار من ساعته، فكتب السلطان وراءه كتاباً، وكتب بيده في ظهره:

من ضاع مثلي من يديه

فليت شعري ما استفادا

فوقف عماد الدين عليه وانقطعت مراجعته بالكلية.

ومنها: أنه تواصلت الاخبار بضعف العدو المخذول، ووقع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى أن الغرارة من القمح بلغت في أنطاكية ستة وتسعين ديناراً صورية، ولايزيدهم ذلك إلا صبراً واصراراً وعناداً.

ومنها: أنهم ضاق بهم الامر وعظم الغلاء فخرج خلق عظيم مستأمنين لشدة الجوع، وقد ذكرنا أن السلطان كان قد عرض له مرض فطمعوا بذلك وظنوا أنه لا يستطيع النهوض فخرجوا يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من هذه السنة بخيلهم ورجلهم متحملين أزواداً وخيلاً، وكان خروجهم إلى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل العجول لما كانوا نازلين عليه، فأخذوا معهم عليق أربعة أيام، فأخبر السلطان بخروجهم على هذا الوجه، فأمر اليك أن ينزاحوا من بين أيديهم إلى تل كيسان، وكان اليك على تل العياضية، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور، وباتوا تلك الليلة واليك حولهم جميع الليل، فلما طلع الصبح جاء من أخبر السلطان رحمه الله بأنهم قد تحركوا للركوب، وكان رحمه الله قد أمر الثقل في أول الليل أن يسيروا إلى الناصرة والقيمون، فرحل الثقل وبقي الناس وأمر العسكر أن يركبوا ميمنة وميسرة وقلباً تعبئة القتال، وركب السلطان، وصاح الجاوش بالناس فركبوا، وسار حتى وقف بتل من جبال الخروبة، وابتدأت الميمنة بالمسير، فساروا حتى بلغ آخرها الجبل، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها إلى النهر، وقربت من البحر، وكان في الميمنة ولده الملك الافضل صاحب دمشق وولده الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وولده الملك الظافر صاحب بصرى، وولد عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه، ثم الملك العادل أخوه في طرفها، ويليهِ قريب منه حسام الدين بن لاجين والطواشي قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري، وحسام الدين بشارة صاحب نابلس، وبدر الدين دلدرد صاحب تل باشر الياروقي وجمع كثير من الامراء، وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة، وفي طرفها

الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه، وسيف الدين علي بن المشطوب وجميع المهرانية والهكارية وخشترين وغيرهم من الأمراء الاكراد وفي القلب الحلقة السلطانية، وأمر السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ليدور حول العدو واليزك معهم، وأخفى بعض الاطلاب وراء التلال، عساهم يجدون غرة من العدو، ولم يزل عدو الله يسير والناس يقاتلونهم من جميع جوانبهم، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا على تل هناك وضربوا خيامهم ممتدة منه إلى النهر، وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم، وقتل أيضاً خلق، وكانوا إذا جرح واحد منهم حملوه، وإذا قتل واحد منهم دفنوه وهم سائرون حتى لا يظهر قتيل ولا جريح، وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر، وتراجعت العساكر عنهم إلى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرهم على البحر، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي، والجاليش يقاتلونهم ويرمونهم بالنشاب بحيث لا ينقطع النشاب عنهم أصلاً، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال، وسار السلطان إلى رأس جبل الخروبة الذي كان نازلاً عليه في العام الماضي، فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم بمرأى العدو، وأخبارهم تتواصل إليه في كل ساعة إلى الصبح.

ولما كان الصبح يوم الاربعاء وصل من خبر أنهم تحركوا للركوب عند الصبح، فركب السلطان وذلك في صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من شوال ورتب الاطلاب، وسار حتى أتى قرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد جميع أجوالهم، وكان السلطان رحمه الله ملثا المزاج، ضعيف القوة، قوي القلب، ثم بعث إلى العساكر وأمرهم بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب، وأمر الاطلاب أن تحتاط بهم بحيث أن لا تكون قريبة ولا بعيدة ليكونوا رداءاً للمقاتلة الى ان تضاحى النهار، وساروا على شاطئ النهر من الجانب الغربي يطلبون جهة خيمهم والقتال يشتد عليهم من كل جانب، فاشتدوا في قتالهم من سائر

الجوانب إلا من جانب النهر، والتحم القتال، فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم، وقد جعلوا راجلهم سوراً لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يتركون أحداً يصل إليهم، وخیالتهم يسرون في وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً والكوسات تخفق والبوقات تنفر والاصوات بالتهليل والتكبير، هذا والسلطان يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر إلى عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير، وعلم الفرنج مرتفع على عجلة، وهو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، حرفيه بياض ملمع بحمرة على شكل الصليبان، ولم يزالوا سائرين على هذا حتى وصلوا وقت الظهر إلى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش، وأخذ منهم التعب، واثختهم الجراح، واشتد بهم الأمر، ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً، وأعطوا الجهاد حقه، وهجموا عليهم هجوماً عظيماً واستداروا بهم كالحلقة، وهم لا يظهرون من رجالتهم ولا يحملون، وجرح في ذلك اليوم جماعة، منهم: إياز الطويل رحمه الله، وجرح جراحات معدودة وهو مستمر على القتال، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام وشجاعانه، ولم يزل الناس حولهم في ذلك اليوم حتى نزلوا ظهيرة ذلك النهار عند جسر دعوق، وقطعوا الجسر وأخربوه خوفاً من عبور الناس إليهم، ورجع السلطان إلى تل الخروبة، وأقام عليهم يزكاً يحرسهم، وبات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح، وعزم تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم، وكتب إلى البلد - أعني عكا - يعرفوا بذلك حتى يخرجوا هم من جانب، وعسكر السلطان من جانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب.

ولما كان صباح الخميس رابع عشر شهر شوال وصل من أخبر أن العدو في الحركة للرحيل، فركب السلطان وطلب الاطلاب، وكف الناس عن القتال خشية أن يغتالوا، وأوقف الاطلاب في الجانب الشرقي من

النهر يسرون قبالة العدو، وكان ممن جرح من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس، وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كبير منهم، ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم بها أطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي، وحملت عليهم، وانتشب القتال بين اليزك وبينهم، وجرى فيه قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر، وقتل منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد إلى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب، فدفع إليهم جثته، وطلب رأسه فلم يوجد، وعاد السلطان إلى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم إلى منزلته، ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من هذه السنة رأى السلطان أن يضع للعدو كميناً، فأخرج جمعاً من كفاة العسكر وشجعانهم وأبطالهم، وأمرهم أن يسيروا في الليل، ويكمنوا في سفح تل شمالي عكا بعيداً عن عسكر العدو، وأمرهم أن يظهر منهم نفر يسير ويقصدونهم في خيمهم، حتى إذا خرجوا انهزموا بين أيديهم نحو الكمين، ففعلوا ذلك، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً، فكمنوا تحته، ولما علا نهار السبت الثالث والعشرين من شوال خرج منهم نفر يسير على خيل جياد، وساروا حتى أتوا مخيم العدو، ورموهم بالنشاب فانتخى منهم مقدار مائتي فارس، وخرجوا إليهم شاكين في السلاح على خيل جياد، وبعده تامة، وليس معهم راجل واحد، وداخلهم الطمع فيهم لقلتهم، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم، حتى أتوا موضع الكمين، فخرج عليهم أبطال الموحدين، وصاحوا فيهم صيحة رجل واحد، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فرائسها، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فمكن الله المسلمين منهم، ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى هلك منهم جمع عظيم، واستسلم الباقون للأسر، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم، وجاء البشير إلى السلطان، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير، وركب للملاقاة.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان واعتبر الاسارى، وكان فيهم مقدم عسكر الافرنسيس وخازن الملك أيضاً، ثم نزل السلطان في مخيمه فرحاً مسروراً، وأمر منادياً فنادى: ألا من كان عنده أسير فليحضر به، فأحضر الناس أسراهم، وأكرم المقدمين منهم، وألبس مقدم عسكر الافرنسيس فروة خالصاً، وأمر لكل واحد من الباقيين بفروة جرخية فإن البرد كان شديداً، وكانوا عرايا موتى من البرد، وأحضر لهم طعاماً فأكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق، وأذن لهم أن يرأسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها، ففعلوا ذلك، وساروا إلى دمشق، وحبسوا هناك.

ومنها أن في اليوم التاسع من ذي الحجة من هذه السنة سقطت قطعة من سور عكا، وهي قطعة عظيمة.

وفي النواذر كان ذلك ليلة السبت السابع من ذي الحجة، فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة، فداخل العدو الطمع، وجاءوا إلى البلد كقطعة الليل المدهم من كل جانب، فقام أهل البلد بهمم عالية، فقتلوا منهم جماعة، وجرحوا خلقاً عظيماً حتى أيسوا من أن ينالوا شيئاً من البلد، ووقف المسلمون موضع القطع كالسد، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع، ووضعوهم في ذلك المكان وحموهم بالنشاب والجروح والمناجيق، فما مرت ليال يسيرة حتى فرغوا من بنائها بأحسن مما كان.

ومنها أنه وقع وباء عظيم في الجيشين: المسلمين والكافرين، وكان السلطان يقول في ذلك:

اقتلوني ومالكاً
واقتلوا مالكم معي

ومنها أن في شهر ذي الحجة قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان، وكان قد طال شوق كل منهما إلى صاحبه، فأفصى كل واحد منهما إلى الآخر ما كان يسره ويكتمه من الآراء التي فيها مصالح المسلمين، وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق، قدس الله روحهما.

ومنها أن في يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان في براكيس ليغزوا في البحر، ويكونوا أيضاً جواسيس للمسلمين، فرجعوا وقد غنموا، وذكروا أنهم وقعوا بحرقاة كبيرة ومعها براكيس، وفيها تجار معهم أموال لا تحصى، فأسروا التجار، وأخذوا الأموال وجذبوها إلى الساحل، فأنعم السلطان عليهم بهذه الأكساب، فلما رأوا ذلك من السلطان أسلم أكثرهم، وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة بقيمة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، وكل فضتها قاربت قنطاراً، فقال السلطان: خذوها فأنتم بها أولى.

وقال صاحب النوادر: وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا، وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكيس ونكسب من العدو، فيكون المكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم براكيس، فساروا، ثم ذكر البقية مثلما ذكرنا.

قلت: البراكيس جمع بركوس، وهو المركب الصغير.

وفيها أن في الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيها نيف وخمسون نفراً، وفي الخامس والعشرين منه أخذ أيضاً بركوس واحد فيه من الفرنج مقدمون وروس وهم نيف وعشرون، منهم أربعة

خيالة، ومعهم ملوطة مكللة باللؤلؤ. بأزرار من الجواهر، قيل إنها من ثياب ملك الألمان، وأسر فيها رجل كبير قيل إنه ابن أخيه، وهو كبير الشأن.

ومنها أنه لما هجم الشتاء وهاج البحر أمنت أهل عكا من أن يبالغ العدو في الحصار، وذلك من شدة الأمطار وتواترها، فعند ذلك أذن السلطان رحمه الله للعساكر الإسلامية في العود إلى بلادهم ليستريحوا ويريحوا خيولهم إلى وقت العمل، فكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب الدستور، وكان مسيره يوم الاثنين الخامس عشر من شوال، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجرشاه صاحب الجزيرة، وذلك بعد أن أفيض عليهما من التشریف والانعام والتحف بما لم ينعم بها على غيرهما، وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة من هذه السنة مشرفاً مكرماً، معه التحف والطرائف، وتأخر من العساكر الملك المظفر تقي الدين إلى أن دخلت سنة سبع وثمانين، وتأخر أيضاً ولد السلطان الملك الظاهر غازي صاحب حلب إلى أن سار إلى حلب ضاحي نهار الأربعاء تاسع المحرم من السنة الآتية.

وسار الملك المظفر في ثالث صفر من السنة الآتية وهي سنة سبع وثمانين، ثم اشتغل السلطان بإدخال البدن في البلد، وأخرج من كان بها من الأمراء الذين طالت شكواهم إلى السلطان من طول الحصار وملازمة القتال ليلاً ونهاراً، وأمر السلطان بإدخال المير والذخائر والنفقات والعدد إليها، وكان مقدم بها يومئذ الأمير حسام الدين أبو الهيجاء، فخرج هو وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، وكان مقدم الداخلين من الأمراء الأمير سيف الدين أحمد بن علي المشطوب، وكان دخولهم في يوم الأربعاء السادس عشر من المحرم من السنة الآتية، وأخذ كل أمير معه ميرة سنة كاملة، وانتقل الملك العادل بعسكره إلى حيفا على

شاطيء النهر، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب، وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه، وأقام ثمة يحث الناس على الدخول، ويجرس المير والذخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرض لها، وكان مما دخل إليها سبع بطس ملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان السلطان قد عينها من مدة مديدة، وكان دخولها يوم الاثنين الثاني من ذي الحجة من هذه السنة، أعني ست وثمانين، ولما علم العدو بذلك، وهم القائلون من جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد، فاندق بهم السلم، فتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وعادت بقيتهم خائئين خاسرين، وأما البطس فإن البحر هاج هياجاً عظيماً فضرب بعضها ببعض على الصخر، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها، وهلك فيها خلق كثير، قيل كانت عدتهم ستين نفرًا، وكانت فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكانت كفت البلد سنة كاملة، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم، وحزن السلطان حزناً شديداً، وكان ذلك أول علامة أخذ البلد، والظفر به.....

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بن بكتكين صاحب إربل، وهو أخو مظفر الدين بن زين الدين، كان عند السلطان صلاح الدين في هذه السنة على الخروبة، فمرض في رمضان، وارتحل من الخروبة إلى الناصرة، فأقام يمرض نفسه، وكان عنده أخوه مظفر الدين يمرضه، فيقال إنه سقاه سماً فمات، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك، فإنه لم يكثرث لموته ولا تأسف عليه، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه كان صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه، وحزن المسلمون عليه لمكان عفته وشبابه وغربته، ظنا منا أنه قد حزن عليه حزن الأخ على أخيه، [وقصدناه معزين] فكأننا جئنا نهنئه، وإذا به مشغول عنه

- ١١٣٦٧ -

بجيازة أمواله وأسبابه، والقبض على عماله وكتابه، ثم أرسل مظفر الدين الى السلطان يطلب منه إربل، وينزل عن حران والرها، فأجابه الى ذلك وسأله كتابا الى صاحب إربل في هذا المعنى، وأضاف اليه شهرزور واعمالها.

وقال ابن كثير: وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو : حران والرها وسميساط، وأعطاه الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده ، وهو ميفارقين، وفي الشام حماه ومعرة النعمان وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية وبلاطنس وديار بكر (٢٦).

الأمير سوار: استشهد على عكا في هذه السنة، وكان من مماليك السلطان الخواص.

وقال العماد: استشهد على عكا سبعة من الأمراء من جملتهم سوار المذكور، وكذلك استشهد عدة من الاكراد وقال: استشهد في اليوم التاسع من جمادى الأولى من هذه السنة....

ملك الألمان: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ، وقيل في ثلاثمائة ألف مقاتل كما ذكرنا، وقد أهلكه الله بالغرق كفرعون، كما ذكرنا.

ابن ملك الألمان: الذي تولى بعد هلاك أبيه على طرسوس، هلك في آخر السنة، لعنه الله.

وقال العماد: وهلك ابن ملك الألمان بعلة الجوف ولعله من مرض الخوف في ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة، وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار وأبصر في جهنم مصائر أمثاله من الكفار، وزاد لهلاكه ألم الألمانية، وانسد بموته فرج الأفرنجية، وتبعه في السفر إلى سقر كند كبير يقال له كند أرناط دافع القدر فما قدر، وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير، لعنهم الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلّت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مقيم على عكا والحصار مستمر على حاله من الجانبين، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد، والملك العادل أخو السلطان مخيم إلى جانب البحر ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم.

ذكر وقعات متعددة في هذه السنة بين المسلمين والأفرنج

الأولى: وقعت في مستهل ربيع الأول منها، خرج المسلمون من عكا فهاجموا على مخيم الأفرنج، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا شيئاً كثيراً، وسبوا اثني عشر امرأة.

الثانية: وقعت في ثالث ربيع الأول بينهم وبين يزك السلطان، وذلك أنه خرج إليهم من الأفرنج خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة قتل فيها من الأفرنج جماعة، وقتل منهم رجل كبير على ما قيل، ولم يفقد من المسلمين إلا خادم كان للسلطان يسمى قراقوش، وكان شجاعاً عظيماً له وقعات كثيرة عظيمة استشهد في ذلك اليوم.

وفي بعض التواريخ: ولم يقتل من المسلمين في هذه الوقعة سوى طواشي صغير عثر به فرسه.

الثالثة: وقعة أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير صاحب حمص، وكان من حديثه أن السلطان رحمه الله كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس، ويأخذ بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية، وأنه قيل له إن أهل طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم وأبقارهم إلى مرج هناك، فخرج أسد الدين

على غرة منهم، وهجم على جشارهم فأخذ منه أربعمئة رأس من الخيل، ومئة رأس من البقر، فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقي، وعاد إلى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد، ولكن قتل منهم جماعة، ووصل كتابة بذلك إلى السلطان في الرابع من صفر من هذه السنة.

وفي ليلة هذا اليوم ألقى الريح مركباً لهم على الساحل فكسرتة، وكان فيه خلق كثير منهم، فبصر به المسلمون فوثبوا عليهم وأخذوهم عن آخرهم.

وقال القاضي بهاء الدين: ولقد حضرت وقد عرض منهم على السلطان خمسة عشر نفرًا.

الرابعة: وقعة الملك العادل أخي السلطان: وذلك أنه بلغ السلطان يوم السبت تاسع ربيع الأول منها أن العدو يخرجون طائفة بعد طائفة وينفسحون لبعث المسلمين عنهم، فاقضى رأيهم أن أنفذ أخاه الملك العادل، وفي خدمته خلق كثير من العساكر، وأمره أن يكمن وراء التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هوفكمن وراء تل العياضية، وكان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الأفضل ولده، ومعه من صغار أولاده الملك الأشرف محمد والملك المعظم تورانشاه والملك الصالح اسماعيل، وكان من المتعممين القاضي الفاضل والديوان وقاضي القضاة بهاء الدين، وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد، وناوشوا العدو وباسطوه، فلم يخرج في ذلك اليوم أحد، وكأنه كان قد وشي إليهم بجلية الأمر، إلا أنه حصل في ذلك اليوم نوع نصره للمسلمين، فإنه وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفرًا من أسارى الفرنج، فإنهم كانوا قد أسروا في بيروت وسيروا إلى السلطان رحمه الله.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ولقد شاهدت من السلطان في ذلك اليوم رقة قلب ورحمة لم ير أعظم منها، وذلك أنه كان في الأسرى شيخ كبير طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس ولا له قوة إلا مقدار ما يتحرك بها لاغير، فقال للترجمان: سل ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن، وكم من ها هنا إلى بلادك؟ فقال: أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر، وأما مجيئي فإنه كان للحج إلى القمامة، فرق له السلطان ومن عليه وأطلقه وأعادته راكباً على فرس إلى عسكر العدو.

ولقد سأل من السلطان أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل الأسرى، فلم يأذن لهم، قال القاضي بهاء الدين: فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم فيما طلبوه، فقال: لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء.

ولقد جرت وقعات أخرى في هذه الأيام إلى أن أخذوا عكا من المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر وصول ملك الافرنسيس

واسمه فيليب، وكان وصوله في الثاني عشر من ربيع الأول، يوم السبت في ست بطس ملعونة مشحونه بعبدة الصليب، وحين وصل إليهم لم يبق لأحد من ملوكهم حكم، وذلك لعظمته عندهم، وكان الأفرنج كل وقت يتواعدون المسلمين بقدموه ولاسيما لليزك ومن يقاربهم من المسلمين، وكان هذا الملعون من كبار ملوكهم، لا يتقدم عليه أحد، ولما قدم كان معه من الميرة ما يحتاج إليه هو وأصحابه، وكذلك من الخيل والسلاح، وكان قد صحب معه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق، أبيض اللون، نادر الجنس، وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً فانفلت من يده وطار وهو يدعو فلا يجيب حتى سقط على سور عكا، فأمسكه أهلها وأرسلوه إلى السلطان رحمه الله، وكان لقدموه استبشار عظيم بالظفر به، وتعالوا بذلك، وبذل الأفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

ذكر قدوم كند فرند

قدم هذا اللعين بعد ملك الافرنسيس، وهو أيضاً من أكابر ملوكهم، وكان مقدماً عظيماً عندهم، مذكوراً، وكان حاصر حماه وحارم في عام الرملة.

ثم وصلت سفن عن ملك الانكتار - لعنه الله - واسمه جبلرت ، ولم يجيء هو لا نشغاله بجزيرة قبرس.

وقال العماد الكاتب: وصل الخبر أن ملك الانكتار وصل إلى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر في جمع عظيم ، وتقدمته إلى الجزيرة مراكب وشواني على قصد الجزيرة، فخرج صاحب قبرس إليها واستولى عليها وغنم أموالها، وصدم رجالها، فلما وصل مكث متحيراً، واشتغل بالقتال وأنفذ إلى الأفرنج الذين على عكا يطلب منهم نجدة فأنفذوا له جفري أخا الملك العتيق في جموع كثيرة، وامتدت الحروب بينهم، ثم تراسلوا في الصلح، واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتار، وحمل له هدايا وتحفاً، ووسع له الأزواد، وبذل له الأمداد.

وقال صاحب النوادر: وكان ملك الانكتار هذا شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوي الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب، ولكنه دون ملك الافرنسيس في الملك والمرتبة، ولكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة، وكان الأفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم. ولما كان يوم الأحد سلخ ربيع الآخر من هذه السنة وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطراة فيها خلق كثير من الرجال والنساء والميرة والأخشاب والآلات وغير ذلك، وفيها أربعون فرساً، وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون.

ذكر وصول العساكر الاسلامية

لما انفتح البحر وطاب الزمان، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين قدم من العساكر الاسلامية خلق كثير، وكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر غازي، ولد السلطان صاحب حلب، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً، له وقائع ورأي حسن، والسلطان يحترمه ويكرمه لقدم صحبته، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه صاحب بعلبك، وتتابع بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب.

ذكر زحف العدو إلى عكا

لما كان يوم الخميس الرابع من جمادى الأولى من هذه السنة زحف العدو إلى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعاً، ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم، والتماس شغل العدو عنهم، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل إلى مضايقة العدو، فسار حتى وقف على الخروبة ورتب العساكر ميمنة وميسرة وقلباً، ثم بعث من كشف حال العدو، وحال خنادقهم، هل فيها كمين لهم أم لا، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين، فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم، وصعد تلاً كان يعرف بتل الفضول، وهو قريب العدو ومشرف على خيامهم، وشاهد المنجنقات وما يعمل منها، وهو بطال، ثم عاد سائراً إلى مخيمه.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر، قد أخذوه من أمه وسرقوه.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها، ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون، فأرضعته ساعة، ثم أمر بها السلطان فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم، فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة والشفقة الكاملة، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالبر والكرم والرأفة والرحمة:

والحسن ليس لحقه من ناکر

- 373 -

خدمة السلطان، ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يمكث إلا ساعة حتى وصل إليه الخبر بتجديد الزحف على عكا، فعاد وركب من ساعته، وسار نحو البلد فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين.

ذكر كيفية أخذ العدو مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان صبيحة يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى بلغ السلطان أن الأفرنج قد ضايقوا البلد وركبوا عليه المناجيق، فأمر الجاوش أن يصيح بالناس، وركب وركب لركوبه العسكر فارسهم وراجلهم وسار حتى أتى الخروبة، وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليهم، فلم يخرج العدو، واشتد زحفهم على البلد، فضايقهم السلطان مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً، وهجم عليهم في خنادقهم، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور، وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل بها من الشمس، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة، وقوى اليزك، وأمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ شيء من الراحة، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف، لما أحسوا بانصراف السلطان عنهم، أشد مما كانوا أولاً، فأمر العسكر بالعود إلى جهة العدو أطلباً أطلباً، وبات هو رحمه الله وجميع العسكر على تعبئة القتال، ثم سار العسكر في أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأولى، إلى تل العياضية قبالة العدو، وضربت له خيمة لطيفة، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي، لكن جرائد مع بقاء الثقل على الخروبة، ونازل العدو في ذلك اليوم مجمعين على القتال الشديد على البلد من جميع جوانبه، والسلطان يدور بين الأطلاب، ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه، ولما رأى العدو تلك المنازلة خافوا من الهجوم على خيمهم فتراجعوا عن الزحف، وعاد السلطان إلى خيمته في تل العياضية، ورتب على خنادقهم من يخبر بحالهم ساعة فساعة، ثم إنهم بالغوا في مضايقة البلد،

ومبالغتهم في طم خندقه بالأتربة وغير ذلك حتى بموتى دوابهم، ونصبوا المجانيق والدبابات والصلالم، وجل همهم في طم خندق البلد، وألقوا فيه كل شيء، حتى آل أمرهم أنهم كانوا يلقون فيه موتاهم، وكانوا إذا جرح منهم واحد جراحة مميتة مؤيسة ألقوه فيه، وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساماً، فقسم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه، وقسم ينقلون ما يقطعون إلى البحر ويلقونه فيه، وقسم يذبون عنهم، ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك، وقسم في المنجنقات وحراسة الأسوار، ومع هذا قد أخذهم التعب والنصب، وتكاثرت شكايتهم من ذلك، وقد ابتلوا ببليّة لم يتل بمثلاً أحد، هذا والسلطان رحمه الله لا يقطع الزحف عنهم، والمضايقة لخنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً، فحصلت هذه الأمور الشديدة ليلاً ونهاراً إلى أن وصل ملك الانكتار.

ذكر وصول ملك الانكتار

وقد وصل هذا اللعين يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى بعد مصالحته لصاحب قبرس كما ذكرنا، وكان في جمع عظيم في خمس وعشرين شينياً ملوءة بالرجال والسلاح والعدد، وأظهر الأفرنج بقدمه سروراً عظيماً وفرحوا فرحاً شديداً، حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم، وبلي الثغر منه بلاء لا يشبه ما قبله، فعند ذلك حركت الكوسات في البلد، وكانت علامة بينهم وبين السلطان أيضاً كرسالة، واقترب من البلد ليشغلهم عنه، وقد أحاطوا به من كل مكان، ونصبوا عليه سبعة مجانيق، وهي تضرب البلد ليلاً ونهاراً، ولا سيما على برج من جهة البر حتى أثر فيه أثراً بين وشرعوا في ردم الخندق بما أمكنهم من دواب ميتة ومن قتل منهم ومن مات أيضاً، وقاتلهم أهل البلد وهم ينقلون ما ألقوا فيه إلى البحر.

ذكر ما جرى على البطسة الاسلامية

ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من هذه السنة وصلت بطسة عظيمة للمسلمين من بيروت مشحونة بالآلات والمير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها في بيروت وتسييرها، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكانت عدة رجالها ستائة وخمسين رجلاً، فاعترضها ملك الانكتار اللعين في عدة شواني، وكان واقفاً في البحر في أربعين مركباً لا يترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية، فاحتاطوا بتلك البطسة من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها، وجرى القضاء والقدر بأن وقف الهواء، فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل من العدو خلق عظيم، وأحرقوا من شوانيهم شينياً كبيراً فيه كبير، فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، ورأى أنهم لابد أن يقتلوا، قال: والله لا نقتل في أيديهم ولا نموت إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول، ولم يزالوا كذلك حتى فتحوا فيها من كل جانب مثل الأبواب، فامتلأت ماء وغرق كل من فيها، وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو بشيء منها أبداً، وكان اسم المقدم يعقوب، من أهل حلب، وتلقف العدو بعض من كان فيها وخلصوه من الغرق، ومثلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر حريق الدبابة الكفرية

وكان من لطف الله تعالى أن جبر المسلمين بأن مكنهم في اليوم الذي جرى على البطسة الاسلامية ما ذكرناه على حريق دبابة كان الفرنج قد اصطنعوها، وكانت هائلة عظيمة أربع طبقات: الأولى من الخشب،

والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت مشرفة على السور، وفيها المقاتلة، وقد قلق أهل البلد منها، وخافوا خوفاً شديداً بحيث أن أنفسهم حدثتهم من خوفهم من شرها أن يطلبوا الأمان من الأفرنج، ويسلموا البلد، وكان قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأي العين، وأخذ أهل البلد بتواتر ضربها بالنفط ليلاً ونهاراً حتى قدر الله حريقها واشتعال النار فيها، وظهرت لها ذؤابة نار نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل، ورأى المسلمون ذلك جبراً لذلك الوهن، ونعمة بعد نقمة.

ذكر عدة وقعات بينهم وبين المسلمين من داخل وخارج

الأولى : كانت يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى ، فإنهم زحفوا على البلد زحفاً عظيماً ، وضايقوه مضايقة شديدة، وكان قد استقر بينهم وبين المسلمين أنه متى زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم، ف ضربوا كؤوسهم فأجابت كؤوس السلطان رحمه الله، وركبت العساكر وضايقهم السلطان من خارج وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم، وتجاوزوا خنادقهم، وأخذوا القدور من أثافيها، وحضر من الغنيمة المأخوذة عند السلطان شيء، ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنهم قد هجم عليهم وأخذوا فتراجعوا عن قتال البلد، وشرعوا في قتال العسكر، وانتشبت الحرب بينهم ، ولم تزل حتى قام قائم الظهيرة وغشي الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين، فتراجعت الطائفتان إلى خيامهم، وقد أخذ منهم التعب والحر. وانقضى القتال في ذلك اليوم.

الثانية: كانت يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، فدقوا الكؤوس على عاداتهم فجاءت كؤوس السلطان ، وثار القتال بين

الطائفتين، ولج العدو في مضايقة البلد ثقة منهم أن المسلمين لا يهجمون على خيامهم وأنهم يهابونهم، فأكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً، ونهبوا منها فتراجعوا إلى قتال المسلمين ولحق من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرحت جماعة من الأفرنج.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: أعجب ما في هذه الواقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة، فوصل والحرب قائمة، فلقي السلطان واستأذنه في الجهاد، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها في تلك الساعة ، ولما رأى الأفرنج دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم حركتهم الحمية وبعثتهم النخوة فخرجوا إلى ظاهر أسوارهم، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثباتاً عظيماً لم يتحركوا عن أماكنهم، والتحم القتال من الجانبين ، وصبر المسلمون صبر الكرام، ودخلوا في الحرب بالاقترام، ولما رأى الأفرنج صبرهم وثباتهم أنفذوا رسولاً في غضون ذلك، فبلغ الرسول أولاً إلى الملك العادل، وأخذه وأتى به إلى خدمة السلطان، ومعه الملك الأفضل أيضاً، مضمون رسالته أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان، فأجاب السلطان في الحال بأن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، ولا يحسن الحرب بعد الاجتماع والمواكلة، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة بترجمان يوثق به في الوسط، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى ويتنظم.

الثالثة : كانت يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج فارسهم وراجلهم على المسلمين من جانب البحر شمالي البلد، ولما علم السلطان ذلك، ركب وركب العسكر وانتشب القتال بينهم، وقتل من المسلمين بدوي وكردى، وقتل من العدو جماعة وأسر آخرون

منهم واحد بلبسه وفرسه، ومثل بين يدي السلطان، ولم يزل القتال يعمل إلى أن حجز الليل بينهم.

الرابعة: كانت يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى، فخرج منهم رجالة كثيرة على شاطئ النهر الجلو، فلقيتهم طائفة من اليزك، وجرى بينهم قتال عظيم، ووصلت رجالة المسلمين، والتحم الحرب، فأسروا مسلماً وقتلوه وحرقوه، وأسر المسلمون منهم واحداً، فقتلوه وحرقوه.

قال القاضي بهاء الدين: ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد، ثم مرض ملك الانكتار مرضاً شديداً أشفى منه على الهلاك، وخرج الأفرنسييس، وفارقهم المركيس، وسار إلى بلده صور خوفاً منهم أن يخرجوا ملكها من يده، وبعث ملك الانكتار إلى السلطان رحمه الله، فذكر أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نية ارسالها إليه، ولكنها قد ضعفت، وهو يطلب لها دجاجاً وطيراً لتتقوى بذلك، فعرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه بتلطف وحيلة، وحمل إليه بشيء كبير من ذلك كرمياً منه وسجية وحشمة، ثم أرسل يطلب فاكهة وثلجاً، فأرسل إليه أيضاً، فلم يقد معه الاحسان، بل لما عوفي عاد إلى أشر مما كان عليه، واشتد الحصار ليلاً ونهاراً، وأرسل من بالبلد يقولون: إن لم تعملوا معنا شيئاً غداً وإلا طلبنا من الأفرنج أماناً، فشق ذلك على السلطان، وكان أمراً عظيماً، وذلك لأنه قد سير إليها أسلحة الشام والديار المصرية وسائر السواحل، وما كان من غنيمة وقعة حطين، ومن بيت المقدس وهي مشحونة بذلك، فعزم السلطان على مهاجمة العدو، فلما أصبح ركب في جيشه، وهذه هي الواقعة:

الخامسة: ورأى السلطان أن الأفرنج ركبوا من وراء خندقهم والرجالة منهم قد ضربوا سوراً حول الفرسان، وهم قطعة من حديد لا ينفذ بها

شيء، فأحجم عنهم لما يعلم من نكول جيشه، ولكنه ما رجع إلا عن قتال إلى أن حجز الليل.

ذكر قدوم بقية عسكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار مقدمهم مجاهد الدين يرتقش، فلقيه السلطان فاحترمه وأكرمه، وكان دينا عاقلا محبا للغزو، وأنزله السلطان في الميسرة، وذلك بعد أن أنزله في خيمته، وفرح بقدومه فرحا شديدا، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر وفيهم علم الدين كرجي، وسيف الدين سنقر الدوادار، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في عسكره فلقيه السلطان بالخروبة، ونزل هناك إلى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة، ثم أصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو، فعرض عسكره هناك وأنزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف ما يليق بكرمه، وأنزله في الميمنة، وفي يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا، واشتد مرض ملك الانكتار بحيث شغل الفرنج مرضه، وكان ذلك جبرا عظيما ولطفًا جسيما من الله تعالى، فإن البلد ضعف من كان فيه ضعفا عظيما، واشتد الخناق شدة عظيمة، وهدمت المنجنقات من السور مقدار قامة الرجل، ومع هذا فاللصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ويأخذون الرجال بأن يجيء جماعة إلى واحد منهم وهو نائم، ويضعون على حلقه السكين ثم يوقظونه ويقولون له بالإشارة إن تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين، وجرى ذلك مرارا عديدة.

ذكر قوة زحفهم على البلد لعنهم الله

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنقات المتواصلة الضرب بشقيل

أحجارها حتى خلخلوا أسوار البلد وأضعفوا بنيانها، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم، وكثرة الأعمال عليهم حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً، والخلق الذين عليهم عدد كثيرة يتناوبون على القتال، ولما أحسوا بضعف المسلمين شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساماً، وتناوبوا فرقا كلما تعبت طائفة استراحت وقام غيرهم مقامهم، وشرعوا في ذلك شروعاً عظيماً براجلهم وفارسهم، وذلك في اليوم السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً، فلما علم السلطان بذلك ركب وركب العسكر بأسرهم وجمع الراجل والفارس ووعدهم ورجبهم، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين، والسلطان رحمه الله كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد والملك العادل رحمه الله حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين، والسلطان يطوف بين الأطلاب وينادي باسمه يا لاسلام وعيناه تذرفان بالدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء، وما يجري على ساكنيها من المصائب العظيمة اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة، وإنما شرب بعض أقذاح مشروب كان يشير بها الطبيب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: وتأخرت عن حضور هذه الزحوف لما عراني مرض مشوش لمزاجي وكنت في الخيمة المضروبة في تل العياضية، وأنا أشاهد الجميع، ولما هجم الليل عاد السلطان إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والحزن فنام إلا من غفو، ولما كان وقت السحر أمر بدق الكوسات، فركب وركبت العساكر من كل جانب، وأصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي هذا اليوم وصلت بطاقة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية، فما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد - يعني يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة - إن لم

تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان، ونسلم البلد، ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على سلاح جميع الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية، واحتوت على كبار من أمراء الاسلام وشجعانهم كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما، وكان قراقوش ملازماً لحراستها منذ نزل العدو المخدول عليها، وحصل للسلطان من ذلك أمر عظيم وخيف على مزاجه التشوش، وهولا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك، وهو صابر محتسب ملازم مجتهد، ثم صاح في العسكر منادي من جهته، فركبت الأطلاب، واجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف في ذلك اليوم، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم في الهجوم عليهم، فإن الرجالة من الأفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعضهم من بعض الأطراف فثبت المسلمون وذبوا غاية الذب، ولم يزل الحرب يعمل بينهم بقتل وجرح حتى حجز الليل بين الطائفتين.

ومن الغرائب أن امرأة منهم واقفة داخل سورهم عليها ملوطة خضراء، ولم تزل ترمي المسلمين بقوس من خشب حتى جرحت جماعة منهم، فتكاثر عليها المسلمون الذين دخلوا أسوارهم فقتلوها وأخذوا قوسها وحملوه إلى السلطان فتعجب من ذلك عجباً عظيماً.

وكذلك كان هناك أفرنجي راجل صعد سور خندقهم، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم، ولقد حكى من كان من الداخلين سورهم أنه وقع فيه زهاء خمسين حجراً وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدد من الذب والقتال حتى ضربه مسلم زراق بقارورة نبط فأحرقه.

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليه من كل جانب، وقلت

رجال البلد ضعفت نفوسهم لما رأوا الهلاك حقيقة، واستشعروا الضعف والخذلان، وتمكن العدو من الخنادق فملأوها، وتمكنوا من سور البلد والباشورة فنقبوا وأشعلوا فيه النار، ووقعت بدنة من الباشورة، ودخلوا فيها، وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفساً، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية، وفي غد ذلك اليوم نادى الفرنج: احفظوا هؤلاء الستة فإننا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: قد قتلناهم، فحزنوا لذلك حزناً عظيماً، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك ثلاثة أيام

ذكر خروج سيف الدين المشطوب إليهم

ولما قتل المسلمون الستة المذكورين حنق الفرنجة عليهم جداً، وجاء الليل فحال بين الفريقين، ولما أصبح الصباح خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين أحمد بن علي المشطوب، فاجتمع بملك الافرنسيس وطلب منه الأمان على أنفسهم ويتسلمون منه البلد، فلم يجبه إلى ذلك وقال له: بعد ما سقط السور جئت تطلب الأمان؟، فأغلظ له الأمير سيف الدين في الكلام، ورجع إلى البلد في حال الله بها عليهم، ولما أخبر أهل البلد بذلك خافوا خوفاً شديداً، وأرسلوا إلى السلطان يعلمونه بذلك.

وقال صاحب النوادر: ولما جرى ذلك أخذ جماعة من أهل البلد بركوساً - وهو مركب صغير - وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الاسلامي، وذلك في ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان فيهم من المعروفين: أرسك وابن الجاولي الكبير وسنقر الوشاقبي، فأما أرسك وسنقر فإنهما لما وصلا العسكر تغيبا ولم يعرف لهما مكان خشية من نقمة السلطان رحمه الله، وأما ابن الجاولي فإنه ظفر به ورمي في الزردخاناه.

وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعراً أنه يريد كبسة القوم
ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر، وتخاذلوا عن
ذلك، وقالوا: نخاطر بأهل الاسلام كلهم ولا مصلحة في ذلك، وفي ذلك
اليوم خرج من ملك الانكتار ثلاثة رسل، فطلبوا فاكهة وثلجاً وذكر وا
أن مقدم الاستتارية يخرج من الغد - يعني يوم الجمعة - فيتحدث معكم
في الصلح، فأكرمهم السلطان، ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،
وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم صارم الدين
قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجل
جماعة من أمراء الأكراد كالجنح وأصحابه، وهو أخو المشطوب، وزحفوا
حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل
قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري، وسوق
الزحف قائم، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً، واجتهد الناس
في ذلك اليوم اجتهداً عظيماً، ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى
الآخرة، خرج منهم ثلاثة رسل واجتمعوا بالملك العادل وتحدثوا معه
ساعة زمانية وعادوا إلى أصحابهم، ولم يفصل الحال في ذلك اليوم، ولما
كان يوم السبت الحادي عشر من جمادى الآخرة لبست الأفرنج بأسرهم
لباس الحرب، وتحركوا حركة عظيمة واصطفوا، وتصرم هذا النهار ولم
يفصل الحال، ولما كان يوم الأحد الثاني عشر من جمادى الآخرة وصل
من البلد كتب يقولون فيها: إنا قد بايعنا على الموت، فلا نزال نقاتل ولا
نسلم هكذا البلد ونحن أحياء، فانظروا أنتم كيف تصنعون في شغل
العدو عنا، ولا تخضعوا لهؤلاء الملاعين، وبالله المستعان، فلما سمع
السلطان هذا الخبر حط منديله على عينيه، وبكى بكاء شديداً وقال: إنا
لله وإنا إليه راجعون، وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة
قدم الأمير سابق الدين صاحب شيزر، وفي يوم الأربعاء خامس عشر
قدم بدر الدين دلدردوم ومعه تركمان كثير، وكان السلطان قد نفذ إليه ذهباً
كثيراً أنفق فيهم، وقدم في يوم الخميس سادس عشر أسد الدين شيركوه،

ومع هذا اشتد الحال على أهل البلد، فأرسل السلطان إليهم أن يخرجوا من البلد في البحر ولا يتأخروا عن هذه الليلة، فتشاغل كثير منهم في جمع الأمتعة والأسلحة، وتأخروا عن المسير في تلك الليلة، فما أصبح الخبر إلا عند الأفرنج من مملوكين صغيرين سمعا بما رسم به السلطان، فهربا إليهم فأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحر احتفاظاً عظيماً، فلم يتمكن أحد من أهل البلد أن يتحرك بحركه، ولا خرج منها شيء بالكلية، فلما أصبح السلطان بعث إلى ملوك الأفرنج يطلب منهم الأمان لأهل البلد على أن يطلق عدتهم من الأسرى الذين تحت يده من النصارى، ويزيدهم على ذلك صليب الصليبوت، فأبوا إلا أن يطلق كل أسير تحت يده ويعيد إليهم جميع البلاد الساحلية التي أخذت منهم وبیت المقدس، فأبى السلطان من ذلك، وترددت المراسلات في ذلك، والحصار يتزايد على أسوار البلد، وقد تهدم شيء كبير منها وكلما ينهدم شيء يعيد المسلمون عوضه، وصبروا على ذلك صبراً عظيماً، ولما كان يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة صالحهم أهل البلد على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من العدد والآلات والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين وصليب الصليبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذرائعهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس اللعين بعشرة آلاف دينار لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج.

ولما وقف السلطان على ذلك أنكر انكاراً عظيماً وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وعرفهم بذلك، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه، فما أحسوا بذلك إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه على أسوار البلد، وذلك في ظهيرة يوم الجمعة المذكور الآن، وصاح الأفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحددين، ووقع من العسكر الصياح

والعويل والبكاء والنحيب، ودخل المركيس اللعين البلد ومعه أربعة أعلام للملوك، فنصب علماً على القلعة، وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الاسلام، وتحيز المسلمون الذين بها إلى ناحية من البلد معتقلين مضيقاً عليهم، وقد أسرت النساء والأبناء، وغنمت منهم الأموال، وقيدت الأبطال، وأهينت الرجال.

ولما رأى السلطان ذلك، رأى التأخر عن تلك المنزلة التي هو فيها مصلحة، فإنه لم يبق وجه من المضايقة، وأمر بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفرعم، وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، وفي ذلك اليوم خرج ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان بشأن محتوى ما وقع عليه الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة ثم ساروا إلى دمشق يبصرون الأسرى، وكان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة.

ولما كان يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة خرج الأفرنج من جانب البحر شمالي البلد ومن جانب القنة وانتشروا انتشاراً عظيماً راجلهم وفارسهم، وضربوا أطلاباً للقتال، فأخبر اليك بذلك السلطان، فدقوا الكوسات وركب السلطان وأنفذ إلى اليك وقواهم برجال كثيرة، وتوقف هو حتى تركب العساكر الاسلامية واجتمعوا فوقع بين اليك وبين الأفرنج وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليك، فقتل اليك منهم زهاء خمسين نفراً، وجرح خلق عظيم، وفي ذلك اليوم وصل رسل الفرنج الذين مضوا إلى دمشق لتفقد حال أسراهم، ووصل معهم من أعيان أسراهم أربعة نفر، ثم لم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب من هذه السنة، وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب ملك الانكتار، فأخبر أن ملك الفرنسيين سار إلى صور، وطلبوا أن يشاهدوا صليب

الصلبوت وأنه هل هو في العسكر أو حمل إلى بغداد، فأحضر صليب الصلبوت، فلما رأوه سجدوا له وألقوا أنفسهم إلى الأرض ومرغوا وجوههم في التراب، وبعثوا يطلبون من السلطان ما أحضر من المال والأسرى والصليب فامتنع السلطان. إلا أن يرسلوا إليه من بأيديهم من الأسارى أو يبعثوا إليه برهائن عنده على ذلك، فقالوا : لا ولكن ترسل ذلك وترضى بأمانتنا فيهم فعرف أنهم يريدون الغدر والمكر، فلم يرسل ذلك إليهم، وأمر برد الأسارى إلى دمشق وبالصليب معهم مهانا ، ولما رأوا ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين في نهار الأربعاء الحادي والعشرين من رجب من هذه السنة، وكان الذي برز ملك الانكتار ومعه خلق عظيم من الخيالة والرجالة، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين في صعيد واحد فأوقفوهم وهم موثوقون في الحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً ضرباً وطعنأ، وذلك يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب.

قال صاحب النوادر: وكانوا قدموا خيامهم حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وتل العياضية، وكان اليزك الاسلامي قد تأخر إلى تل كيسان، ولما كان يوم الخميس التاسع والعشرين من رجب ركبت الأفرنج بأسرهم وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربي وضربوا الخيام على طريق عسقلان، وأظهروا العزم على المسير على شاطئ البحر، ولم يستبقوا من المسلمين إلا من كان أميراً أو شريفاً أو من كان له صنعة هم محتاجون إليها أو امرأة أو صبيأ، ثم رحلوا نحو عسقلان.

ذكر رحيل الأفرنج صوب عسقلان

لما كان يوم الأحد مستهل شعبان من هذه السنة اشتعلت نيران الأفرنج في سحرة ذلك اليوم، وكانت عادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل

أشعلوا النيران، ولما أخبر السلطان بذلك أمر أن لا يبقى أحد إلا على ظهر مركبه، فهلك من الناس في ذلك اليوم قماش كثير، ولاسيما من السوق لقلعة الظهر، ثم سار الأفرنج في ذلك اليوم قاصدين عسقلان، وركب السلطان أيضاً بعساكره وهم يسايرونهم ويعارضونهم منزلة منزلة ومرحلة مرحلة، وكانت مدة إقامة السلطان على عكا صابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً، وجملة من قتل من الفرنج في هذه المدة خمسون ألفاً، وسار السلطان حتى أتى القيمون عصر ذلك النهار فنزل وقد ضرب له دهليز وشقة دائرة حوله لا غير، واستحضر الجماعة وأكلوا شيئاً، واستشارهم فيما يفعل فاتفقوا على أنهم يرحلون بكزة غد، وقد رتب حول الفرنج يزكاً يسييتون حولهم ويرقبون أمرهم، ولما كان صباح الاثنين الثاني من شعبان أرسل السلطان الثقل، وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل إليه شيء من خبرهم حتى علا النهار، ثم سار في إثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها صباغين، فجلس ساعة يترقب أخبارهم فلم يأت خبر، فسار حتى أتى منزلة يقال لها عيون الأسود.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ولما بلغنا المنزلة رأى السلطان خيماً فسأل عنها، فقبل إنها خيم الملك العادل، فعدل إليه فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته، وفقد الخبز في هذا المنزل بالكلية وغلا الشعير حتى بلغ الربع بدرهم، وبلغ الرطل من البقسماط بدرهمين، ثم ركب السلطان وسار إلى موضع يسمى الملاحه يكون منزلاً للعدو إذا رحلوا من حيفا، وكان السلطان قد سبق ليتفقد المكان وأنه هل يصلح للمصاف أم لا، وتفقد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشعراء، وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته، وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال: وصل إلينا من أخبرنا من أصحابنا أنهم ما رحلوا من حيفا إلى عصر يومنا هذا يعني يوم الاثنين ثاني شعبان، وبات تلك

الليلة وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو، ونادى بالعرض، فركب الناس على ترتيب المصاف ميمنة وميسرة وقلباً، ثم عاد إلى الخيمة، وعاد الناس وقد علا النهار، ثم صلى السلطان الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً وناقصاً، ثم اتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا، ونزل الثقل بالمجدل بكرة النهار، وأقام هو باليزك جريدة إلى الصباح، ثم رحلوا إلى جهة العدو، فرحل الثقل من وقت العشاء، ولم يبق مع السلطان إلا خف من الأقمشة، وبات في منزله إلى الصباح يوم الأربعاء الرابع من شعبان، ثم ركب وسار إلى رأس النهر الجاري إلى قيسارية، ونزل جريدة هناك، وبلغ الرطل من البقسماط إلى أربعة دراهم، والربع من الشعير إلى درهمين ونصف، ولم يوجد الخبز أصلاً، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر وأكل شيئاً وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو، فلم يعد إلى أن دخل وقت العصر، فجلس ساعة ثم ركب في آخر نهار الأربعاء المذكور، ولما نزل أتى باثنين من الفرنج قد أخذهما اليزك فأمر بضرب رقابهما، وأصبح مقيماً بتلك المنزلة، ثم ركب في وقت عادته وأشرف على قيسارية وقد وصله الخبر بأن العدو لم يرحل من الملاحه، وأحضر عنده اثنان أيضاً فقتلا أشراً قتلة، ثم أحضر بين يديه منهم فارس مذكور، وسأله عن أحوال القوم وعن السعر، فأخبر الترجمان: إن أول يوم من رحيلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس، وسأله عن سبب تأخرهم في المنازل، فقال: لانتظارهم وصول المراكب بالرجال والميرة، وسأله عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم فقال: كثير، وسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك، فقال: مقدار أربعمئة فرس، ثم أمر بضرب عنقه، ثم ركب السلطان بعد صلاة العصر يوم الخميس خامس شعبان إلى أن نزل، واتى باثنين فأمر بقتلهما، وذكر له في وقت السحر أن العدو تحركوا نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد، فرحل إلى تل قريب من التل الذي كانوا عليه، وضربت الخيام، ومضى السلطان يرتاد الأراضي

الكائنة في طريق العدو لينظر أيها تصلح للمصاف، ونزل قريب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان بن جندر، وأخذ رأيها، ثم صلى الظهر وركب للتشوف على العدو، وتنسم أخبارهم، وأتاه اثنان منهم قد أخذوا فأمروا بقتلها، ثم باثنين آخرين كذلك في يوم الجمعة سادس شعبان، وجيء باثنين آخرين في آخر النهار فقتلوا أيضاً، ثم لما أصبح نادى الجاوش لعرض أجناد الحلقة لاغير، فركب إلى جهة العدو ووقف على تلّ مشرفة على قيسارية، وكان الأفرنج قد وصلوا إليها يوم الجمعة، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار، ثم نزل وأكل شيئاً، ثم ركب إلى أخيه، وعاد بعد صلاة الظهر فصلى الظهر، فأتي بأربعة عشر من الأفرنج وامرأة فرنجية بينهم أسيرة، وهي بنت فارس مشهور، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة، ورفع الباقيون إلى الزرد خاناه، وهؤلاء أتى بهم من بيروت، أخذوا في مركب من جملة عدد كثير، فقتلوا في نهار السبت سابع شعبان، ولما كان صبيحة يوم الأحد الثامن من شعبان ركب السلطان على عادته، ثم نزل فجاء من أخبر أن العدو على حركة، وأتى ثان آخر وأخبرهم أنهم ساروا فأمر بالكؤوس فدقت، وركب الناس معه وساروا.

قال القاضي بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى بمن معه إلى عسكر العدو، فصف الأطلاب حوله وأمر بقتالهم، وأخرج الجاليش، وكان الشباب بينهم كالمطر، وكان على الفرنج اللبود الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع الشباب ولا يؤثر وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم يتغرز نشابة في ظهر واحد منهم ونشابتان وثلاثة إلى عشرة وأكثر وهو يسير على هيئته من غير انزعاج، وكانوا قد أنقسموا ثلاثة أقسام: الأول الملك العتيق كي وأهل الساحل معه في المقدمة، والانكتار والفرنسية معه في الوسط، وأصحاب طبرية

وطائفة أخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة كالمنارة عليها علمهم، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين، وهم يسيرون سيراً رفيقاً، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل ونزلوا، وكانت منازلهم قريبة لأجل رجالتهم، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم على ظهورهم لقلة الظهر بينهم فانظر إلى هؤلاء الأشقياء وإلى صبرهم على هذه الأعمال من غير أجر ومن غير دنيا ودين، وكان منزلهم ذلك قاطع نهر قيسارية، ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان وصل من أخبر أنهم ركبوا سائرين وركب السلطان أول الصبح، وسار يطلب القوم، وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أطلاب، ثم لم يزل المسلمون يكرون عليهم ويحملون عليهم إلى أن أتوا إلى نهر يقال له نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهر، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانهم إياز الطويل من عماليك السلطان، ودفن على تل مشرف على البركة، ونزل السلطان بالثقل على البركة، وهو موضع تجتمع فيه مياه كثيرة، وأقام هناك إلى بعد صلاة العصر، ثم رحل وأتى نهر القصب فنزل عليه، وكان المسلمون يشربون من أعلاه والأفرنج من أسفله، وليس بينهم إلا مسافة يسيرة، وبلغ الربع من الشعير في هذه المنزلة إلى أربعة دراهم، والخبز كثير موجود، والرطل منه بنصف درهم، وأقام السلطان ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهم، وباتوا تلك الليلة هناك ووقع حرب بين طائفتين منهم ومن المسلمين، فقتل من الفرنج جماعة ومن المسلمين اثنان وأسر منهم ثلاثة، فسأل السلطان عنهم فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان فأخبرا بقلعة عدد العسكر الاسلامي، ولما جرى بالأمس ما جرى طلب البدويين فضرب أعناقهما، وأخبروا أن المجروحين منهم كانوا زهاء ألف نفس، والمقتولين جماعة، ولما كان ظهر يوم الثلاثاء العاشر من شعبان رأى السلطان التقدم على العدو فدق الكؤوس ورحل ودخل في شعراء أرسوف حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب، فنزل هناك وأقام ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر من شعبان،

وجاء من أخبار العدو أنهم مقيمون على نهر القصب، وأنه لحقهم نجدة من عكا في ثمانى بطس كبار، ويزك الاسلام حولهم يواصلون بالأخبار التي تتجدد، وجرى بين اليزك وحشاشة الأفرنج قتال، وجرحت جماعة من الطائفتين، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر، فأرسلوا إليه من يسمع كلامه، وحاصل سؤالهم الاستئذان بالاجتماع بالملك العادل، فأذن له السلطان في المضي إليهم، فجاء إلى اليزك وبلغ الخبر إلى ملك الانكتار، فاجتمعا بحده من أصحابهما، وكان يترجم بينهما ابن الهنفرى، وهو من فرنج الساحل من كبارهم.

قال قاضي القضاة: ورأيت يوم الصلح وهو شاب حسن، إلا أنه مخلوق اللحية على شعارهم، وكان كلام الرسول في الصلح طلب عود البلاد إليهم كما كانت، وأن المسلمين ينصرفون إلى بلادهم، فلما سمع العادل هذا الكلام أغلظ في الجواب وجرت منافرة واقتضت أنهم رحلوا، وأما الأفرنج فانهم نزلوا على موضع يسمى البركة مشرف على البحر، وأصبح السلطان في صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان في قرية تسمى بركة وأقام مطلب الاطلاع متطلعاً إلى أخبار الأفرنج، وأحضر عنده اثنان منهم قد مسكها اليزك فأمر بضرب أعناقهما.

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يوم السبت الرابع عشر من شعبان بلغ السلطان أنهم قد تحركوا للرحيل نحو أرسوف، فركب ورتب الأطلاب للقتال، وعزم في ذلك اليوم على مصافة القوم، وأخرج من كل طلب جاليشاً وسار الأفرنج حتى قاربوا شعراء أرسوف وبساتينها، وأطلق عليهم الجاليش الشباب ولزتهم الأطلاب من كل جانب، والتحم القتال واضطربت نارها من الجانبين، وقتل منهم طائفة وجرح آخرون، واشتدوا في السير

لعلهم يبلغون المنزلة فينزلون، واشتد بهم والسلطان رحمه الله يطوف من الميمنة إلى الميسرة، ويحث الناس على الجهاد.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: لقيته مراراً وليس معه إلا صبيان بجنييه لا غير، ولقيت أخاه وهو على مثل حاله، والنشاب يتجاوزهما، ولم يزل الأمر يشتد بالفرنجة، وطمع فيهم المسلمون طمعاً عظيماً حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف، ثم اجتمعت الخيالة وتواضعوا على الحملة فحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب، فاندفع الناس بين أيديهم.

قال قاضي القضاة: واتفق أني كنت في القلب، ففر القلب فراراً عظيماً، فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إليّ فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة، ثم نويت التحيز إلى الميمنة فرأيتها وقد فرت أشد فراراً من الكل، ثم نويت التحيز إلى السلطان، وكان رداً الاطلاب كلها كما جرت عادته بذلك، فأتيته ولم يبق معه إلا سبعة عشر مقاتلاً لا غير، لكن الأعلام كلها باقية، والكوسات تدق لاتفر، ثم وقف الأفرنج خوفاً من الكمين، وقاتلوا وهم واقفون، ثم حملوا حملة ثانية، ففروا وهم يقاتلون في فرارهم، ثم وقفوا وحملوا ثالثة حتى بلغوا إلى رؤوس رواب هناك وأعلى تلول، وقفوا هناك، وأما المسلمون بعد أن فروا فقالوا كل من رأى طلب السلطان واقفاً والكوسات تدق يستحي أن يتجاوز، ويخاف غائلة ذلك، ويعود إلى الطلب، فاجتمع عند الطلب خلق عظيم، ووقف الأفرنج قبالتهم على رؤوس التلال والروابي والسلطان رحمه الله واقف في طلبه لا يتحرك حتى رجعت الناس بأسرهم، وخاف الأفرنج أن يكون في الشعراء كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة، وعاد السلطان إلى تل في أوائل الشعراء ونزل عليه بلا خيمة، وقال قاضي القضاة: ولقد كنت في خدمته وأسلية وهو لا يقبل، وظلل عليه شيء، وأحضر بين يديه شيء من الطعام فتناول شيئاً يسيراً، وبعث الناس خيولهم للسقي، فإن الماء كان

بعيداً، وجلس ينتظر حتى يعودوا من السقي، والجرحى يحضرون بين يديه وهو يداويهم ويحملهم وقتل في ذلك اليوم رجاله كثيرة وجرحت جماعة من الطائفتين، وكان ممن ثبت في هذه الواقعة الملك العادل والطواشي قايباز النجمي والملك الأفضل ولد السلطان، صدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب، وثبت أيضاً في ذلك اليوم طلب الموصل، ومقدمه علاء الدين، وشكره السلطان على ذلك، وتفقد الناس بعضهم بعضاً، فوجدوا قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم أمير شكار موسك، وكان رجلاً شجاعاً معروفاً، وقايباز العادي، وكان مذكوراً، وأبقوش، وكان شجاعاً أسف السلطان عليه وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسر واحد فأحضر، فأمر السلطان بضرب عنقه، وأخذت منهم خيول أربعة، ثم أمر السلطان أن يتقدم الثقل إلى العوجاء، وكان الأفرنج نزلوا على قبلي أرسوف، ونزل الثقل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضرة على جانب النهر، ووصل السلطان في آخر النهار، وازدحم الناس على القنطرة، ونزل السلطان على تل مشرف على النهر، ولم يعبر الخيمة، وأقام السلطان إلى سحرة ليلة الأحد الخامس عشر من شعبان من هذه السنة، ثم دق الكؤوس وركب وركب الناس وسار راجعاً إلى جهة العدو حتى وصل إلى أرسوف، وصف الأطلاب للقتال وجاء خروج الأفرنج ومسيرهم حتى يصادمهم، فلم يرحل الملاحين في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراحات، فأقام السلطان قبالتهم إلى آخر النهار، ثم عاد إلى منزلته التي بات بها، فبات بها ليلة الاثنين السادس عشر، ولما كان يوم الاثنين دق الكؤوس، وركب وركب الناس، وسار نحوهم، وبلغ إليه خبرهم أنهم رحلوا طالين جهة يافا، وسار حتى قاربهم جداً ورتب الأطلاب ترتيب القتال، وأخرج الجاليش، وأحرق العسكر الاسلامي بالقوم وألقوا عليهم من النشاب ماكاد أن يسد الأفق، وقاتلهم قتالاً عظيماً والملاحين لم يحملوا بل حفظوا نفوسهم،

وساروا مصطفىين على عادتهم حتى أتوا نهر العوجاء، وهو النهر الذي كان منزل المسلمين أعلاه، فنزلوا في أسفله، وعبر بعضهم النهر وأقام الباقيون من الجانب الشرقي، وعاد السلطان أيضاً إلى الثقل، ونزل في خيمته وأكل الطعام ثم أتى بأربعة من الأفرنج وقد أخذتهم العرب، ومعهم امرأة، فرفعوا إلى الزردخاناه، وأقام السلطان بقية اليوم في تلك المنزلة وكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر، وحضر من أخبره أنه قتل من الفرنج يوم أرسوف خيول كثيرة وأن العرب يتبعونها فعدوها فزادت على مائة، وجرح أيضاً من خيل المسلمين شيء كثير، ثم أمر السلطان برحيل الجمال إلى الرملة، وبات في تلك المنزلة، ولما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير، وسار يريد الرملة، وأتى باثنين من الأفرنج فأمر بضرب أعناقهما، وجاء خبر من اليزك بأن الفرنج رحلوا قاصدين يافا، وسار السلطان إلى الرملة ونزل في الثقل الكبير وأتى باثنين من الأفرنج أيضاً فسألها عن أحوال القوم فذكرا أنهم ربما يقيمون في يافا أياماً وفي أنفسهم عمارتها واشحانها بالرجال والعدد، فأحضر السلطان أرياب المشورة وشاورهم في أمر عسقلان هل تخرب أم تبقى، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر قريباً من العدو لأجل الأخبار، وأن يسير السلطان إلى عسقلان ويخربها خشية من أن يتولاهما الأفرنج فيأخذوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، فعند ذلك أمر السلطان برحيل الثقل الجمالي من أول الليل، وأمر ولده الملك الأفضل أن يسير عقيب الثقل في نصف الليل، ثم سار السلطان في سحرة يوم الأربعاء الثامن عشر من شعبان، ووصل إلى بينى فنزل بها، وأخذ الناس راحة، ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان بعد صلاة العصر، وقد ضربت خيمته بعيداً منها شمالي البلد في أرض طيبة، فبات هنا مهموماً بسبب تخريب عسقلان، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: فطلبني في تلك الليلة وقت السحر، وشرع في حديث عسقلان وتخريبها وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في ذلك، وقال: والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن أهدم منها حجرا واحدا، ولكن إذا قضى الله بذلك، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع؟!

ذكر تخريب عسقلان

ثم استخار السلطان فأوقع الله في قلبه أن المصلحة في تخريبها لعجز المسلمين عن حفظها عن الأفرنج، فاستحضر الوالي بها يدعى قيصر، من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم، فأمره أن يضع فيها المعاول، وذلك في سحرة ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما يخربونه، ودخل الناس البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء، وكانت بلدة نضرة حسنة خفيفة على القلب محكمة الأسوار عظيمة البناء، مرغوبا في سكنها، فلحق الناس حزن عظيم، وعظم عويل أهلها وبكاؤهم على مفارقة أوطانهم، وشرعوا في بيع ما لا يمكن حمله، وبيع ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد، ورمى الناس أقمشتهم بالثمن البخس حتى بيع اثني عشر طيرا من الدجاج بدرهم واحد، واختبط البلد، وخرج أهله إلى العسكر بذرايعهم ونسائهم خشية أن يهجم الأفرنج البلد، وبذلوا في الكرى أضعاف ما يساوي، فقوم إلى مصر و قوم إلى الشام، وقوم يمشون لم يقع لهم كراء، وجرت أمور كثيرة وبلية عظيمة لعلها لم يكن مثلها، وكان السلطان وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في التخريب والحث عليه خشية أن يسمع الأفرنج فيحضرون ولا يمكن تخريبها، وبات الناس على أشد حال من التعب والنصب، وفي تلك الليلة حضر من الملك العادل من أخبر أن الأفرنج تحدثوا معه في الصلح، وأن ابن الهنفري جاء إليه وتحدث معه في ذلك، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة

لما رأى في أنفس الناس من الضجر والملالة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك، وفوض أمر ذلك إليه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الإصرار على التخريب واستعمال الناس فيه، وأباح لهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من لحوق الأفرنج، وأمر بتحريق البلد، وأضرمت النار في البيوت والآدر فاضطربت النيران فيها، ورمى الناس غالب أقمشتهم للعجز عن نقلها، وفي أثناء ذلك الأخبار تتواتر من جانب الأفرنج بعمارة يافا، وأن كل وقت يجري بينهم وبين اليزك وقعات.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولم يزل التخريب والتحريق يعملان في عسقلان وأسوارها إلى سلخ شعبان من هذه السنة، وكانت عظمة البناء بحيث أن بعض سورها كان عرضه تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر - أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح.

قال القاضي: ووصل في أثناء ذلك جرديك بكتاب فيه أن الأفرنج قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ غرضه منهم في غرتهم، فعزم السلطان على الرحيل، وعلى أن يخلف حجارين في عسقلان ومعهم من يحميهم حتى يستقصوا في التخريب، ثم رأى أن يتأخر إلى أن يحرق البرج المعروف بالاسبتار، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة، وأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه.

قال القاضي: ولقد رأيت يحمي الخشب هو وخواصه لتحريق البرج، ولم يزل الناس ينقلون الأعشاب ويحشونها في البرج حتى امتلأ، ثم

اطلقت فيها النار، وبقيت النار تشتعل فيها يومين وليلتين، ثم رحل السلطان ليلة الثلاثاء الثاني من رمضان من نصف الليل، ووصل إلى بينى ضحوة نهار الثلاثاء، ونزل في خيمة أخيه الملك العادل ، واستعلم منه الأخبار، ثم قام ونزل في خيمته، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

ذكر رحيل السلطان إلى الرملة

ولما أصبح السلطان يوم الأربعاء الثالث من رمضان رحل إلى جهة الرملة، فسار حتى أتاه ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير هناك نزول إقامة، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا، ومد السباط للناس، ثم أخذ بعض راحة ثم ركب بين الصلاتين وسار إلى لد فرآها ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بتخريبها وتخریب قلعة الرملة أيضا، ووقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم، وفرق الناس لتخريب المكانين وأباح ما فيها من التبن والشعير في الاهراء السلطانية، وأمر من كان بهما من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامة ، وما كان بقي من المكانين إلا نفر يسير، ثم عاد السلطان إلى خيمته، ولما أصبح يوم الخميس الرابع من رمضان أقام الحجارين في المكانين، ورتب عندهم من يستخدمهم في ذلك وهو يتردد إليهم في الأصايل، ثم وقع له أن يسير خفية في نفر يسير ليشاهد أحوال القدس الشريف، وخلف أخاه العادل في العسكر يحث الناس على الخراب فسار من أول الليل حتى أتى القدس الشريف في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور، وصلى الجمعة وأقام ذلك اليوم يتفقد أحوال الناس وأحوال القدس في عمارته وميرته وعدته وغير ذلك، وظفر بنفر من النصارى معهم كتب إلى الافرنج، فضرب أعناقهم، ولم يزل مقبيا في القدس إلى يوم الاثنين الثامن من رمضان، ولما كان يوم الاثنين خرج قاصدا العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة.

ذكر مجيء معز الدين صاحب ملطية

وفي يوم الاثنين المذكور وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه ابن قليج أرسلان وافدا على السلطان مستنصرا على أخوته وأبيه لأنهم كانوا قاصدين أخذ بلده منه، فلقية الملك العادل عند لد واحترمه وأكرمه، ثم لقيه بعده الملك الأفضل ولد السلطان، وضرب خيمته قريبا من لد.

وفي تاريخ النويري: وسبب قدومه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك، فسار إلى السلطان ملتجئا إليه، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطع طمع أخيه منه.

وقال ابن الأثير: ولما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترحل معز الدين فترجل السلطان صلاح الدين، ولما ركب عضده قيصر شاه وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين في نفسه: ما بقيت تبالي يا ابن أيوب بأي موتة تموت: يركبك ملك سلجوقي ويصلح قماشك ملك أتابكي زنكي، وفي يوم قدوم معز الدين وصل الخبر إلى العسكر أن جماعة من الحشاشين من الأفرنج خرجوا يحشون، فحمل عليهم اليزك الاسلامي، ووصل الخبر إلى عسكرهم، فخرجت في نصرتهم جماعة وجرى بينهم وبين اليزك قتال، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم ملك الانكتار، وأن شخصا من المسلمين قصد طعنه، فحال بينه وبينه فرنجي، فقتل الفرنجي وجرح هو.

ذكر عودة السلطان إلى المعسكر

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان المذكور وصل السلطان إلى المعسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدمه وأقام يحث على الخراب، ولم تزل أخبار العدو عنده، ولم يزل يقع بين اليك وبين الأفرنج وقعات وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

وفي أثناء ذلك اليوم وصل رسول من المركيس يذكر أنه يصلحهم بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجاب السلطان وسير إليه العدل النجيب، وكان المركيس هذا خشنا ملعونا، وكان لما استشعر من الأفرنج أخذ بلده صور منه استعصم بها، وانحاز عن الفرنج، ولذلك أجاب السلطان إلى كلامه، وسير العدل النجيب مع رسوله يوم الجمعة ثاني عشر رمضان، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة عداوة القوم وحصار عكا وأخذها وإطلاق من بها من الأسرى، وكذلك من كان بصور من الأسرى، فإذا فعل ذلك يسلم إليه صيدا وبيروت.

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان تأخر السلطان بالمعسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم إلى العلوفة، فإنهم كانوا على الرملة قريبين من الأفرنج، فنزل السلطان على تل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجميع المعسكر ما عدا اليك وذلك بعد خراب الرملة ولد، ويوم نزوله هناك أمر بتخريب النطرون، وكانت قلعة منيعة.

وفي السابع عشر من رمضان جاء الخبر من اليك بأخبار طيبة منها خبر هلاك الأفرنسييس، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له، ومنها أن ملك الانكتار عاد إلى عكا، وذلك لما صح عنده مراسلة المركيس إلى السلطان فيما ذكرنا.

ذكر سير الملك العادل إلى القدس

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان اقتضى الحال تفقد أحوال القدس، والنظر في عمائرهم، فتعين لذلك الملك العادل، فسار إليه وعاد منه إلى العسكر يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وفي أثناء هذه الأيام وصل كتاب من الملك المظفر تقي الدين يخبر أن قزل أرسلان صاحب ديار العجم قفز عليه أصحابه فقتلوه، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة.

وفي هذا التاريخ وصلت مراكب العدو، وقيل إنها وصلت من عكا وأن ملك الانكتار فيها بجماعة عظيمة وقصده عمارة عسقلان، وقيل قصده أخذ القدس، ووصلت جماعة من الأسرى كانوا من عكا أخذهم اليك من موضع يقال له الزيب، ووصل رسول قزل أرسلان، كان قد سيره قبل موته، ورسول ابن أخيه اينانج، ورسول ملك الانكتار ومعه حصانه إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه، ووصل خبر وفاة حسام الدين بن لاجين بدمشق بسبب مرض عرض له، فحزن عليه السلطان، ووصل كتاب من سامة يذكر فيه أن الأبرنس صاحب أنطاكية - لعنه الله - أغار على جيلة واللاذقية، وأنه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية مخذولا، ووصل رسول من ملك الانكتار يقول: خربت البلاد وهلك المسلمون والافرنج وتلفت الأموال، وقد بلغ الأمر غايته، وما ثم شيء في الوسط سوى القدس والصليب والبلاد وأما القدس فإنه متعبدا ما نفرغ عنه ولو لم يبق منا أحد، وأما البلاد فتعاد إلينا من حد الأردن، وأما الصليب فإنه خشبة لا مقدار لها عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن السلطان بهذه الأشياء علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء البدائم، ولما وقف السلطان على هذا أجاب بأن القدس لنا كما هو لكم، بل هو أعظم عندنا مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ومجمع الملائكة فلا يتصور أن نتركه ولا نقدر

على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها صار لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فحرقه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام .

ذكر هروب شيركوه بن ما خل الكردي من عكا

وكان أسيرا فيها ووصل إلى عسكر الاسلام في أواخر يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان وكان من الأمراء الأكراد الزرزاريين، وأخبر أنه هرب ليلة الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وكان ادخر له حبلا في مخدة، وكان الأمير حسين بن باريك ادخر له حبلا في بيت الطهارة، فاتفقا على الهروب، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة، وانحدرا من السور الأول، وعبر شيركوه من الباشورة، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل، ونزل شيركوه سليما، وأنه أتى إليه وحركه فلم يتحرك، فخاف إن مكث أخذ، فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى إلى تل العياضية، وقد طلع الصبح، فكمن في الجبل حتى علا النهار، وكسر قيوده وسار، فستر الله عليه حتى أتى العسكر في الوقت المذكور، وأخبر أن سيف الدين بن المشطوب ضيقوا عليه وقطعوا عليه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأموال، وأن ملك الانكتار أتى عكا وأخذ كل من كان بها من خدمه ومماليكه وأقمشته، ولم يخل له فيها شيئا، وأن فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مدا عظيما، وأن طغرل السلاحدار أخذ خواص مماليك السلطان فهربوا قبل هروب شيركوه.

ذكر بقية الأخبار

منها أن في يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان استدعى الملك العادل قاضي القضاة بهاء الدين، وأحضر جماعة من الأمراء: علم

الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم، وحسام الدين بشارة وقال لهم: إن ملك الانكتار أرسل إليه يقول له: إن العادل يتزوج بأخته، وكان قد استصحبها معه من صقلية، وكانت زوجة صاحبها ومات عنها، وأن يكون مستقرها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان، وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن السلطان يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والاقطاعات، وأن يسلم إليهم صليب الصليبوت وتكون القرى للداوية والاسبتار وأنا أفك أسراكم، وأنتم تفكون أسرانا، فإذا استقر الصلح على هذا يرحل ملك الانكتار إلى بلاده في البحر وينفصل الأمر

قال القاضي: فلما حضرنا عند السلطان عرضت عليه هذا الحديث فبادر إلى الرضى بهذه القاعدة معتقدا أن ملك الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا، وأن هذا منه هزو ومكر.

قال: ثم عدنا إلى الملك العادل وعرفناه بذلك، ولما كان يوم الأربعاء الثاني من شوال سار ابن النحال رسولا من جانب العادل والسلطان أيضا إلى ملك الانكتار، فلما عرف بقدمه أنفذ إليه من قال له: إن الملكة أخت الملك عرض عليها أخوها حديث النكاح فسخطت من ذلك وغضبت وأنكرت أن يكون ذلك انكارا شديدا، وحلفت أنه لا يكون أصلا، ثم قال أخوها: إن الملك العادل يتنصر فأنا أتم ذلك، فعاد الرسول بذلك وأخبر العادل والسلطان به، وتحقق ما قاله السلطان.

ومنها أن في يوم السبت خامس شوال وصل الخبر من الاسطول الاسلامي أنه استولى على مراكب للأفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وأكثر، وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة أنفس وهم كبار مذكورون، فسر المسلمون بذلك وضربت البشائر.

ومنها أن في يوم الأحد سادس شوال جمع السلطان أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهم في أن الأفرنج قد أجمعوا على الخروج، وأنه كيف يصنع في ذلك، فاتفقت آراؤهم على الإقامة في منزلتهم بعد تخفيف الأثقال، فإن خرجوا لاقوهم، وفي عشية هذا اليوم استأمن من الأفرنج اثنان فارسان وأخبرا أنهم على عزم الخروج يوم الثلاثاء، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس، ولكن لا يعرف قصدهم، ثم جاء أسير مسلم هرب منهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة، ثم يتفقدون فيها على موضع يقصدونه، ولما تحقق السلطان ذلك أمر بتجهيز العسكر، وشد الرايات وأن يقف قبالتهم إن خرجوا، وسار يوم الاثنين حتى أتى قبلي كنيسة الرملة فخيم هناك وبات ليلته، ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء الثامن من شوال رتب الأطلاب للقتال، وسلم اليك للملك العادل، وتبعه من يريدون الغزاة، فخرجوا في جملة من خرج، فلما وصلوا إلى خيام الأفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية ورموا عليهم بالنشاب، وقام الأفرنج وركبوا وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع كثير، فنجا من سبق به جواده، وظفروا بجماعة قتلوا منهم ثلاثة نفر على ما قيل، ونقلوا خيامهم إلى يازور وأقام السلطان بلقاء منازلهم إلى الصباح، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من شوال ركب السلطان نحوهم فأشرف عليهم ثم عاد.

قال القاضي: ثم استدعاني وجماعة من الأمراء، وأمر الناس بإبعادهم عن الخيمة، فأخرج كتابا من قبائه وفضه ووقف عليه، وبدرت دموعه، وغلبه البكاء والنحيب حتى وافقه الحاضرون على ذلك من دون علم، السبب، ثم ذكر أن الملك المظفر قد توفي إلى رحمة الله، وأمر بكتف ذلك عن الناس لئلا يصل الخبر إلى العدو، وكانت وفاته في تاسع عشر رمضان يوم الجمعة على ما نذكره انشاء الله.

ومنها: أن في يوم السبت الثاني عشر من شوال وصل من دمشق كتاب من النواب بها، وفي طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي يتضمن فصولا ثلاثة:

الأول: الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بکتمر.

والثاني في الانكار على مظفر الدين في مسك حسن بن قفجاق والأمر بإعادته إلى الكرخاني.

الثالث: فيه الأمر بإحضار القاضي الفاضل إليهم ليقال له أتياء: فأجاب السلطان عن الأول بأنا لم نأمره بذلك، وعن الثاني بأن ابن قفجاق لا يخفى ما تصدى له من الفساد في الأرض، وعن الثالث بأنه كبير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة.

ومنها أن في السادس عشر من شوال أمر السلطان للحلقة بالكمين للعدو في بطون أودية هناك واستصحبوا جمعا من العرب، فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب في مناوشتهم، وكانت منهم جماعة تخرج للاحتشاش والاحتطاب، فنزل عليهم العرب ووقع الحرب وقام الصياح، فركبت جماعة من خيالة الأفرنج، وانهزمت العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين، فخرج الكمين ووقع الصياح وانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم، ثم ركب منهم خلق عظيم فالتحم القتال، وقتل جمع من الطائفتين، وأسرت جماعة من العدو، وأخذت منهم خيول كثيرة، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعاء السادس عشر من شوال، واستشهد في هذه الواقعة إياس المهراني، وكان شجاعا معروفا، وجاوي غلام الفيدي، وصرع إياز المعظمي، وجرح جماعة عدة، وقتل من العدو زهاء ستين نفرا، وأسر فارسان معروفان، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما.

ومنها أنه وصل في بقية هذا اليوم رسول من عند ملك الانكتار إلى

الملك العادل يعتب عليه من جهة الكمين وأنه يطلب الاجتماع به، فأذن له، ولما كان يوم الجمعة الثاني عشر من شوال سار الملك العادل، ومعه من الأطعمة والتجملات والتحف ما يحتمل من ملك إلى ملك، وجاء إليه ملك الانكتار في خيمته فأكرمه العادل واحترمه، ووصل معه أيضا من طعامهم الذي يختصون به، فأتحف به الملك العادل على وجه مطاييته، فتناول منه العادل وتناول هو وأصحابه من طعام العادل، وقدم إليه ما كان حمله معه، وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصيلا عن تواد ومطايية.

ومنها: أن في يوم السبت التاسع عشر من شوال حضر صاحب صيدا بين يدي السلطان ومعه جماعة وأكرمه السلطان اكراما عظيما، وقدم بين يديه طعاما، ولما رفع الطعام خلا بهم، وكان من حديثه أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور، وقد انضم إليه جماعة من أكابر الأفرنج، وكان من شرط الصلح معه اظهار عداوته للأفرنج البحرية، وبذل له السلطان موافقة على ذلك.

ومنها أن في عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار وهو ابن الهنفرى، وكان من أكابرهم وملوكهم، ومن أولاد ملوكهم، وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة، فأحضره السلطان، وكانت رسالته: إن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه، ونقسم البلاد بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا علة بالقدس، ومقصودي أن نقسم البلاد بحيث لا يكون عليك لوم من المسلمين، ولا علي لوم من الأفرنج، فأجابه في الحال بوعده جميل، ثم أذن لهم بالعود في الحال.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ثم التفت السلطان في

المجلس وقال لي: متى صالحناهم لم نأمن من غائلتهم، فإني لو حدث بي حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الأفرنج، والمصلحة الثبات على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه وغرضه رحمه الله.

ولما كان يوم الاثنين الحادي والعشرين من شوال جمع السلطان الأمراء الكبار وأرباب المشورة من الدولة، وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس، واستقر الأمر من جانبه عليها وهي أخذ صيدا، وأن يكون معنا على الفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة، وذكر لهم القاعدة التي التمسها ملك الانكتار، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معينة، وتكون لنا الجبلية بأسرها، وتكون القرايا كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم أقساء في بيع القدس الشريف وكنائسه، وشرح لهم السلطان هاتين القاعدتين وأخذ رأيهم في ترجيح أحد القسمين. وهما من جانب ملك الانكتار ومن جانب المركيس، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن ملك الانكتار فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخاطونهم بعيدة، وصحبتهم غير مأمونه، وانفض الناس وبقي الأمر مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح، وهي أن ملك الانكتار كان قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية والفرنجية لهما، أما الفرنجية فلها من جانب الملك وأما الإسلامية فللملك العادل من جانب السلطان، وكان آخر رسائلهم من الملك أن قال: إن معاشر دين النصرانية أنكروا علي كون أختي تحت مسلم بدون مشاورة الباب، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير إليه رسولا يعود في ستة أشهر، فإن أذن في ذلك فيها ونعمت، وإلا زوجتك ابنة أختي، وما أحتاج في ذلك إلى إذن الباب، هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عمال، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الأفرنج وقتال المسلمين لهم، وكلما رآه الأفرنج مع الملك العادل تحركوا للصلح خوفا من

انكسار الشوكة لهم، ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شوال، ففي يوم الجمعة أصبح السلطان عازما على الرحيل وسار إلى تل الجزر لارتياح المنزل، فنزلت الناس كلهم مع السلطان، ولما عرف الأفرنج بعود السلطان رحلوا عائدين، وأقام السلطان بتل الجزر، ثم رحل إلى جهة القدس الشريف، ورحل الأفرنج إلى بلادهم واشتد الشتاء وعظمت الأمطار، وأعطى السلطان دستوراً للعساكر وأقام بالقدس في هذا الشتاء أجمع، ونزل السلطان في دار القساقس قريبا من القمامة، وكان نزوله في ذي القعدة من هذه السنة، وشرع في تحصينه وتعميق خنادقه، وعمل فيه بنفسه وأولاده وأمرائه، وعمل القضاة والعلماء والصوفية بأنفسهم، وكان وقتا مشهودا، واليزك حول البلد من ناحية الأفرنج، وفي كل وقت يستظهرون على الأفرنج ويقتلون ويغنمون منهم، وانقضت السنة والأمر على ذلك، وأرصد ملك الانكتار في يافا عساكر، ثم عاد إلى عكا لينظر في أحوالها وأقام مدة.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة

منها أنه استقر الحال مع الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه أن يأخذ الرها وحران وسمسياط وينزل عن كل الذي بالشام: بصرى، وعمان، والبلقاء، ومن حلب: المعرة ومنبج، والمستقر بيده حماه وسلمية واللاذقية وجبله وبلاطنس وبكسرايل، ثم لم يلبث أن أدركته الوفاة على ما ذكره في الوفيات إن شاء الله تعالى.

ومنها أن السلطان صلاح الدين أرسل إلى ولده الظاهر أن يخرب حصن بغراس، فبلغ ذلك ابن ليفون صاحب سيس فسار إليها فأخذها بغير قتال.

ومنها أن السلطان أخرب عسقلان كما ذكرنا، وأخرب غزة والداروم أيضا، واهتم بعمارة القدس الشريف.

ومنها أن السلطان عزل أبا حامد محمد بن عبدالله بن أبي عصرون
عن قضاء دمشق، وولى محيي الدين بن زنكي الدين، قالوا: وسبب عزل
ابن أبي عصرون مداخلته الجند واشتغاله بما يشتغل به الأمراء من اتخاذ
الخيول والمماليك والنزل ومباشرة الحروب، ومعاملة الأمراء ومداينتهم
فتبرم السلطان منه وعزله...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير سليمان بن جندر: من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين
النورية والصلاحية، وهو والد علم الدين بن سليمان، وشهد سليمان مع
صلاح الدين حروبه، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية
على حفظ القدس، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان، فطلب
المسير إلى حلب فأذن له السلطان فسار فتوفي بغياغب في أواخر ذي
الحجة وحمل إلى حلب فدفن بها.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين: صاحب نابلس، وأمه
ست الشام بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين، واقفة الشاميتين
بدمشق، توفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السلطان به وبابن
أخيه تقي الدين عمر، لأنها ماتا في ليلة واحدة، وقد كانا من أكبر
الأعوان، وأعز الأخوان، ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي
التي أنشأتها له بمحلة العوينة، وهي الشامية البرانية، وكانت وفاته
بدمشق، وكان شجاعا مقداما

الأمير الكبير الصفّي بن القابض: نائب دمشق، وكان من أكبر
أصحاب السلطان صلاح الدين قبل الملك، ثم استنابه على دمشق

وفي المرأة: الصفّي بن القابض: وزير صلاح الدين، واسمه نصر

الله، وكان خدم السلطان لما كان شحنة دمشق، وأمده بالمال، فرأى له ذلك، فلما ملك استوزه وكان شجاعا ثقة دينا أميناً، ولما نزل الفرنج داريا والسلطان في الشرق، جمع من أهل دمشق سوادا عظيماً، وخرج إلى ظاهر البلد، فظنّوهم عسكرياً، فرحلوا، وكان كبير المعروف، وكتب أملاكه لهما ليكه لأنه لم يكن له ولد، وبني بالعقبة مسجداً ودفن به في رجب، ويعرف اليوم بمسجد الصفي، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب رحمه الله...

الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب: كان عزيزاً عند عمه السلطان صلاح الدين، استنابه بمصر وغيرها من البلاد، ثم أقطعه حماه ومدناً كثيرة معها حولها، ومن بلاد الجزيرة، وكان مع عمه على عكا، ثم استأذنه في الإشراف على بلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها اشتغل وامتدت عينه إلى أخذ غيرها من أيدي الملوك الذين يجاورونه، فقاتلهم، فاتفق موته وهو على ذلك، والسلطان متغضب عليه بسبب اشتغاله بذلك عنه.

وقال العماد الكاتب: توفي الملك المظفر تقي الدين عمر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رمضان، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية، وكنتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته إلى أن أخرج من ذلك الإقليم سالماً، وبعث إلى السلطان يسأله في إبقاء بلاد أبيه بيده، فلم يجب السلطان إليه.

وقال النويري: قد سار الملك المظفر تقي الدين عمر إلى البلاد المرتجة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى البلاد المجاورة، واستولى على سويداء وحاني، وتواقع مع بكتمر صاحب أخلاط فكسره

وحصره في أخلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونزل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به حتى توفي يوم الجمعة لحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، فأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه فدفنه بها بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة مشهورة هناك، وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركننا عظيما من أركان البيت الأيوبي، وكان عنده فضل أدب وله شعر حسن.

ثم أرسل الملك المنصور إلى السلطان صلاح الدين، واشترط عليه شروطا، نسبه السلطان فيها إلى العصيان، وكاد أمره يضطرب بالكلية، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماه، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها، وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء إلى القدس شرفه الله، ولما استقر ذلك، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، فقررها وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، ولما قدم العادل على السلطان صلاح الدين كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور ابن تقي الدين عمر نهض واعتنقه وبكى وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره.

وقال بيبرس في تاريخه: توفي الملك المظفر تقي الدين بأرض أخلاط في حصار منازكرد، ودفن بميفارقين، ثم نقل إلى حماه رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، وصاحب مصر والشام وغيرهما من البلاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو مقيم في القدس الشريف في دار الأقساء بجوار قمامة، وقد قسم السور بين أولاده وأجناده، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بينه وبين قربوس سرجه، والناس يقتدون به والعلماء والفقراء ويعملون بأنفسهم والأفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان وما ماوالاها لا يتجاسرون أن يتقدموا من اليك والحرس الذين للسلطان حول القدس، إلا أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الاسلام مجمعون، وهم والحرس تارة يغلبون وتارة ينهبون وتارة يُنهبون.

ذكر رحيل الفرنج إلى عسقلان

قال العماد الكاتب رحمه الله : رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها، وتشاوروا في إعادة عمائرهما، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين في بعض أعماها مجدين في نقل غلالها، وركب ملك الانكتار عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند ابليس، فشهد دخانا على البعد، فساق متوجها إلى تلك الجهة، وتبعه عسكره، فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة بغتة، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار، وكانوا نازلين في موضعين، فلم ير العدو إلا أحد القسمين ، فقصد بهزبه، فعرف القسم الآخر بهجوم العدو، فركبوا إلى العدو فدفعوه من بين أيديهم، وساقوا أثقالهم قدامهم، وما فقد من المسلمين إلا أربعة أنفس، ونجا الباقون وكانت نوبة عظيمة رفع الله خطرهما.

ذكر السرايا الثلاث

بتاريخ يوم الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان صلاح الدين في

القدس على عادته في نقل الحجارة والجد في العمارة، ومعه أولاده الملوك والأمراء والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والأولياء، ولما دخل وقت الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك الظاهر بالصحراء، وأحضر فيها السباط ودعا ناسا من الأمراء فحضروا وأكلوا، وصلى السلطان الظهر هناك وركب عائدا إلى داره وأمر بتجهيز السرايا، فنزل عز الدين جرديك في سرية، فأغار بهم يوم الأربعاء الحادي عشر من من المحرم على بينى وفيها الأفرنج بنية السكن، فغنموا اثني عشر أسيرا وخيلا ودوابا كثيرة.

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر أغارت السرية وفيها عز الدين جرديك وعسكر القدس وجماعة من المماليك على ظاهر عسقلان، وغنموا ثلاثين أسيرا وخيولا وبغاللا.

وفي ليلة الأحد رابع عشر صفر باتت سرية فيها فارس الدين ميمون القصري بتل الجزر، وساروا حتى أصبحوا على بينى وكمنوا وصبروا إلى أن استرسلت الأفرنج إلى الطريق وأمنت، ثم ظهرت السرية على قافلة الأفرنج فكبسوها وأخذوها بأسرها مع رجالها وأحبالها وبغالها وأثقالها، ثم أغاروا على يافا فقتلوا وهتكوا وغنموا وعادوا بالغنيمة والسبايا وعجزت جماعة من المشي فضربوا أعناقهم صبرا.

ذكر خروج سيف الدين بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

وفي ربيع الآخر دخل الأمير سيف الدين علي المذكور إلى السلطان بالقدس الشريف وقد خلص من الأسر، وكان أسر حين كان نائبا على عكا فافتدى نفسه منهم بخمسين ألف دينار، فأعطاه شيئا كثيرا منهم، ثم استنابه على نابلس فتوفي بها في شوال منها.

وقال العماد الكاتب: قرر سيف الدين علي المذكور قطيعة خمسين ألف دينار، فأدى منها ثلاثين وأعطى رهائن على عشرين، ووصل إلى

القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، فقام إليه واعتنقه وأقطعه نابلس وأعمالها، ثم عين السلطان ثلث نابلس لمصالح البيت المقدس وتشيد سوره.

ذكر عصيان الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين وما جرى له وعليه في ذلك:

وفي النوادر: ويوم وصول المشطوب كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل بأن يسير إلى الفرات ويتسلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف على نفسه من السلطان، وأظهر ذلك، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب، وكان قد سافر إليها: إنه إن احتاج أخوك إلى معاونة أعنه، وجهز السلطان صلاح الدين ولده الأفضل بجملة كثيرة، وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب وأكرمه أخيه الملك الظاهر إكراماً عظيماً، وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه مقدمة سنية.

وأما الملك المنصور فإنه لما بلغه موجدة السلطان عليه أرسل إلى الملك العادل رسولاً يستشفع به لطيب قلب السلطان ويعطيه إما حران والرها وسميساط، وإما حماه ومنبج وسلمية والمعرة، فراجع الملك العادل السلطان مراراً بسببه فلم يفعل ذلك، ثم كثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء، وهزت له شجرة الكرم، فرجع إلى خلقه الحسن، وحلف له على حران والرها وسميساط، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع المذكورة ويتخلّى عن البلاد التي في يده، ودخل في هذا الضمان الملك العادل، ثم التمس العادل خط السلطان، فأبى وألح عليه، فخرق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، وانفصل الحال، وانقطع الحديث.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: كنت المتردد بينهما في ذلك، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده.

قال القاضي: ثم أرسلني السلطان إلى العادل والأمراء بأن يتشاوروا في أمر الملك المنصور، فاجتمعوا في خدمة العادل، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وقال: نحن عبيد السلطان ومماليكه، وذلك صبي وربما حمله خوفه حتى انضاف إلى جانب آخر، ونحن ما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار، فإن أراد السلطان قتال المسلمين يصالح الكفار، ونسير نحن إلى ذلك الجانب ونقاتل بين يديه، وإن أراد ملازمة الغزاة يصالح المسلمين ويسامحهم، فاتفق الجميع على هذا الكلام، فعند ذلك رق قلب السلطان، وجددت نسخة يمين لابن تقي الدين، وحلف له بها، وأعطى خطه بها استقر من الأمر، ثم إن العادل طلب من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين وتكررت مراجعات العادل في ذلك.

قال القاضي: وكنت الرسول بينهما، وكان آخر ما استقر عليه أنه يتسلم تلك البلاد وينزل عن كل ما هو شامي الفرات، ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصته بمصر، وذلك بعد أن قرر على نفسه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس، وأخذ خط السلطان بذلك، ثم سار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيب قلبه، وكان مسيره في الثامن من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم إن السلطان سير إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد، وكان قد وصل إلى حلب كما ذكرناه، فعاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشق معتباً ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه، فما وسعه التأخر، فسار مع من

وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق، وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم ان السلطان سير إلى الملك الأفضل بأمره بالعود من قصد تلك البلاد، وكان قد وصل إلى حلب كما ذكرناه، فعاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشق معتباً ولم يحضر إلى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه، فما وسعه التأخر، فسار مع من وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة، فلقية السلطان قريب العازرية، وترجل جبراً لقلبه وتعظيماً لأمره، وساروا في خدمته وكان فيهم أخواه الملك الظافر وقطب الدين إلى ظاهر القدس من جهة العدو.

وأما الملك المنصور فإنه قد تسلم البلاد التي عينها له السلطان، ووصل إلى خدمة السلطان الملك العادل يوم السبت الحادي عشر من شعبان، فنزل عنده، ثم كتب العادل إلى السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه وإكرامه، وطلاقة الوجه له، ثم إن المنصور لما قرب من السلطان استأذن ولده الظاهر في لقائه فأذن له في ذلك، فتلقيه في بيت نوبة، فنزل عنده وفرح بلقائه وأقام عنده إلى العصر، وذلك في يوم الأحد، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان، فدخل عليه واحترمه واعتنقه وضمه إلى صدره، ثم غشيه بالبكاء فبكى بكاء كثيراً حتى بكى الناس لبكائه ثم باسطه وسأله عن الطريق، ثم قام وبات في خيمة ولده الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين، ثم ركب وعاد إلى عسكره، ونشروا الأعلام واليارق، وكان معه عسكر جميل، فقرت عين السلطان بذلك، وكان ذلك في صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من شعبان، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة، وكان قدوم الملك الظاهر إلى خدمة والده السلطان يوم السبت الخامس من رجب من هذه السنة، ونزل في دار الاستبار، وفرح السلطان به.

ذكر هلاك المركيس صاحب صور لعنه الله:

وفي ثالث عشر ربيع الآخر يوم الثلاثاء، قتل المركيس لعنه الله، أرسل إليه ملك الانكتار اثنين من الداوية، فأظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتى ظفرا بالمركيس فقتلاه.

وقال العماد الكاتب فمسكهما الفرنج فوجدوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما: من وضعكما على هذا التدبير؟ فقالا: ملك الانكتار، وذكرنا أنهما تنصرا منذ ستة أشهر، وكان خدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس، فبهذا الطريق وصلا إلى المركيس فقتلاه، ثم قتلها الأفرنج أشر قتلة.

ثم لما قتل المركيس وذهبت روحه إلى الهاوية، استناب ملك الانكتار على صور ابن أخته الكندهري، وهو ابن أخت ملك الأفرنسيس لأبيه، فهما خالاه، ولما سار إلى صور ابنتى بزوجة المركيس بعد موته بليلة واحدة وهى حيلة أيضاً، وذلك لشدة العداوة التي كانت بين ملك الانكتار وبينه.

وفي النوادر: وكان المركيس تغدى يوم الثلاثاء المذكور عند الأسقف، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين، وكان خفيفاً من الرجال، فهازلاً يضربان حتى عجل الله بروحه إلى النار، وقام بالأمر اثنان، فحفظا القلعة إلى أن اتصل الخبر بالملوك، واعتمدوا الأمر وتدبروا المكان.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان ملك الانكتار يرسل السلطان صلاح الدين في المصالحة والمسألة كلما كان يرى أن المركيس يرأسله ويهادنه، ثم لما هلك المركيس — لعنه الله — طاب قلب ملك الانكتار، وذهب خوفه، وقوي عزمه، وأرسل إلى السلطان في طلب المناصفة على البلاد سوى

القدس، فإنه للمسلمين، سوى القمامة، فلم يجب السلطان إلى ذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة داروم:

وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها، وأسروا طائفة من الداوية بها.

وقال العماد: وكانت قلعة داروم ضرراً عظيماً لما كانت مع الافرنج، فلما فتحها المسلمون تركوها وأملوها بالذخائر والرجال، وخربوا عسقلان وغزة دون داروم، وتسلمها علم الدين قيصر على أن يحفظها، فلما شرع الافرنج في إعادة عمارة عسقلان ترددوا إليها مراراً وأشرفوا عليها، وأنفق السلطان على جماعة وقواها بهم، ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم واشتد زحفهم عليها عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أحدثوا فيها نقباً، فطلب أهلها الأمان فلم يجابوا، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا، ولما عرف الوالي أنهم مأخوذون عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعقرها، وإلى الذخائر فأحرقها وفتحوها بالسيف وأسروا منها عدة يسيرة، ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها، ورحلوا عنها ونزلوا على منزل يقال له الحسي وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام، وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، ثم تركوا خيامهم وساروا قصدهم قلعة هناك يقال لها مجدل جناب، فخرجت عليهم أسد اليزكية المكنة في الغاب فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير، وعادوا مفلولين مخذولين، ثم رحل الافرنج من الحسي يوم الأحد سابع عشر الشهر المذكور، وتفرقوا فرقتين: بعضهم عاد إلى عسقلان، وبعضهم جاءوا إلى بيت جبرين.

ذكر قصد الافرنج بيت المقدس شرفه الله:

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور نزلت الافرنج

بجمعهم الوافرة بتل الصافية، ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنظرون، فأرجفت الألسن على أنهم على قصد بيت المقدس، ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة، وأمر السلطان صلاح الدين رحمه الله بنقل الأزواد، وفرق الأبراج على الأمراء والأجناد، وكان قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدو، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون فوقف عليهم عسكر للعدو وأخذوهم، وهرب منهم ستة نفر، فوصلوا إلى السلطان وأخبروه بالخبر، ووصلت الجواسيس وأصحاب الأخبار من جانب العدو أنهم مقيمون بالنظرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب، فإذا حصل عندهم ما يحتاجون إليه قصدوا القدس، وكان السلطان رحمه الله قد سير إلى العساكر من سائر الأطراف يسابقون إلى الحضور، وكان أول من قدم بدر الدين دلدرد مع خلق كثير من التركمان، ولقيه السلطان وأكرمه، ثم وصل بعده عز الدين ابن المقدم بعسكر حسن وأطلاب جيدة، ثم أمر السلطان بخروج العسكر إلى البدو، فخرجوا إلى خيامهم يتخطفونهم وجرت وقعة بعد وقعة، وكبسوهم كبسة بعد كبسة، وكان الأمير دلدرد صاحب تل باشر في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين، فبعث من أصحابه إلى طريقهم من يافا، فجازت بهم فرسان من الفرنج، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا، وفي يوم السبت سلخ الشهر نزلت الناس إليهم وقاتلوهم في خيامهم، وركب العدو وساق إلى قلونية، وهي ضيعة من ضياع القدس على فرسخين، ثم عادوا بائدي الشأن بادين الشين وعساكر الموحدين قد ركبوا أكتافهم ورجعوا سالمين.

وفي النوادر: وكان طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة إلى العدو، فأمر السلطان من في اليزك أن يعملوا معهم مايمكنهم، وكان في اليزك بدرالدين دلدرد، فكمن حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة، فحمل عليهم وجرى قتال

عظيم فقتلوا منهم ثلاثين نفرًا، وأسروا جماعة، ووصلت الأسرى يوم السبت تاسع وعشرين جمادى الآخرة، وخرجت الأتراك على جماعة منهم فأخذوا منهم وقتلوا، وجرحت من الأتراك جماعة.

ذكر كبسة الأفرنج على عسكر مصر الواصلين

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله يدعوهم نجده لأهل القدس على أهل الكفر، فضرب العسكر خيامهم على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق، وانضم إليهم التجار، وللفرنج جواسيس يحسون الأخبار ويعرفون ملكهم بذلك، وجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أن العدو ملك الانكتار ركب في سبعمائة فارس مردفين بألف راجل، وسار عصر يوم الأحد، ولا يدري أي جانب قصدوا، فجرد السلطان أميراً وعدة من العادلية، وأمرهم أن يأخذوا في طريق البرية فعبروا على ماء الحسي قبل وصول العدو إليه، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين أخو العادل لأمه، ولم يسأل عن المنازل والمراحل، وقصد أقرب الطرق، وترك الجمال على طريق أخرى سائرة، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة، ونادى تلك الليلة: إنا جزنا مظان المخافة فلا رحيل إلى الصباح، فاغتر الناس بذلك وناموا مغفلين فصباحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة التامة وبغتونهم بغتة، فركب كل منهم إلى وجهة، ومنهم من ركب فرسه عريانا، فتفرقوا في البرية وعاد معظمهم إلى مصر، وفيهم من عاج إلى طريق الكرك، فأخذ الكفار جمالا لاتعد وأحمالا لاتحد.

وقال ابن كثير: فكبسوهم ليلا وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وأسروا منهم خمسمائة أسير، وغنموا شيئا كثيرا من الأموال والجمال والبغال والخيل، وكانت جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير، والتجار الذين معهم نهبوا كلهم فتقوى الفرنج بذلك شيئا كثيرا.

وفي النوادر: وكان السلطان قد أوصى عسكر مصر بالاحتراز عند مقاربة العدو، وكانت معهم قوافل كثيرة، واتصل خبرهم إلى العدو من العرب المفسودين، وركب اللعين ملك الانكتار في ألف راكب مردفين بألف راجل، وسار حتى أتى تل الصافية فبات وعلق على خيله فيه ثم سار حتى أتى ماء يقال له الحسي، وكان السلطان قد أرسل جماعة وصلوا إلى الماء المذكور قبل العدو، لكن لم يقيموا عليه، وساروا حتى اتصلوا بالعسكر المصري ولقوا، ثم قصدوا قرب الطريق، فساروا إلى أن وصلوا إلى ماء يقال له الخويلفة، وتفرق الناس لأجل الماء، فأخبرت العرب العدو بذلك، وهم نازلون برأس الحسي، فقاموا من وقتهم وسروا حتى أتوهم قبيل الصبح فكبسوا عليهم، وكان الشجاع القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام: قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب، وعسكر الملك العادل، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من المذكورين كحسين الجراحي، وفلك الدين وبني الجاولي وآخرين، وقتل من العدو زهاء مائة فارس، وقيل لم يقتل سوى عشرة أنفس، ولم يقتل من المسلمين المعروفين سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير، وتفرق الناس في البرية ورموا أموالهم، وجمع العدو ما أمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة، وسائر أنواع الأموال، وكلف ملك الانكتار الجمالين بخدمة الجمال والخربندية بخدمة البغال والساسة بخدمة الخيل، وسار في جحفل من الغنيمة يطلب عسكره، فنزل على الخويلفة وسقى منها دوابه، ثم سار حتى أتى الحسي وكانت هذه الواقعة صبيحة يوم الثلاثاء الحادي عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ووصل الخبر إلى السلطان في عشية ذلك اليوم بعد عشاء الآخرة، وكنت جالساً في خدمته، فما مرّ بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه، ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه، وأخذت في تسكينه وهو لا يقبل ذلك، ولكن يقول: الأمر كله لله ويكرر ذلك.

قال: وكان وصول العدو إلى مخيمهم في سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم أظهروا فيه من السرور والفرح ما لا يمكن وصفه، وأعادوا خيامهم إلى الوطأة على بيت نوبة، وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصل لهم من الغنائم والأشياء الواصلة من مصر، ورتبوا جماعة على لَدِّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس.

وفي المرأة: وكانوا قد قصدوا أن يسيروا إلى مصر، ثم عادوا عن ذلك وقووا عزمهم على القدس، واستدعوا الفارس والراجل فاجتمع عندهم خلق عظيم، فساروا إلى بيت نوبة.

ذكر تصميم الأفرنج على محاصرة القدس:

ولما جرى ما ذكرنا شاور السلطان الأمراء في القدس وقال لهم: أنتم جند الاسلام ومنعته، ودماء المسلمين وأموالهم وأهاليهم متعلقة بكم، فإن جبنتم طووا البلاد طياً وكنتم المطالين بذاك، فقالوا: نحن ممالككم ومناظير رؤوسنا إلا بين يديك، وافترقوا على هذا، ثم تهيأ السلطان لذلك، وأكمل السور، وعمق الخنادق، ونصب الآلات والمجانيق، وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه، ثم أحضر الأمراء ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الآخرة وفيهم أبو الهيجاء السمين والمشطوب والأسدية بكمالهم فاستشارهم السلطان فيما قد دهم من الأمر الفظيع، فأفاضوا في الكلام، وأشار كل برأي، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما كانت الصحابة رضي الله عنهم يفعلون، فأجابوا إلى ذلك كلهم، هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر، فسكت القوم حتى كأن على رؤوسهم الطير، ثم قال: «الحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم، وليس لهذا العدو من يلقاه غيركم، فإن

طويتم أعتكم — والعياذ بالله — طووا البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، وأكلتم بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»، فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن ممالكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وأعطينا وأعنتنا، وليس لنا إلا رقابنا، وهي بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت بين يديك، فقال بقية القوم مثلما قال: ففرح السلطان وطاب قلبه، ومدّ لهم سماً حافلاً، وانصرفوا من بين يديه على ذلك، ثم بلغه بعد ذلك عن بعض الأمراء أنه قال: إنا نخاف أن يجري علينا في هذه البلدة كما جرى في عكا، ثم يأخذون بلاد الاسلام بلداً بلداً، والمصلحة أن نلقاهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم وإن تكن الأخرى سلم الله العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الاسلام بدون القدس مدة طويلة، وكان مما بعثوا إلى السلطان يقولون: إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصر الأفرنج فتكون أنت معنا أو بعض أهلِكَ حتى يكون الجيش تحت أمره، فإن الأكراد لا يطيعون الترك، والترك لا يطيعون الأكراد، فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة وبات ليلة ذلك أجمع مهموماً كثيراً يفكر فيما قالوا: ثم انجلى الأمر واتفق الحال على أن يكون الملك الأجد صاحب بعلبك مقيماً عندهم نائباً عنه بالقدس الشريف، وكان ذلك نهار الجمعة، فلما حضرت صلاة الجمعة وأذن المؤذنون قام فصلى ركعتين بين الأذانين وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيماً، وتضرع لديه وتمسكن وسأله فيما بينه وبينه في كشف هذه الضائقة العظيمة.

وفي المرأة: وبعد افتراق الأمراء من عند السلطان بعد المشاورة اختلف الأمراء في الليل، فقال بعضهم: مانقيم حتى يكون السلطان معنا، نخاف أن يجري علينا ما جرى على أهل عكا.

وبلغ السلطان ذلك فبعث إليهم يقول: هذا مجد الدين بن فرخشاه

ابن أخي يكون عندكم، وأكون أنا من برا أذب عنكم، فقالوا: ما هذا برأي، وإنما نخرج ونصدقهم الحملة فإن قهرناهم وإلا سلم العسكر ونمضي إلى دمشق، فعزّ عليه ذلك خوفاً على القدس ومن فيه من المسلمين، ويات ليلة الجمعة ساجداً باكياً متضرعاً، وبعث بالصدقات إلى الفقراء، وطلع الفجر فجلس إلى الضحى يدعو، ومضى إلى المسجد الأقصى فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع إلى الله تعالى.

وكان جرديك في اليك ف جاءت منه رقعة يقول: قد ركبوا بأسرهم، ويات السلطان ليلة السبت قلقاً ماعرف المنام، فلما طلع الصباح جاء جرديك مسرعاً فقال للسلطان: يهنيك رحلوا خلف الرملة، فسجد السلطان وانكشفت أخبارهم وسبب رحيلهم أن السلطان كان قد أمر بطم الصهاريج والآبار التي كانت حول القدس، فقال لهم ملك الانكتار: من أين نشرب؟ قالوا: من العيون التي حول القدس قالوا: يتخطفوننا.

وقال صاحب النوادر: قالوا: نشرب من نهر تقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ، فقال الملك: كيف نذهب إلى السقي؟ فقالوا: ننقسم قسمين: قسم يركب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في المنزلة، ويكون الشرب في اليوم مرة، فقال الملك: إذا يأخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب، ويخرج عسكر البلد على الباقيين، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم، وحكم الاثني عشر ثلاثة على عاداتهم في النوازل، فباتوا يتشاورون، فرجع عندهم الرحيل، وقالوا: السلطان حاضر ومعه العساكر فارحلوا فرحلوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما كان يوم السبت الحادي والعشرين من جمادى الآخرة جاءت الكتب من الحرس حول البلدان بأن الفرنج

اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس، فقال ملك الافرنسيس: إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس وقد بقي بيتنا وبينه مرحلة، وقال ملك الانكتار: إن هذا البلد يشق علينا حصاره لأن المياه قد عذمت، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء تعطل أمر الحصار، ثم اتفق الحال بينهم على أن حكموا^(٢٧)، إلى آخر ما ذكرناه، فرحلوا صوب الرملة.

وقال في النوادر: وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راقلين إلى نحو الرملة، وعلى أعقابهم ناكسين، ووقف عسكرهم شاكين في السلاح إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار، ثم نزلوا بالرملة، وتواتر الخبر بذلك، وركب السلطان والناس، وكان يوم سرور وفرح.

ذكر بروز السلطان بجيشه إلى خارج البلد

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس، وسار نحوهم خوفاً من أن يسيروا إلى الديار المصرية لكثرة مامعهم من الظهر والأموال، وكان ملك الانكتار لعنه الله يلهج بذلك كثيراً فخذلهم عن ذلك، وترددت الرسل من ملك الانكتار إلى السلطان في طلب الصلح، ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر، وأن يعيد إليهم السلطان عسقلان، ويهب لهم أكبر كنيسة ببيت المقدس، وهي القمامة، وأن يمكن الزوار من النصارى والحجاج إليها بلا شيء، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان، وأطلق لهم قمامة، ولكن فرض على الزوار مالا يؤخذ من كل منهم، فامتنع ملك الانكتار إلا أن تعاد إليهم عسقلان ويعمر سورها كما كان، وصمم السلطان على عدم الاجابة.

وقال صاحب النوادر: ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو، حضر رسول الكندهري فقال: إن ملك الانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية،

وهي الآن لي فأعد عليّ بلادي حتى أصالحك، و أكون أحد أولادك، فغضب السلطان لذلك غضباً شديداً بحيث أنه أراد أن يبطش بالرسول، فأقيم من بين يديه، ولما كان يوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الرسول، وكان جوابه بأن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ماكان من المركيس.

ذكر فتح السلطان مدينة يافا

ثم ركب السلطان في جيشه العزيز حتى وافى يافا، فحاصرها حصاراً شديداً فافتتحها وغنم جيشه منها شيئاً كثيراً، وامتنعت القلعة، فبالغ في أمرها حتى هانت ولانت ودانت، وكادوا أن يعيشوا إليه بأقاليدها ويأخذوا الأمان لكبيرها ووليدها، إذ أشرفت عايهم مراكب الانكتار على وجه البحر، فقويت رؤوسهم واستصعبت نفوسهم، وهجم اللعين ملك الانكتار فاستعاد البلد إليه وقتل من تأخر بها من المسلمين صبراً بين يديه، وتقهر السلطان من منزلة الحصار إلى ماورائها خوفاً على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الانكتار يتعجب من شدة سطوة السلطان كيف فتح مثل هذا البلد العظيم في يومين وغيره لايمكنه فتحه في عامين، ثم ألح في طلب الصلح على أن يكون عسقلان داخلاً في الصلح فامتنع السلطان من ذلك أشد الامتناع.

وفي المرأة: أقام السلطان بالقدس حتى يتيقن وصولهم إلى عكا، وخرج فنزل على يافا وحصرها وتعلق النصابون في الأسوار، وملك المدينة، وأشرفوا على أخذ القلعة، فصاح أهلها الأمان، ونهب المسلمون البلد، فوقف مماليك السلطان على الأبواب، كل من خرج ومعه شيء أخذوه، وعز ذلك على الأمراء والأكراد، وسلموا القلعة، وبعث السلطان إليها جماعة من أصحابه، وبقي فيها من الفرنج أربعون رجلاً، وبينما هم كذلك إذ لاحت مراكب كثيرة فتوقفوا، وقويت نفوس الافرنج الذين في

القلعة، وعلموا أنها مراكب الانكتار، فرمى واحد نفسه في الماء وسبح إليهم وقال: تقدموا، فأرسوا إلى الميناء، وكانت خمسة وثلاثين مركباً، فهرب المسلمون من البلد، وتأخر السلطان إلى يازور، وجاء الانكتار فنزل في منزلة السلطان، ولم يكن معه سوى عشرين فارساً وثلاثمائة راجل، وعشرين خيمة، والسلطان في ألوف، فبعث إلى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ومعك هذا الجيش الكثير، ومعظم عساكر المسلمين فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي وليس معي أحد، فغضب السلطان، وبات على غضب، فلما أصبح ركب وركبت العساكر وملك الانكتار نازل على حاله لم يصل إليه من الافرنج أحد، فحمل عليه المسلمون، وهو في عشرين فارساً وثلاثمائة راجل فلم يتحرك، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة؟! فلم يجبه أحد، وقال له الجناح: قل لعلوك الذين ضربوا الناس بالأمس، وأخذوا كسبهم، ويقال إن ملك الانكتار أخذ رمحاً وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة، فلم يعترض أحد، وساق السلطان من حينه إلى النطرون ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد، فلم يتجاسر أحد أن يكلمه وجاءت رسل الملك في طلب الصلح.

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان ملك الانكتار نازلاً في منزلة السلطان على ماذكرنا، كبس في بعض الليالي ملك الانكتار وهو في سبعة عشر فارساً، وقليل من الرجال، فأركب السلطان بجيشه حوله وحصره حصراً لم يبق له منه نجاة لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا عن الحملة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض عن شرب الدواء، هذا وملك الانكتار لعنه الله قد ركب في أصحابه، وأخذ عدة قتاله وحرابه، واستعرض الميمنة من أولها إلى آخر الميسرة فلا يتقدم إليه منهم أحد من الفرسان، ولا يهش في وجهه بطل من الشجعان، فعند ذلك كر السلطان راجعاً، ثم حصل لملك الانكتار بعد ذلك مرض شديد، وبعث إلى السلطان يطلب منه

فاكهة وثلجاً، فأمدّه السلطان بذلك فتوة وكرماً، ثم عوفي لعنه الله، وتكررت رسله إلى السلطان لأجل الصلح، وذلك لكثرة شوقه إلى بلاده (٢٨).

وعن قريب نذكر المراسلات واستقرار الصلح إن شاء الله تعالى.

وذكر في النوادر: في فتح يافا مملخصه: أن السلطان رحمه الله بلغه في العاشر من رجب أن الأفرنج قد رحلوا طالبيين نحو بيروت، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الحبيب، وكان ولده الملك الظاهر غازي صاحب حلب قد قدم إليه يوم السبت الخامس من رجب، ثم رحل السلطان من الحبيب إلى بيت نوبة، ثم رحل يوم الأحد ثالث عشر رجب إلى الرملة، فنزل بها ضحوة النهار على تلال بين الرملة ولدّ، وأقام بها بقية يوم الأحد، ولما كانت صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من رجب ركب جريدة حتى أتى يازور وبيت دجن وأشرف على يافا، ثم عاد إلى منزلته وأقام بها بقية يوم، ولما كان صباح يوم الثلاثاء الخامس عشر رحل إلى نحو يافا فخيم عليها ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً، وكان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل، والعساكر فيما بينهما، وزحفوا يوم السادس عشر وأخذ النقيبون النقب من شمالي الباب الشرقي في الزاوية طول البدنة، وكان المسلمون قد هدوا ذلك المكان في الحصار الأول، وبناء الأفرنج، ودخل النقيبون فيه، وكان الملك في عكا قد توجه إلى نحو بيروت، وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا، وأقام السلطان تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل مقدار ثلثه، وعاد إلى المنزلة، ولما أصبح السلطان عزم على القتال فقاتلوه، وجرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلج والي بعلبك، وأصيب بعينه، وطرغل التاجر وقد استقر في وجهه، وهما من خواص المماليك، وإياز جركس وهو من كبارهم، ولما رأى العدو المخدول ما حل به أرسل رسولين نصرانياً وفرنجياً

يطلبان الصلح، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس قطيعة، فأجابوا إلى ذلك، ولكن اشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت التاسع عشر من رجب فإن جاءتهم نجدة وإلا تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الانتظار وصمم على القتال والمضايقة، ولم يزالوا يقاتلون في ذلك اليوم إلى أن فصل الليل بينهم، ولم يقدر السلطان على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقوب في البدنة، وضاق صدره وندم على عدم اجابته للصلح؛ ولما كان يوم الجمعة الثامن عشر من رجب زحف السلطان وزحف ولده الظاهر زحفاً شديداً، وزحف العادل في الميسرة فإنه كان مريضاً، وارتفعت الأصوات وضربت الكوسات، وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات، ووقعت تلك البدنة، وانفتح الطريق، ولما رأى العدو ذلك أرسلوا رسولين إلى السلطان يطلبان الأمان، فقال: قولا لهم يتجاوزوا إلى القلعة ويتركوا البلد، فدخل الناس البلد ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغللاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش من نهبهم من القافلة المصرية.

ولما كان عصر يوم الجمعة جاء إلى السلطان كتاب من قايمار النجمي، وكان في طرف الغور لحمايته من العدو الذي في عكا، يخبر فيه أن ملك الانكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد إلى قصد يافا، ولما كان سحر تلك الليلة سمع المسلمون بوق الفرنج وقد نعق، فعلموا بوصول النجدة، وكانوا نيفاً وخمسين مركبا منها خمسة عشر شيني، فوهب رجل من أهل القلعة نفسه للمسيح، وقفز من القلعة إلى الميناء وكان رملاً، فلم يصبه شيء، واشتد عدواً حتى أتى البحر فجاء له شيني فأخذه الملك فأخبره بالخبر، ولما تيقن الملك أن القلعة مأخوذة، اندفع يطلب الساحل، وإن أول شيء ألقى من فيه إلى البر شيني الملك، وكان أحمر وقبته حمراء وبيرقه أحمر وكان رنكه، ثم نزل كل من في الشواني إلى الميناء.

قال القاضي بهاء الدين: هذا كله وأنا شاهد ذلك، وكان تحتي فرس

فسقت حتى أتيت إلى السلطان، وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم حتى يكتب لهما الأمان، فعرفته في أذنه ماجرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان، فصاح في الناس فركبوا، وقبض على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، وبقي السلطان جريدة إلى الليل، وبات في ليلته هناك، وخرج ملك الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي وأبيك العزيزي، وسنقر المشطوب، وبدر الدين دلدرم وغيرهم، وكان قد صادقهم، فقال لهم: إن هذا السلطان عظيم، ومافي الأرض في الاسلام أكبر منه ولا أعظم، كيف رحل عن مكانه بمجرد وصولي، والله مالبست لأمة حربي، وليس في رجلي إلا زربول البحر؟! ثم قال لأبي بكر: بالله عليك سلم على السلطان، وقل له يجب إلى صلحي، فهذا أمر لا بد منه في الأخير، وقد هلكت بلادني وراء البحر، ومادوام هذا مصلحة لالنا ولالكم، وجاء أبو بكر وعرف السلطان بذلك، وكان ذلك في أواخر يوم السبت التاسع عشر من رجب، فلما سمع السلطان أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على كون الجواب: انك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت عسقلان، وهذه يافا خربت أيضاً، فيكون لك من قيسارية إلى صور، فمضى إليه وعرفه ما قال فرده إليه ومعه رسول فرنجي، وان يقول الملك: إن قاعدة الفرنج إنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تابعا له وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين: يافا وعسقلان، وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، وكان جواب السلطان رحمه الله: حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن تجعل البلد قسمين: أحدهما لك وهو يافا وماوراءها، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها، ثم سار الرسولان ورحل السلطان وكان بيازور، ورتب اليزك بها والنقاين وأمر بخرابها وخرب بيت دجن، وسار حتى أتى الرملة

فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر، فأمر باكرامه، وكانت الرسالة الشكر من الملك على إعطائه يافا، وتجديد السؤال في عسقلان، ويقول له: إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي هاهنا، فأجابه السلطان: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما تشتيته فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت منه بالضرورة، وإذا سهل عليه أن يشتي هاهنا وهو بعيد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين، وهوشاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، أما يسهل عليّ أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي ويحضر إلي ما أريده ومن أريده، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي عندي في الشتاء يكون غير العسكر الذي يكون في الصيف، ومع هذا أنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولأزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، فلما سمع الرسول ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل، فأذن له في ذلك، فسار إلى خيمته، وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه على موضع يقال له مارخوان.

ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد، فجمع أرباب الرأي للمشورة، فوقع الاتفاق على قصدهم جريدة، ويرحل الثقل إلى الجبل، فأمر الثقل بالرحيل في عشية يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب، وسار هو رحمه الله جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها، وأن الملك قد نزل خارج يافا بنفر يسير وخيم قليلة، فوقع له أن يكبس عليه، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تقدمه إلى أن أتى وقت الصباح إلى خيام العدو، فوجدها يسيرة مقدار عشر خيم، فداخلة الطمع، وحمل عليهم فلم يتحركوا من أماكنهم ودار السلطان على الأطلاب بنفسه يحثهم فلم يجب أحد إليه سوى ولده الملك الظاهر فإنه تأهب للحملة فمنعه، فلما رأى

السلطان ذلك رأى أن وقوفه وحده خسارة، فأعرض عن القتال، وسار حتى أتى يازور وهو مغضب، فنزل بها ذلك يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب، ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى النظرون فنزل به فأرسل إلى العسكر فحضرُوا عنده يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب فبات به، ثم أصبح يوم الجمعة، وسار إلى الملك العادل يفتقده، ودخل القدس وصلى الجمعة به، ونظر إلى العماير ورتبها ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النظرون.

وقدمت إليه العساكر، فأول من وصل علاء الدين ابن أتابك صاحب الموصل فتلقاه السلطان ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من رجب، فأكرمه وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له مقدمة جليلة، ثم سار إلى خيمته وأقام السلطان بالنظرون، ولما كان يوم الخميس التاسع من شعبان قدم عسكر مصر وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة من الأسدية، وكان في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، وكان يوماً مشهوداً، ثم أنزلهم عنده ومد الخوان، ثم ساروا إلى منازلهم، ثم قدم الملك المنصور بن تقي الدين في صبيحة يوم الاثنين ثالث عشر شعبان، ونزل في مقدمة العسكر، ولما رأى السلطان أن العساكر قد تجمعت، جمع أرباب الرأي وقال: إن ملك الانكتار مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد رجعوا إلى بلادهم، ونفقاتهم قد قلت، وأصبح يوم الخميس راحلاً إلى جهة الرملة.

ذكر كتاب الصلح

لما رضي ملك الانكتار بإرسم به السلطان صلاح الدين كتب كتاب الصلح في الثامن عشر من شعبان، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم وأسقف وجائليق، وحلف الأمراء من المسلمين وكتبوا خطوطهم، واكتفي من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحاً عظيماً.

وفي تاريخ النويري: واستقر أمر الهدنة يوم السبت الثامن عشر من شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذروا بأن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته على الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان، ومعها جماعة من المقدمين، وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل والملكين: الأفضل والظاهر ابني السلطان صلاح الدين، والملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين -لدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها ايلول الموافق لحادي عشرين شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج: يافا وعملها وقيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط السلطان دخول الاسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الأفرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، واستقرت القاعدة على ذلك، وأرسل السلطان مائة ألف نقاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان واخراج من بها من الأفرنج والألمان.

ذكر توجه السلطان إلى القدس

ثم لما تمّ هذا الأمر رحل السلطان إلى القدس في اليوم الرابع من شهر رمضان، وأمر بتشيد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل كنيسة تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الاسلام دار علم قبل

أن يملك الأفرنج القدس ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد رحمه الله، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاستتار بقرب قمامة مارستانا للمرضى، ووقف عليها مواضع، وسير أدوية وعقاقير عزيزة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المذكور.

ثم عزم السلطان رحمه الله على أن يحج عامه هذا من القدس فكتب إلى الحجاز واليمن والديار المصرية والشامية ليعلموا ذلك وليتأهبوا له، وكان أخوه سيف الاسلام في اليمن، وكتب إليه أيضاً بذلك، ثم فنده الأمراء، وكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفاً على البلاد من استيلاء الأفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها والفساد، وذكر أن النظر في أحوال المسلمين واصلاح أمرهم ومصاهرة عدوهم أفضل مما نوى والعدو المخذول مخيم بعد في الشام، فسمع السلطان منه وشكره على نصحه وعزم على ترك الحج عامه ذلك وكتب به إلى سائر الممالك، واستمر السلطان مقيماً بالقدس جميع شهر رمضان، وكلما وفد أحد رؤساء النصارى للزيارة أواه غاية الاكرام والاحسان تأليفاً لقلوبهم وتأكيذاً لما حلفوه من الأيمان، ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الايمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة قمامة متكرراً، ويحضر سباط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم بحيث لا يرى، والسلطان يعلم ذلك جملة وتفصيلاً، لهذا يعاملهم بالاكرام والاحسان.

ذكر خروج السلطان من القدس على عزم دمشق

ثم إن السلطان رحمه الله فوض ولاية القدس الشريف إلى عز الدين

جرديك ووصاه بتهذيب الأمور، والأخذ بالحزم في كل شيء، وكان فيه كفاية وشهامة وديانة، وكان الوالي قبله حسام الدين سياروخ وكان فيه دين ولين، وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وماوالاهاء، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة والعمران، وكان السلطان قد أعطى دستوراً للعسكر حين تم أمر الصلح، فكان أول من سار عسكر إربل فانهم ساروا في مستهل شهر رمضان، ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن، وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة ثم انصرف عائداً إلى الكرك لينظر في أحواله ثم يعود إلى بلاده الشرقية ليدبرها، فإنه كان أخذها من السلطان، وودع السلطان، فلما وصل إلى العازرية ونزل بها، أتى إليه من أخبره أن رسولاً من بغداد واصل إليه، فانفذ إلى السلطان وعرفه، وذكر أن يجتمع به، ثم جاء إليه يوم السبت الرابع والعشرين منه، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة وزارة بغداد، ومضمون كتابه أنه يستعطف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة، والانكار عليه في تأخر رسله عن العتبة الشريفة، وأن يسير القاضي الفاضل إلى الديوان في تقرير قواعد بينه وبين السلطان، ووعد العادل شيئاً كثيراً إذا قرر ذلك، ولما سمع السلطان ذلك كره انفاذ رسول يسمع كلام الديوان، ووقع كلام كبير بين السلطان والعادل ثم قوي عزم السلطان على انفاذ الضياء الشهرزوري، وعاد العادل إلى مخيمه بالعازرية، وعرف الرسول بما وقع عند السلطان، ومن اجابته إلى انفاذ الرسول، ثم سار العادل يوم الاثنين طالباً جهة الكرك، وسار الضياء متوجهاً إلى بغداد يوم الثلاثاء سادس عشرين رمضان، وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين منه توجه الملك الظاهر بن السلطان إلى جهة حلب بعد أن أوصاه السلطان بالتقوى فانها رأس كل خير، وبالبعد عن سفك الدماء ومظالم الناس.

وفي الليلة الخامسة من شوال من هذه السنة سار الملك الأفضل بن السلطان متوجهاً إلى دمشق، ثم إن السلطان رحمة الله عليه لم يزل ينظر في أحوال الناس، ويعطي اقطاعات لأناس ودستوراً لآخرين، ولم يزل كذلك حتى صبح عنده اقلاع مركب ملك الانكتار متوجهاً إلى بلاده مستهل شوال، فعند ذلك حرر عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ثم يدخل دمشق وقيم بها أياماً قلائل، ثم يعود إلى القدس ويزوره، ثم يسير إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها، وينظر مصالحها.

قال القاضي بهاء الدين: وأمرني بالمقام بالقدس لعمارة مارستان أنشأه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عودته، ثم خرج السلطان من القدس ضحوة نهار الخميس السادس من شوال من هذه السنة.

قال القاضي: وودعته إلى البيرة، وهي قرية بين القدس ونابلس، ونزل بها وأكل فيها الطعام، ثم رحل منها وبات على بركة الداوية، ثم نزل على نابلس ضحوة نهار الجمعة السابع من شوال، وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها، وأنه زاد في رسومها ونوائبها، فأقام بها السلطان إلى ظهر يوم السبت الثامن من شوال حتى كشف مظالمها، وأسقط رسومها الجائرة، ثم رحل بعد الظهر ونزل بسبسطية وتفقد أحوالها.

قال ابن كثير: وبات ليلة الأحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفرنديسة، وأصبح راحلاً ونزل ضحوة نهار الأحد على جينين وهناك ودعه المشطوب وداع الأبد، فإنه توفي بعد أيام، ثم رحل يوم الاثنين وجاء ضحوة إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية، فقال: الصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب، ولم يزل حتى بين كيفية بنائها، ثم رحل الظهر وبات على قلعة كوكب، ورحل عنها ضحوة الثلاثاء

ونزل بطبرية وقت العشاء وهناك جاء إليه بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر، وكان قد أسر فيمن أسر بعكا، وكان انفكاكه من الأسر يوم الثلاثاء الحادي عشر من شوال، ففرح السلطان به فرحاً شديداً لأنه كان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام، وأقام السلطان بطبرية يوم الأربعاء، ونزل بكرة الخميس، ونزل بقرب صفد تحت الجبل، وصعد السلطان إليها وأمر بتشيد مافيها من الخلل، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة، ونزل ضحوة بضبعة يقال لها الحش وهي عامرة، وسار منها وخيم على مرج تبين ووصى الوالي بعمارة قلعتها، ثم رحل بكرة السبت وجاء على قلعة هونين، ونزل من الجبل وبات على عين الذهب، ورحل يوم الأحد وخيم بمرج عيون، ورحل عصر يوم الاثنين وعبر من عمل صيدا ميسرة وعمل وادي تيم يمينة، على الضياع والقرى وعرس على مرج تلفيائا مقابل مرج القنعة، ثم أصبح يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفيائا فخيم على جسر كامد، ثم غدا يوم الأربعاء وخيم بناحية قب الياس، ثم رحل يوم الخميس إلى بيروت ونزلت الأثقال على مرج قلميطية بالبقاع، وأقام خمسة أيام على الاستراحة، ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة بكل ماتوفرت به الكرامة، وأحضر للسلطان ولكل من كان معه من أنواع التحف وأقسام الطرف (٢٩).

ولما أراد السلطان أن يرحل من بيروت وذلك في يوم السبت الحادي والعشرين من شوال قيل له إن الابرنس والأنطاكية قد وصل إلى الخدمة، متمسكاً بجبل العصمة، داخلاً في حكم الذمة، فثنى السلطان عنانه ونزل وأقام، وأذن للابرنس في الدخول عليه، فدخل عليه وقربه ورفع مجلسه، وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونيا، ووهب السلطان كلا منهم تشريفاً سرياً، وكتب له من مناصفات أنطاكية بمبلغ عشرين ألف دينار، ثم ودعه يوم الأحد وفارقه.

وفي النوادر: وأنعم عليه بالعمق وزرعان ومزارع تغل عشرة آلاف دينار، ثم خرج السلطان يوم الأحد وبات بالمخيم على البقاع، ورحل يوم الاثنين وعبر عين الجر، وبات على مرج ييوس، ووصل هناك من أعيان دمشق من تلقاه بأنواع التحف من الفواكه وغيرها، ورحل يوم الثلاثاء وبات بالعرادة، وأصبح يوم الأربعاء السادس والعشرين من شوال، ودخل دمشق، وخرج كل من بالمدينة، وحشر الناس ضحى، وكان يوماً مشهوداً، وكانت غيبة عن دمشق أربع سنين وهو في الجهاد، وكان في دمشق أولاده: الملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك الظافر، وأولاده الصغار، وكان يحب البلد ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد، وجلس للناس بكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه، وحضر الناس عنده وتملوا برؤيته وطلعتهم المباركة، وأنشده الشعراء، وعم ذلك المجلس الخاص والعام، وقام بنشر جناح عدله وبهطل سحاب انعامه وفضله، وبكشف مظالم الرعايا.

وفي يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر، وأظهر فيها من بديع التجميل وغريبه ما يليق بهيمته، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما كان خدمه به حين وصوله إلى حلب، وسأل السلطان الحضور في دعوته فحضر، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي القعدة قدم الملك العادل من الكرك، وخرج السلطان إلى لقائه، وقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد مستهل ذي الحجة من هذه السنة، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق، وما كان ذلك إلا للوداع لأولاده وهو لا يشعر، ثم أذن السلطان لولده الملك الظاهر لسفره إلى حلب محل ولايته، فودعه وداعاً لالقاء بعده، وسار إلى حلب، وبقي

عند السلطان ولده الملك الأفضل وأخوه وبقية أهله، وخرجت السنة والأمر على هذا.

ذكر بقية الحوادث

..... ومنها أنه اتهم أمير الحجيج ببغداد من مدة عشرين سنة في غاية حسن السيرة، بأنه يكاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها فإنه ليس يمنعه أحد، وقد كان مكذوباً عليه في ذلك، ومع هذا حبس وأهين وصودر.

وفي المرأة: اعتقله تحت التاج وأخفى أخباره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر..... .

ومنها أنه هربت جماعة من العرب ودخلوا مع الفرنج، ثم أرسلوا يطلبون الأمان من السلطان على أن يسرقوا ماقدروا عليه من خيل الفرنج فساقوا خمسمائة فرس.

ومنها أن ملك الانكتار جهز من عدد المسلمين وأسلحتهم التي نهبها شيئاً كثيراً في مركب، وسفرها في البحر، فأرسل الله تعالى عليها ريحاً عاصفاً فغرق المركب، بما فيه ومن فيه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان.....

ابن الفراش القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، كان قاضي العساكر بدمشق، ويرسله السلطان في الرسائل إلى ملوك الآفاق، وتوفي بملطية عائداً من عند ابن قليج أرسلان.

وقال العماد الكاتب: أرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ليصلح

بينهم، فتردد سنة وعاد ووصل إلى ملطية وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بديار مصر، ثم صار من أكابر أمراء السلطان صلاح الدين، وهو الذي كان على نيابة عكا حين أخذها الفرنج، فافتدي منهم بخمسين ألف دينار، وتخلص إلى أن خلص إلى السلطان وهو بالقدس الشريف كما ذكرناه، فولاه نيابة نابلس، وكانت وفاته يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال بالقدس الشريف، ودفن في داره.

وقال العماد: وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال.

وقال المؤيد: وكانت نابلس اقطاعه وتوفي فيها، ووقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين وأميرين معه.

وفي المرأة: سيف الدين المشطوب، ملك الهكارية، واسمه علي بن أحمد الهكاري، كان شجاعاً صابراً في الحرب مطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث، وشهد فتح مصر، ولزم خدمة السلطان، واتفق أن السلطان اجتاز بنابلس في عوده إلى دمشق، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يتظلمون من المشطوب، وهو راكب بين يديه، فقال: يا علي لو كان هؤلاء يدعون لك هيهات يسمع الله، فكيف وهم يدعون عليك، واختلفوا في وفاته، فقال العماد: ومات المشطوب في نابلس في آخر شوال، وقال القاضي ابن شداد: مات بالقدس، وصلي عليه في المسجد الأقصى، ودفن بداره.

راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد، وكنيته أبو الحسن، صاحب دعوة الاسماعيلية بقلع الشام، أصله من البصرة، توفي في هذه السنة.

قال بيبرس في تاريخه: كان عالماً فاضلاً أديباً، وكانت له معرفة وسياسة وحنق في إقامة الدعوة، واستجلاب للقلوب، ولم يقم أحد بعد مقامه.

وفي المرأة: وكان في حصن الموت، فرأى منه الأمر في تلك البلاد نجابة وشهامة ويقظة، فسيره إلى حصون الشام، وكان مجيئه إلى الشام في أيام نور الدين محمود، فأقام والياً ثلاثين سنة، وجرت له مع السلطان قصص، وبعث إليه جماعة وثبوا عليه، وكان في عزم السلطان قصده، ولم يعطه طاعة قط، ولما صالح السلطان الأفرنج وعزم على قصده توفي، وتحكى عنه العجائب والغرائب.

السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قلطمش بن أرسلان ييغو بن سلجوق، صاحب بلاد الروم، توفي في يوم السبت منتصف شعبان من هذه السنة، وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسة، وكان ذا سياسة حسنة وهيئة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين، قد ولي كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور، وكان أبوه قد أعطاه سيواس، فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والانفراد بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه، وهجم على والده قليج الدين أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه وقال لوالده وهو في قبضته: أنا بين يديك أنفذ أمرك، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية، ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله بأمر والده، وخرج عسكر قيسارية

لحربه، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده، كلما ضجر واحد منهم انتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو، فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع معه وحشد وسار معه إلى قونية وملكها وأخذها من ابنه ملكشاه، ثم سار إلى أقصرا فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه قليج أرسلان بقليل، فاستقر كيخسرو في ملك قونية، وأثبت أنه ولي عهد أبيه قليج أرسلان، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان، فرجع غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعاً، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم كذلك إلى أن قتل، وملك بعده ابنه عز الدين كيكافوس بن كيخسرو، ثم توفي كيكافوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباز بن كيخسرو، ثم توفي علاء الدين كيقباز سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو، وكسره التتار سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق، وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم في الحقيقة، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فملكوا

معا مديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة، وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين المذكور معين الدين البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتر، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابن ركن الدين يخطب له بالسلطنة، والحكم للبرواناه، وهو نائب التتر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيارس: والذي كان قليج أرسلان فرقة لأولاده من بلاده: ركن الدين سليمان دوقات وأعمالها، غياث الدين كيخسرو قونية وأعمالها، قطب الدين سيواس وأعمالها، وأقصر وأعمالها، فلما مات اختلفت الأخوة وتحاربوا، واتفقت وفاة ولده قطب الدين على إثره، فقوي ركن الدين على أخوته وملك هذه الممالك جميعها منهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في هذه السنة التاسعة والثمانين بعد الخمسة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، ويقال لها سنة الملوك، لأنه مات فيها ملوك كثيرة، وأعظمهم وأجلهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، والأتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل، وسيف الدين بكتمر صاحب خلاط، وسلطان شاه بن ألب أرسلان صاحب خراسان، وقيطرمش المسجدي شحنة بغداد، والأمير داود صاحب مكة، وسنذكر تراجمهم واحداً بعد واحد بعون الله، ونذكر أولاً ترجمة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه.

ذكر وفاة السلطان صلاح الدين:

الأول في ترجمته: هو يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان.

وقال ابن خلكان: ولقد تتبععت نسبهم كثيراً، فلم أجد أحداً ذكر بعد

شادي أباً آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم
شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه وأيوب ابني شادي لاغير،
ويقال شادي بن مروان.

قال: ورأيت مدرجاً رتبة الحسن بن عرب بن عمران الجرشي يتضمن
أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنتر بن أسامة بن بيهس
ابن الحارث صاحب الحمالة بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن
غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان
ابن سعد بن قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان،
ثم رفع بعد هذا في النسب إلى أن انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر
بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز يقال أنه ممدوح
المتنبي وفيه يقول من جملة قصيدته:

شرق الجوبـــــــــــــــــالغبار

إذا سار علي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل
ماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان، وكان
مه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، صاحب
دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر
داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع
عشرة وستمائة.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم
عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي، بعد أن ذكر الاختلاف في
نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك
اليمن ادعى نسباً في بني أمية، وادعى الخلافة.

وقال ابن خلكان: سمعت شيخنا قاضي القضاة ابن شداد يحكي عن

السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال ليس هذا أصلي.

وذكر ابن القادسي وقال: كان شادي مملوك بهروز الخادم.

وقال السبط في المرأة: وهذه من هنات ابن القادسي، ماكان مملوكاً قط ولاجرى على أحد من بني أيوب رق، وإنما شادي خدام بهروز الخادم في قلعة تكريت استنابه فيها.

وكان صلاح الدين يوسف المذكور يقال له السلطان الأعظم أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمينية.

الثاني: في بيان ميلاده، وبلده وأصله، ولد صلاح الدين بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها في اثنتين وثلاثين وخمسمائة، واتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دوين—بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء، آخر الحروف، وفي آخرها نون—وهي بلدة في آخر أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وأنهم أكراد روادية—بفتح الراء والواو، بعد الألف دال مهملة ثم ياء آخر الحروف مشددة وبعدها هاء—والروادية بطن من الهدبانية— بفتح الهاء والدال المهملة والباء الموحدة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء آخر الحروف مشددة، وبعدها هاء—وهي قبيلة من الأكراد.

وقال ابن خلكان: قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين: إن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان—بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة، وبعد الألف الثانية نون أخرى— وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد شادي والد أيوب والد صلاح الدين بها، أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها

وعلى قبره قبة داخل البلد، وكان شيركوه وأيوب لما كانا في بغداد خدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق، ورأى مجاهد الدين في نجم الدين عقلاً ورأياً حسناً، وحسن سيرة، فجعله دز دار تكريت—ودز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي المعجمة وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء— وهو لفظ أعجمي، ومعناه حافظ القلعة، وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ للقلعة، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين، ثم إن أسد الدين قتل انساناً بتكرت لكلام جرى بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليهما، فأخرجهما من تكريت، ثم إنهما قصدا عماد الدين زنكي، وكان اذ ذاك صاحب الموصل، فأحسن إليهما وأقطعهما اقطاعاً حسناً، وصارا من جملة جنده، ولما فتح عماد الدين بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً، فيقال إن الأخوين خرجا من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به، وتطيروا منه، فقال بعضهم: لعل فيه خيرة وماتعلمون، فكان كما قال. ويقال ماخرجنا من تكريت إلا بعد ولادة صلاح الدين مدة يسيرة، أو في بقية السنة التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة ثلاث وثلاثين وخمسةائة والله أعلم.

الثالث في بيان منشأه: ولم يزل صلاح الدين في كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود الشهيد ابن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ الذي ذكرناه، لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين يوسف وكانت مخايل السعادة عليه لاتحد والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين الشهيد يرعاه ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف، والاجتهاد في أمر الجهاد، حتى تجهز مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما ذكرنا مفصلاً.

الرابع: في سيرته.

قال العمام وغيره: قد كان السلطان صلاح الدين متشرعاً في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلا يلبس إلا الكتان والقطن والصوف، ولا يعرف أنه فعل مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصوده الأعظم نصر الاسلام وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك وآرائه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، هذا مع مألوفه من الفضائل والفواضل، والفوائد والفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان مواظباً على الصلوات الخمسة في أوقاتها في الجماعة، ويقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى في مرض موته، كان يدخل الامام فيصلي به، ويتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة، وشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها.

قال العمام: ورأى يوماً دواتي محلاة بالفضة فأنكر علي وقال: هذا حرام، فقلت له على سبيل المداعبة: أوليس تحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح، ودواتي هذه أنجع ومدادها أنفع، ويراعي بذراعي القصير أطول، وسنان قناتي أحد وأقتل، فقال: ليس هذا دليل صالح، قلت: ما جمعت هذه العساكر الاسلامية إلا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلامي، فقال: والله إن هذا ما يعجبني، فلم أعد أكتب بتلك الدواة بين يديه، وكان طاهر المجلس لا يذكر أهد في مجلسه إلا بالخير، وكان طاهر اللسان لا يذكر أهداً بسوء ولا شتم أهداً قط، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللفظ، قريباً من الناس رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، وكانت مجالسه منزهة عن الهزل والهراء، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، وماسمع منه كلمة فحس

قط، وكان يلين للمؤمنين ويغلظ على الكافرين، ومن جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً، بل يعتقد انه أخ من الاخوان، وكان شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية، وكان ممن يعرض عند الناس استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماع الحديث جلالاً له، وإن لم يكن ممن يحضر عند الناس ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه وسمع منه، وروى عنه وتردد إليه، ولم يكن في عمره كتب بيده مافيه أذى مسلم، وما حضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه وجبر قلبه، وأعطاه مايكفيه، فإن كان له كافل والآ كفله وأعطاه مايكفيه، وإنه مات ولم تجب عليه الزكاة.

الخامس: في حسن عقيدته.

كان متوكلاً على الله في كل أمره ولا يلتفت إلى قول منجم، وكان حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري، وعلمها أولاده الصغار لترسخ في أذهانهم من الصغر، وكان يأخذها عليهم.

وقال ابن كثير: وكان القطب النيسابوري جمع هذه العقيدة لأجله، وكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده، وكان يحب سماع القرآن العظيم، ويواظب على سماع الحديث، حتى أنه سمع في بعض مصافه جزءاً وهو بين الصفيين، وكان يتبجح بذلك، ويقول: هذا موقف لم يسمع به أحداً حديثاً، وكان ذلك بإشارة العماد، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان قد لجأ إلى ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له السهروردي، وكان يعرف الكيمياء والسيمايا وشيئاً من الشعبة والأبواب النيرنجيات، فافتتن به ولده وقربه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، وبلغ ذلك أباه

السلطان، فكتب إليه أن يقتله لاحالة، فصلبه ولده عن أمر والده كما ذكرنا في سنة سبع وثمانين وخمسة.

ومن شدة محبته لسمع الحديث مضى إلى الاسكندرية وسمع من الحافظ السلفي ومن ابن عوف الضياء، وكان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة.

وقال ابن كثير: وكان رحمه الله قرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي (٣٠).

السادس: في حلمه وأخلاقه الحسنة.

وكان حليماً كثيراً يعفو عن أصحاب الذنوب، حسن الخلق صبوراً على مايكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم مايكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسر موزة فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها.

وقال القاضي شهاب الدين: نفرت بغلتي يوماً من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أفلقتة من الوجد، وهو يتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين شيئاً سوى صرفهم.

وقال القاضي بهاء الدين: كنت يوماً عند مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل رجل حسن الهيئة ومعه مكتوب حكمي وقال لي: يا أيها القاضي خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، فقال له القاضي: بأي سبب؟ قال: إن سنقر الخلاطي مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، فاستولى عليها السلطان، وأخرج

الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحدهما إلى
الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قال ابن خلكان رحمه الله: ولقد دخلت إلى هذه القبة من الباب
الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترحمت عليه، وأحضرني قيم القبة
ومتولي أمرها بقجة فيها ملبوس بدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير
ورأس كمي به بأسود فتبركت به.

قال ابن القادسي: ودفن معه سيفه، وقال القاضي الفاضل: هذا
يتوكل عليه في الجنة.

وقال السبط في المرأة: هذا وهم من ابن القادسي لأن سيفه بعث به
ولده الأفضل إلى بغداد.

وقال ابن كثير: ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت
داراً لرجل صالح، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين
وخمسمائة بعدما أدخله الجامع وصلى عليه صلاة ثانية، وأنفقت ست
الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

الثالث عشر: في مدة سلطته، ومدة عمره، وكان عمره قريباً من
سبع وخمسين سنة، وقد ذكرنا أن مولده كان في سنة اثنتين وثلاثين
وخمسمائة.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً،
وكانت مدة مملكته للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وللشام
قريباً من تسع عشرة سنة، قاله ابن كثير.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت مملكته اثنتين وعشرين سنة وسبعة

المكتوب فتفحصته فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي، وأنه اشتراه من فلان التاجر في الوقت الفلاني، ولم يزل على ملكه إلى أن شذ عنه في سنة كذا. قلت له: فما أخرجك إلى هذا الوقت؟ فقال: الحقوق لا تبطل بالتأخير، قال القاضي: فأعلمت السلطان فأحضره، واستوى معه في المجلس حتى ساواه، وادعى الرجل وأظهر كتابه، فقال السلطان: عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان ملكي بمصر وأنا اشتريته مع ثمانية أنفس، ولم يزل في ملكي حتى أعتقته، ثم أحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء فشهدوا بذلك، فانكسر الرجل، فقلت للسلطان: يامولانا ما فعل هذا إلا ليطلب صدقة السلطان فما يحسن أن يرجع خائب الأمل، فقال: هذا باب آخر، وأمر له بخلعة ونفقة جيدة وبغلة.

قال: وكان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ومعه قصص، فقدم له قصة، وكان السلطان قد مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح فداستها سنقر الخلاطي، ولم يعلم، وقال له: علم عليها فلم يجبه، فكرر عليه القول، فقال له: ياطواشي أعلم بيدي أو برجلي؟ فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم، ثم قال السلطان: هات القصة فعلم عليها، وما زال السلطان على هذه الأحوال دوماً حتى توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته ورضوانه.

وقدم إليه مملوك له قصة، فقال: أنا الساعة ضجر، فأخرها ساعة، فلم يؤخرها وقدمها إلى وجهه، فلما قرأ اسم صاحبها قال: أي والله رجل مستحق، قال: فوقع له، قال: ما ثم دواة، ثم نظر فإذا الدواة بعيدة عنه، فامتد على يده اليسرى حتى أخذ الدواة ووقع له.

وقال القاضي: ولقد واجهه الجناح على يافا بالكلام القبيح فما قال له كلمة، واستدعاه فأيقن بالهلاك وارتقب الناس أن يضرب رقبتة، فأطعمه فأكهة جاءته من دمشق، وسقاه ماء وثلجاً.

السابع: في شجاعته.

وكان رحمه الله أشجع الناس وأقواهم بدنأً وقلباً مع ما كان يعتري جسمه من الأمراض والأسقام و لاسيما وهو مرابط مصابر مثاغر عند عكا، فإنهم كانوا كلما كثرت جموعهم وتراكت أمدادهم لايزيده ذلك إلا قوة وشهامة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألف مقاتل، وكان جملة من قتل منهم مائة ألف مقاتل، وكان يوم المصاف يدور على الأطلاب، ويقول: وهل أنا إلا واحد منكم، وكان في الشتاء يعطي العساكر دستوراً وهونازل على مرج عكا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير.

وفي المرأة: وكان شجاعاً شهماً جواداً مجاهداً في سبيل الله، وأقام على عكا مجاهداً مرابطاً قريباً من أربع سنين.

الثامن: في كرمه وجوده.

وفي المرأة: كان يجود بالمال قبل الوصول إليه. ويحبل به، ومتى عرف وصول حمل وقع عليه بأضعافه وماخيب أحداً بالرد، وإن لم يكن عنده شيء لطف به كأنه غريم يستمهله، وكان مغرمًا بالانفاق في سبيل الله، ووهب مدة مقامه على عكا مرابطاً للفرنج، من رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة إلى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة مدة ثلاث سنين وكسر، فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العرب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في الجهاد والقادمين عليه من البلاد غير ما أطلقه من الأموال في أثمان الخيل المصابة في القتال.

قال العماد: ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب، ولاجاءه قود إلا وهو مطلوب، ولارد سائلاً بلا، ولاأخجل مائلاً، ولاخيب آملاً.

قال: وشكا إليه أيوب بن كنعان ديناً مبلغه اثنا عشر ألف دينار فقضاه عنه.

قال: وكتب إليه سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن بعض الضمّان انكسر عليه مال كثير، وربما وصل إلى الباب وتمحل، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب وتمحل وبلغ السلطان، فأرسل إليه يقول: احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ.

قال: وفتح آه مد ووهبها لابن قرا أرسلان، واجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال، وفرق ثمنها فيهم، وأنه رحمه الله لم يخلف في خزانته إلا سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً صورياً، ولم يخلف عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا شيئاً من الأملاك، وحوسب صاحب ديوانه فخرج عليه تسعون ألف دينار باقراره، ومأطلبها ولاأراه أنه عرفها، ولم يرض له بعد هذا بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

وكان إذا فتح بلداً أو أخذ اقليماً وهبه لبعض أقاربه وأمرائه وأتباعه.

التاسع: في معروفه.

قال ابن خلكان: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة كان مذهبها الامامية، فلم يكونوا بهذه الأشياء، فعمر بالقرافة الصغيرة المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي رحمه الله، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه، وجعل عليه وقفاً كثيراً طائلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعاقل بن السار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار جعلها وقفاً على الشافعية، ووقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل

القصر مارستاناً وله وقف جيد، وله بالقدس أيضاً مدرسة وقفها كثير،
وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية.

وقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا
والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة
وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوب إليه في
الظاهر، فإن المدرسة التي في القرافة ما يسميها الناس إلاً للشافعي رحمه
الله، والمجاورة للمشهد لا يقولون إلاً للمشهد، والخانقاه التي بالقاهرة
لا يقولون إلاً خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة التي للحنفية لا يقولون إلا
مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلاً مدرسة زين التجار، والتي
بمصر أيضاً مدرسة المالكية، وهذه صدقة السرعة على مذهب الحنفية،
والعجب أنه له بدمشق في جوار المارستان النوري مدرسة يقال لها
الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة أيضاً
للمالكية ولا تعرف به، وهذه النعم من ألطف الله تعالى.

العاشر: في فتوحاته وهي على أنواع:

الأول: في البلاد الإسلامية وهي: الديار المصرية والحجاز ومكة
والمدينة واليمن من زبيد إلى حضرموت متصلاً بالهند، ودمشق وبلبك،
وحمص، وحماه، وحلب، وأعمال هذه البلاد.

الثاني: في البلاد الإسلامية الفراتية وهي: حران، والرها، الرقة، ورأس
العين، وسنجار ونصيبين، وجميلين، وسروج، وديار بكر، وميافارقين، وأمد
وحصونها، وشهرزور، والبوازيج، وخطب له على المنابر من باب همذان إلى
الفرات، ومن الفرات إلى حضرموت، ومن الغرب إلى إفريقية.

وفي المرأة: أول ما فتح الديار المصرية.

الثالث: في البلاد التي أخذها من الأفرنج وغيرهم وهي: طبرية، وعكا، أما طبرية فهي على نهر الأردن فتحها بالسيف وأما عكا فهي مدينة على البحر الملح فتحها بالصلح والزيب ومعليا (٣١)، واسكندرونة بين صور وعكا، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وحصن يحمور بالأمان، وتبين بجبل عاملة بالتسليم، وهونين غربي بانياس بالأمان، والناصرية التي ينسب إليها النصاري، والغور قبلي صفورية بالتسليم، والصفورية غربي طبرية بالسيف والفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وجنين قبلي عفر بلا بالتسليم، وزرعين ودبورية متاخمة صفورية بالسيف، وعفر بلا قبلي الطور بالتسليم، ويسان والغور، وسبسطية من عمل نابلس بالتسليم، ونابلس مدينة مشهورة، واللجون وريحا وسنجل والبيرة بأرض القدس، ويافا بالسيف، وأرسوف بالأمان، وقيسارية بالسيف وحيفا وصرفند بأرض بيروت، وصيدا على البحر، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وجبل الجليل، وبيروت على البحر وجبيل، ومجدل يابا بأرض الرملة، ومجدل جاب، والداروم، وغزة وعسقلان بالأمان، وتل الصافية، والبرج الأحمر بساحل عكا بالسيف، وحصن النظرون غربي القدس بالأمان، وبيت جبريل بأرض الخليل بالتسليم، وجبل الخليل بالأمان، وبيت لحم مولد المسيح عليه السلام، واللد بأرض الرملة بالسيف، والرملة بالسيف، وقلعة السلع والوفيرة وقلعة الجمع وقلعة الطفيلة، وقلعة القرين. جميع ذلك في وادي موسى عليه السلام، وقلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف، وقلعة الشوبك بالأمان، وقلعة صفد بعد حصار مدة، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وحصن عفرى شمالي القدس بالأمان، وحصن العازرية شرقي القدس بالتسليم، وحصن قرية يابا بأرض قلنسوة شمالي لد بغير قتال، وحصن قاقون بغير قتال، وحصن قيمون شرقي حيفا بالسيف، وحصن يبنى قريب الرملة بالأمان، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وقلعة الفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وشقيف بالأمان وحصن جلدك، وحصن بلياس بين جبلة والمرقب، وحصن صهيون وريفة بالسيف، وقلعة

بلاطنس من عمل صهيون، وحصن الجماهرية شمالي صهيون، وقلعة عيد غربي جبل البرزين، وقلعة بكاس وقلعة الشجر من أنطاكية وبكسرايل، وقلعة المروانية، وقلعة البززين ودريساك وبغراس، وحصن الدامور وأنطرسوس، وجبل، واللاذقية بالسيف، وقلعة برزية والبيت المقدس، وغير ذلك من القرى والمعاقل التي لم تذكر.

وفي المرأة: ويقال إنه فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين: مصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديارهم، ولوعاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً، وإن كان مبدأ فتوحاته بمصر بهمة نور الدين وأمواله وعساكره ورجاله، وبينهما مقاربة في السيرة والعدل والأيام، واجتناب الآثام، وكلاهما لم يبلغ ستين سنة، والله أعلم.

الحادي عشر: في مرضه.

استهلت هذه السنة، وهو في غاية الصحة والسلامة، وخرج هو وأخوه الملك العادل أبو بكر إلى الصيد في شرقي دمشق، ولقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنج هذه المدة يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أخاه العادل إلى خلاط، فإذا فرغاً من شأنهما سارا جميعاً إلى أذربيجان وبلاد العجم.

ولما قدم الحجيج من الحجاز الشريف يوم الاثنين حادي عشر صفر خرج لتلقيهم، وقدم معهم ولد أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن فأكرمه واحترمه، وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الحديد، فكان ذلك آخر ماركب في هذه الدنيا، وذلك أنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت السادس عشر من صفر، فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل، فأخذ يشكو إليهم قلقه البارحة، وأطال الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايد به المرض واستمر، وفصده الأطباء في اليوم

الرابع فاعتراه ييس، وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، فقوي الييس أيضاً، فأحضر الأمراء والأكابر والرؤساء، فبويع لولده الأفضل نور الدين علي نائباً على ملك دمشق، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضل وابن شداد، وقاضي البلد ابن الزكي، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جدّ جديد بالأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات، فقرأ: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) (الحشر ٢٢) فقال: هو كذلك صحيح، فلما أذن للصبح جاء القاضي الفاضل يدخل عليه وهو بآخر رمق، فلما قرأ القارئ: (لا إله إلا هو عليه توكلت) (التوبة ١٢٩) تبسم وتهلل وجهه إلى رحمة الله تعالى.

وقال العماد: وجلس السلطان ليلة السبت السادس من صفر في مجلس عادته ومحل سعادته ونحن عنده في أتم انبساط، وأتم نشاط، حتى مضى من الليل ثلثه، وهو يحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا إمامه، وحال قيامه انفصلنا بإحسانه مغتطين وبإنسانه مرتبطين، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان نتظر خروجه لوضع الخوان، فخرج بعض الخدم، وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام، فجاء وتربع في دسسته، وجلس بسيمته وسمته، وتطينا بتلك الحال، وتقللنا بحد ذلك الفال، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وتوفي إلى رحمة الله تعالى.

وقال النويري: خرج السلطان إلى شرقي دمشق متصيداً، فغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق، وودعه أخوه العادل وداعاً لالقاء بعده، ومضى إلى الكرك، وأقام السلطان بدمشق، ثم ركب يوم الجمعة الخامس عشر صفر، ولقي الحجاج وبكى كيف فاته الحج معهم، ثم عاد إلى القلعة فلحقه تلك الليلة كسل عظيم وغشيته

حمى وأخذ المرض في التزايد، ثم حدث به رعشة وغاب ذهنه، واشتد
الارجاف بموته، وحزن أهل دمشق حزناً عظيماً لذلك.

وقال القاضي بهاء الدين: لما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني
فحضرت عنده، فسألني عن في الايوان، فقلت: الملك الأفضل جالس
في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال
الدولة إقبال.

ولما كان بكرة يوم الخميس استحضرتني فحضرت عنده وهو في صفة
البستان وعنده أولاده الصغار وقال لي: أكلت شيئاً اليوم؟ وكانت عادته
المباشطة، ثم قال: أحضروا لنا مايتيسر، فأحضروا رزاً بلبن ومايشبه ذلك،
فأكل وماكنت أظن أن عنده شهوة لأن بدنه كان ملتأناً ممتكاً فلما فرغنا
قال: ماالذي عندك من خبر الحاج؟ فقلت: قد اجتمعت بجماعة منهم
في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون
فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم فقممت من عنده ولم أجد من النشاط
مأعرفه منه، ثم بكر يوم الجمعة فركب للقاء الحاج، وكان فيهم سابق
الدين الياروقي، وكان كبير الاحترام للمشايخ، ثم لحقه ولده الملك
الأفضل، ثم رجع إلى القلعة وكان آخر ركوبه.

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف الليل حتى
غشيته حمى صفراوية، وأصبح في يوم السبت السادس عشر من صفر
وعليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس، فدخلت أنا والقاضي الفاضل
وولده الأفضل عنده، وطال الحديث بيننا، وأخذ يشكو من قلقه بالليل،
وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، ومد
الطعام في الايوان وجلس الأفضل في موضعه خالياً وولده فيه، ثم أخذ
مرضه يتزايد ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل أنا والقاضي
الفاضل في النهار مراراً، وكان طبيبه الذي ألف مزاجه غائباً، وحضرت

الأطباء ففصدوه فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، ولم يزل الممرض يتزايد، فاشتد في السادس والسابع والثامن، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الرجيف في البلد وخاف الناس، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشي الناس من الكآبة والحزن مالا يوصف، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً، وأقمنا على العادة نتردد، ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا الباب، وسألنا عن حاله، فأخبر جمال الدولة اقبال أنه عرق حتى نفذ عرقه إلى الفراش، ثم إلى الحصر ثم إلى الأرض، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وضعفت قوته، ولما رأى ولده الأفضل ماحل به وتحقق اليأس منه شرع في تخليف الناس، فجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة فعملوا نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، ثم للأفضل بعد وفاته، فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود الشحنة أخو بدر الدين مودود، ثم ناصر الدين صاحب صهيون فحلف وزاد أن الحصن الذي في يده له، ثم سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق، واعتذر بأنه ما حلف به، ثم خشتين الهكاري، ثم أنوشروان الزرذاري فحلف واشترط أن يكون له خبز يرضيه، ثم حلف علكان ومنكلان، ثم مد الخوان فأمنوا.

ولما كان العصر أعيد مجلس التخليف فأحضر ميمون القصري، وشمس الدين سنقر الكبير، وقالوا: نحن نحلف بشرط أن لانسل سيفاً في وجه أحد من أخوتك، وحضر سامة وقال: ليس لي خبز فعلى أي شيء أحلف، فزوج فحلف بشرط أن يعطى خبزاً يرضيه، وحضر سنقر المشطوب وأبيك الفارس وأبيك الأفتس ولم يحلف بالطلاق، وحضر سياروخ وحلف واشترط رضاه، وحضر حسام الدين بشارة وحلف،

وكان مقدماً على هؤلاء، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين،
ونسخة اليمين:

« إنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتي، وأخلصت طويتي للملك
الناصر مدة حياته، وإني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته
بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممثلاً أمره، واقفاً عند مرضيه، ثم من
بعده لولده الملك الأفضل علي، ووالله انني في طاعته، وأذب عن
دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي وأمثّل أمره ونهيه، وباطني
وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل. »

ثم لما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة
الثاني عشر من مرضه، اشتد مرضه وحال بيننا وبينه النساء،
واستحضرت أنا والقاضي الفاضل وابن الزكي في تلك الليلة، وعرض
علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك، وقال:
المصلحة نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة، فإنه رجل
صالح يبيت بالقلعة حتى إذا استحضر السلطان بالليل يحضر عنده
ويحول بينه وبين النساء، ويذكره بالشهادة، ففعلوا ذلك، وكان ذهن
السلطان غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في الأحيان، وبات في
تلك الليلة على الانتقال والشيخ أبو جعفر عنده يقرأ القرآن ويذكره
بالله إلى أن توفي رحمه الله.

الثاني عشر: في تاريخ وفاته.

قال القاضي بهاء الدين: كانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم
الأربعاء السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي تاريخ بيارس: وقيل توفي في الخامس والعشرين من صفر.

وفي المرأة وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد صلاة الفجر السابع والعشرين من صفر.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت وفاته بكرة يوم الأربعاء لثلاث بقي من صفر، وكلام الكل قريب بعضه من بعض.

وفي المرأة: وغسله الخطيب الدولعي وصلى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي، وبعث له القاضي الفاضل الأكفان والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه في قلعة دمشق.

وقال ابن خلكان: كان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمين مثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغسله الدولعي، وهو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين بن قائد بن جميل التغلبي الأرقمي الدولعي الشافعي، خطيب جامع دمشق، توفي في ثاني عشر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: ثم أخرج تابوت السلطان بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فقط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج، وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ثم إنه بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي

وأربعين يوماً، أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الأربعاء تنمة خمسمائة
وثمانين سنة وسبعة وخمسين يوماً للهجرة ، ولتمام ستة آلاف سنة
وستمائة وأربعة وثمانين سنة وستة أشهر وسبعة أيام للعالم شمسية.

الرابع عشر: فيما جرى يوم وفاته.

قال ابن كثير: وجلس الملك الأفضل للعزاء في القلعة وأرسل
الكتب ب وفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر، وإلى الملك
الظاهر غازي بحلب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، وقد ذكرنا أنه
كان سافر إلى الكرك قبل موت أخيه السلطان لينظر في أمرها.

قال المؤيد في تاريخه: ولما نقل الأفضل والده السلطان من القلعة
حين بنى له تربة مشى بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار
الحديث إلى باب البريد، وأدخل الجامع ووضع قدام النسر، وصلى
عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه
للعزاء ثلاثة أيام في الجامع، وأنفقت ست الشام في هذه النوبة أموالاً
عظيمة.

وفي المرأة : وكتب الفاضل إلى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية
يقول فيه: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » الآية: (الأحزاب
٢١) .

كتبت إلى الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه في مصابه، وجعل
الخلف فيه لمماليك المرحوم وأصحابه، كتبت والدموع قد حفرت
النواظر، والقلوب قد بلغت الحناجر، وإني ودعت أباك مخدومي وداعاً
لأنلتي بعده، وأسلمته إلى الله طالباً فضله ورفعده، ولم يدفع عنه
جنوده المجندة القضاء ، ولأردت عنه الأسلحة والخزائن البلاء، فالعين

تدمع والنقلب يخشع، ولا نقول ما يسخط الرب - وإنا عليك يا يوسف لمحزونون».

وفي آخر الكتاب: « فإن اتفقتما فما عدتم إلا شخصه الكريم، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبلية هولها عظيم».

قال السبط في المرأة: وقد فات الفاضل شيئان: أحدهما عند قوله: ودعته وداعاً لانتقي بعده، وكان الأولى أن يقول: إلى جنات النعيم، والثاني: عند قوله: وهولها عظيم، وكان ينبغي أن يقول: (ذلك تقدير العزيز العليم) (يس : ٣٨).

وفي المرأة: وكان أخوه العادل لما توفي السلطان بالكرك، فقدم دمشق معزياً للأفضل، فأقام أياماً، ثم رحل إلى الجزيرة التي أعطاها إياه السلطان، وهي: حران، والرها، وسميساط، والرقعة، وقلعة جعبر، وميفارقين، وديار بكر، وكان له بالشام: الكرك، والشوبك.

وبعث الأفضل القاضي ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى الخليفة ومعه زردية السلطان، وسيفه، وحصانه، وكزاغنده، ودبوسه، وتحفاً كثيرة، وعاب الناس عليه حيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد، وكتب كتاباً فمناه: « أصدر العبد خدمته هذه، وصدره معمور عليه بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء»، وذكر كلاماً طويلاً.

وأما العادل فإن المشاركة ثاروا عليه، واستشاروا عز الدين صاحب الموصل، واستشار هو أصحابه، فأشار عليه المجدي ابن الأثير بالخروج، وأشار عليه مجاهد الدين قيمانز بالمقام لتظهر حقائق الأمور، وتراسل جيرانه: ابن زين الدين صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب الجزيرة وعماد الدين صاحب سنجار، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعاً على حران، واستنجد العادل بأولاد أخيه فجاءته عساكر الشام

ومصر، ومرض عز الدين على نصيبين بالاسهال ، وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع إلى الموصل جريده، فمات بها على ما ذكره عن قريب إن شاء الله تعالى.

ثم إن الملك العزيز قدم إلى الشام، وقدمت معه العساكر على الأفضل، وبعث إليه العادل: ارحل إلى مرج الصفر، فرحل وهو مريض، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد، لتصل العساكر، فوصل الظاهر من حلب، والمنصور من حماة، وشيركوه من حمص، والأمجد من بعلبك في نجدة الأفضل، فقال العادل: قد تقرر أنه يرجع إلى مصر، ويقع الاتفاق وتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

واشتد مرض العزيز، ولولا مرضه لما صالح، فأرسل العزيز كبراء دولته: فخر الدين شركس وغيره فحلف الملوك، وطلب مصاهرة العادل فزوجه ابنته خاتون، ورجع كل واحد إلى بلده، وذلك في شعبان، وتمام هذه في السنة التالية انشاء الله تعالى.

قال العماد الكاتب: ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب، واحتجب عن الرعية ، وانقطع إلى لذاته، وفوض الأمر إلى وزيره الجزري، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سببا لزوال دولته، واستبدلا بكبراء الأمراء الأجناد وأرذال الناس، ففسدت أمور العباد.

٦

الخامس عشر: فيمن خلفه من الأولاد.

قال العماد الكاتب: خلف السلطان سبعة عشر وليداً ذكراً، وابنة صغيرة.

الأول: الملك الأفضل نور الدين علي، وهو أكبرهم، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ليلة عيد الفطر.

الثاني: الملك العزيز عماد الدين عثمان، أبو الفتح، ولد بمصر أيضاً، في جمادى الأولى سنة سبع وستين.

الثالث: الملك الظافر أبو العباس مظفر الدين خضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل.

قال ابن خلكان وكنيته أبو الكرام وأبو العباس الخضر، ويقال المشمر لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال: أنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده في القاهرة في خامس شعبان سنة ثمان وستين وخمسمائة، وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف بن الملك العادل.

الرابع: الملك الظاهر أبو منصور غياث الدين غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين.

الخامس: الملك المعز فتح الدين أبو يعقوب اسحق، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة

السادس: الملك المؤيد نجم الدين أبو الفتح مسعود: ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين، وهو شقيق العزيز.

السابع: الملك الأعز شرف الدين أبو يوسف يعقوب، ولد بمصر سنة اثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً.

الثامن: الملك الزاهر محيي الدين أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الظاهر.

التاسع : الملك المفضل قطب الدين موسى، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الأفضل.

العاشر: الملك الأشرف أبو عبد الله عز الدين محمد، ولد بالشام سنة خمس وسبعين.

الحادي عشر : الملك المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الأشرف المذكور.

الثاني عشر: الملك المعظم فخر الدين أبو منصور توران شاه، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمئة، وهي السنة التي أخرج فيها العدو من التتار مدينة حلب وغيرها.

الثالث عشر: الملك الجواد ركن الدين أبو سعيد أيوب، ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق المعز .

الرابع عشر: الملك الغالب نصير الدين أبو الفتح ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعظم .

الخامس عشر: الملك المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه ، ولد ببحران بعد وفاة السلطان.

- ١١٤٦٧ -

السادس عشر: عماد الدين شادي لأم ولد.

السابع عشر: نصرة الدين مروان لأم ولد أيضاً.

وأما البنت مؤنسة خاتون ، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد
ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته، كالملك المنصور
حسن، والأمير أحمد، وهو الذي رثاه العرقة بقوله:

أي هـ لال كسفا

وأي غصن قصفا
كان سراجاً قد طفا

على السورى ثم انطفى
لم يركب الخيل ولم

يقلدوه مرهفا
قل للنحاة: ويحكم

أحمدكم قد صرفا
صبراً صلاح الدين يا

رب السماح والوفى (٣٢)

السادس عشر : فيما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان.

ولما توفي السلطان رحمه الله استقر في الملك بدمشق وبلادها
المنسوبة إليها: ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية:
الملك العزيز عثمان، وبحلب وبلادها: الملك الظاهر غازي،
وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية والفراتية : الملك العادل سيف
الدين أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان، وبحماه وسلمية والمعرة ومنبج
وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر
تقي الدين عمر، وبيعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن

فرخشاه بن شاهناه بن أيوب ، وبحمص والرحبة وتدمر: شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي، وييد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى، وهو في خدمة اخيه الملك الأفضل ، وييد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون :منهم سابق الدين عثمان بن الداية ، بيده شيزر وأبوقبيس، وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية، وبدر الدين دلدرد بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر، وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون ، وعزالدين ابراهيم ابن شمس الدين ابن المقدم بيده بعيرين وكفر طاب وأفامية.

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان . والعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الاثير، مصنف المثل السائر ، وهو أخو عز الدين ابن الاثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل ، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في أخيه الأفضل ، فمال إلى ذلك ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز ، وكان اليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، أخي السلطان صلاح الدين ، ثم بعد ذلك شرعت الأمور تضطرب وتختلف ، وتفاقت الأحوال حتى آل الأمر إلى ما إليه آل ، واستقرت الممالك واجتمعت المحافل على أخي السلطان صلاح الدين ، وهو الملك العادل ، وصارت الممالك في أولاده الا ماجد الأفاضل كما سنوضحه ان شاء الله تعالى.

السابع عشر : في مراثي السلطان صلاح الدين .

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة ، من أحسنها ما عمل فيه
العماد الكاتب في آخر كتاب البرق الشامي ، وهي مائتان وثلاثون بيتاً
وقد سردها الشيخ شهاب الدين في الروضتين...

الثامن عشر : في مدائحه

وقد مدحه جماعة من الشعراء منهم : ابن قلاقس ، وابن الذروي ،
وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الشاتاني ، والبحراني الإربلي ،
وابن دهن الخصا الموصلي ، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان
وغيرهم ، ومدحه العماد الكاتب في غالب أحواله من غزواته وفتوحاته
وغير ذلك ، ومدحه في فتح القدس بقصيدة هائية ذكرناها في
موضعها ومدحه القاضي رشيد الدين بن النابلسي بقصيدة انشده اياها
بمرج عكا....

التاسع عشر : في قضاته ووزرائه وكتابه .

وأما قضاته: كمال الدين بن الشهرزوري ، وشرف الدين بن أبي
عصرون ، وولده أبو حامد ، ومحيي الدين بن زين الدين ، وهؤلاء
كانوا في الشام وحلب ، وأما قضائه في مصر ، فكان القاضي جلال
الدين أبو قاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصوري
وكان قدم من الشرق ، فولاه السلطان صلاح الدين ، وكان عنده
بمكانة، وصرف بعد وفاة صلاح الدين ، وولي مكانه القاضي زين
الدين علي بن سعيد الدمشقي في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من
ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة.

وأما وزيره فكان صفى الدين بن القابض.

وأما كاتبه فكان القاضي الفاضل ، العماد الكاتب ، وكان الفاضل

حاكماً على الجميع وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لا يصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولا يمضي في الأمور بمر إلا بمراجعته

قال ابن خلكان : كان القاضي الفاضل تعلق بالخدم في ثغر الاسكندرية ، واقام به مدة ، ثم آل أمره إلى أن وزر للسلطان صلاح الدين ، وترقى في منزلته عنده على ما ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى.

العشرون : في ذكر من كان في البلاد ولاية الأمور في سنة وفاته

كان في دمشق الملك الأفضل ، وكان في حلب الملك الظاهر ، وكان في مصر الملك العزيز ، كل هؤلاء أولاد السلطان صلاح الدين رحمه الله ، وكان في القدس عز الدين جرديك النوري ، ولما بلغ العزيز وفاة والده صلاح الدين أرسل عشرة آلاف دينار إلى القدس الشريف لتنفق في العسكر المقيم به ، فخطب له عز الدين جرديك بالقدس ، وخشي من نقض الهدنة بينه وبين الأفرنج فأرسل إلى القدس عسكرياً احترازاً من الأفرنج ، وكان في الروم ركن الدين سليمان ابن عز الدين قليج رسلان السلجوقي ، وكان في الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر ، وكان في أخلط وماوالها بكتمر ، وكان في مرو وغيرها سلطان شاه ، وكان في همذان وغيرها السلطان طغرل شاه السلجوقي ، وكان في غزنة وماوالها شهاب الدين الغوري ، وكان في بلاد سمرقند وغيرها خوارزم شاه ، وكان في اليمن سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، وكان في مكة الأمير داود ، وكان في بلاد المغرب يعقوب بن عبد المؤمن رحمه الله ، وهذا آخر ما انتهينا من ترجمة السلطان صلاح الدين رحمه الله.

الحواشي

- ١- الحديث هنا عن سقوط طرابلس الغرب لاطرابلس الشام التي احتلها الفرنجة سنة ٥٠٢ هـ/
- ٢- سلف الحديث في الجزء الاول من المدخل حول قيام الاسرة المتقضية ، وأنهم ملكوا شيزر في أواخر عصر المرداسيين.
- ٣- ابو الفداء صاحب حماء ومصنف كتاب المختصر في أخبار البشر ويبدو أنه قد فاته أن بلدة شيزر سقطت مع انطاكية وجزء كبير من ساحل الشام للبيزنطيين منذ أيام سيف الدولة الحمداني .
- ٤ يبدو أن مصدر العمري هنا كتاب المفيد في أخبار صنعاء وزبيد للشاعر عمارة اليمني ، انظر ص ٢٢٩ - ٢٣٧ ط. اليمن ١٩٧٩ .
- ٥- الشاذياخ مدينة نيسابور نفسها . معجم البلدان، ولمزيد من التفاصيل حول حوادث نيسابور انظر الكامل لابن الاثير ط. القاهرة- مطبعة الاستقامة ج ٩ ص ٥٩ - ٦٠ .
- ٦- كذا ولا أدري من أين جاء بالنسب الصنهاجي الى أئمة الاسماعيلية في الموت؟
- ٧- سورة البقرة - الآية : ٢١٦ .
- ٨- سورة النساء - الآية : ١٢
- ٩- ديوان العرقله ص ٥٢
- ١٠- سورة الانعام - الآية : ٤٤ .
- ١١- الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ١٤٢
- ١٢- الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ١٩٢ - ١٩٥
- ١٣- الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢١٨
- ١٤- في المصادر الأخرى المتقدمة: سمى نفسه السلطان الناصر
- ١٥- مصدر العمري هنا الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣١
- ١٦- نسبت هذه الجماعة الى محمد بن كرام السجزي [ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م] وكان يقول إن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهرا الاعلام للزركلي.
- ١٧ سورة آل عمران - الآية : ٥٣
- ١٨- الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٤٩ .
- ١٩- سورة الحجرات - الآية : ٢٠
- ٢٠- سورة الفرقان - الآية : ٦٣
- ٢١- سورة البقرة الآية : ٢٧٥
- ٢٢- أي قليل الماء.
- ٢٣- هذا وهم فالفرنجة لم يستطيعوا قط قهر مدينة حلب .
- ٢٤- سورة الزلزلة - الآتيان : ٧- ٨
- ٢٥- سورة يوسف - الآية : ٢٣٩٢ - سورة التوبة - الآية : ١١١
- ٢٣- ديوان عرقله الكلبى ص ٨٧
- ٢٤- عفيف بن المبارك بن الحسين - انظر مرآة الزمان ج ١ ص ٢٣٥
- ٢٥- سورة الرعد - الآية : ١١
- ٢٦- سورة البقرة - الآية : ٢١٦
- ٢٧- سورة النساء - الآية : ١٢

- ١١٤٧٢ -

- ٢٨- سورة النحل - الآية : ٩١
- ٢٩- سورة القصص - الآية : ٨٣
- ٣٠- سورة يوسف - الآية : ٧٧
- ٣١- زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين.
- ٣٢- البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٣
- ٣٣- انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٢
- ٣٤- زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين
- ٣٥- زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين
- ٣٦- سورة التوبة - الآية : ٣٢
- ٣٧- هما الآن: ازرع والشيخ مسكين ، في حوران سورية ، الشيخ مسكين على الطريق الدولي من دمشق الى درعا، وازرع الى الشرق منها على مسافة قصيرة.
- ٢٨٠- سورة المدثر - - الأينان : ٥٠ - ٥١
- ٢٩- سورة التوبة - الآية : ٣٢

- ١١٤٧٣ -

المحتوى

توطئة	٣-
سنة ٤٩١ - ابتداء ظهور الفرنج	٦-
مكاتبة الفرنج الى المسلمين	٨-
توجه الفرنج الى معرة النعمان	٩-
توجه الفرنج الى القدس	١٠-
ما فعله الفرنج في القدس	١١-
سنة ٤٩٢	١٤-
سنة ٤٩٧	١٥-
وفيات سنة ٤٩٧ (دقاق بن تنش)	١٧-
سنة ٤٩٨	١٩-
سنة ٤٩٩	٢٣-
سنة ٥٠٢	٢٥-
سنة ٥٠٢	٣١-
وفيات سنة ٥٠٢	٣٣-
سنة ٥٠٤	٣٤-
وفيات سنة ٥٠٤	٤٠-
سنة ٥٠٥	٤٢-
سنة ٥٠٦	٤٥-
سنة ٥٠٧ وفاة رضوان بن تنش	٤٧-
ولاية الب أرسلان بن رضوان	٤٨-
مقتل مودود صاحب الموصل	٤٩-
سنة ٥٦٤ فتح مصر	٥٣-
مقتل شاور	٥٩-
وزارة شيركوه	٦٣-
ترجمة شيركوه	٧١-
وزارة صلاح الدين	٧٤-
مجيء نجم الدين أيوب الى مصر	٨٢-
ما جرى بين نور الدين وصلاح الدين	٨٣-
قتل المؤتمن الطواشي	٨٥-
وقعة السودانية	٨٧-
مما مدح به صلاح الدين	٨٩-
من أخبار شيركوه	٩٦-
وفيات سنة ٥٦٤	١٠٤-
سنة ٥٦٥	١٠٥-
الزلزلة الكبرى	١١١-
سنة ٥٦٦ ما جرى نور الدين	١١٤-
ما جريات صلاح الدين	١١٧-

- ١١٤٧٤ -

سنة ٥٦٧ - الخطبة للعباسيين	١١٩-
ماجريات نور الدين	١٢٨-
النفرة بين نور الدين وصلاح الدين	١٣٠-
سنة ٥٦٨ - ماجريات نور الدين	١٣٢-
ماجريات صلاح الدين	١٣٦-
وفيات سنة ٥٦٨ - نجم الدين أيوب	١٣٨-
سنة ٥٦٩ - ماجريات صلاح الدين	١٤٩-
ارسال صلاح الدين الهدايا الى نور الدين	١٥٤-
وقتل عمارة اليميني	١٥٦-
ماجريات نور الدين	١٥٨-
وفاة نور الدين - ترجمته	١٥٩-
سنة ٥٧٠ - تملك صلاح الدين لدمشق	١٨٧-
نوبة الكنز	١٨٩-
استخدام صلاح الدين للعماد الاصفهاني	٢٠٠-
سنة ٥٧١	٢٠١-
الحرب بين صلاح الدين وصاحب الموصل	٢٠٢-
بقية حوادث سنة ٥٧١	٢٠٩-
سنة ٥٧٢ - رحيل صلاح الدين عن حلب	٢١٠-
توجه صلاح الدين الى مصر	٢١١-
دخول صلاح الدين القاهرة وما قام به	٢١٢-
خروج صلاح الدين الى الاسكندرية	٢١٤-
مجيء الرسل الى صلاح الدين	٢١٤-
خروج صلاح الدين الى مرج فاقوس	٢١٥-
وفيات سنة ٥٧٢ قاضي القضاة الشهرزوري	٢١٦-
سنة ٥٧٢ غزو صلاح الدين الرملة	٢١٨-
حصر الفرنج حماه	٢٢٠-
توجه صلاح الدين الى الشام	٢٢١-
قبض الصالح اسماعيل على كمشتكين	٢٢١-
وفيات سنة ٥٧٢	٢٢٣-
عصيان ابن المقدم ببعلبك	٢٢٤-
غزو فرخشاه الفرنج	٢٢٥-
بناء الفرنج قلعة عند بيت الاحزان	٢٢٥-
سنة ٥٧٥	٢٢٦-
ذكر الامور المزعجة	٢٢٨-
سنة ٥٧٦ ماجريات صلاح الدين	٢٢٩-
وفيات سنة ٥٧٦ - غازي بن قطب الدين	٢٣٢-
المعظم تور انشاء	٢٣٥-
سنة ٥٧٧	٢٣٦-
وفاة الصالح اسماعيل	٢٣٦-
بقية ماجريات صلاح الدين	٢٣٩-
بقية الحوادث	٢٤٠-

_ ١١٤٧٥ _

سنة ٥٧٨	٢٤٢-
ماجريات صلاح الدين	٢٤٣-
بقية الحوادث - محاولة احتلال الحجاز	٢٤٧-
سنة ٥٧٩ فتوحات صلاح الدين	٢٤٩-
فتح عينتاب - فتح حلب	٢٥١-
فتح حارم	٢٥٤-
ما فعله صلاح الدين في دمشق	٢٥٥-
مسير صلاح الدين الى الكرك	٢٥٦-
بقية الحوادث	٢٥٧-
وفيات سنة ٥٧٩ - شاه أرمن، بوري ابن أيوب	٢٥٩-
سنة ٥٨٠ وفاة صاحب ماردين	٢٦٠-
غزو صلاح الدين الكرك	٢٦١-
سنة ٥٨١	٢٦٣-
وفيات سنة ٥٨١ محمد بن أسد الدين شيركوه - محمد بن قرا أرسلان	٢٦٨-
مسعود بن أنجراخته عصمة الدين	٢٦٩-
سنة ٥٨٢	٢٧١-
سنة ٥٨٣ حطين	٢٧٥-
فتح عكا	٢٨٤-
فتح مجدل يابا	٢٨٥-
فتح الناصرة - قيسارية - نابلس	٢٨٦-
فتح القولة وتبينين	٢٨٧-
فتح صيد أو بيروت	٢٨٨-
فتح عسقلان وغزة والداروم	٢٨٩-
فتح القدس	٢٩١-
ما فعله السلطان بعد فتح القدس	٢٩٤-
رحيل السلطان نحو صور	٢٩٧-
ما جرى بعد دخول السلطان دمشق	٢٩٩-
وفيات سنة ٥٨٣	٣٠١-
محمود أخي جاولي	٣٠١-
فتح انطربوس	٣٠٢-
فتح جبلة واللائقية	٣٠٣-
سنة ٥٨٤ - غزوات صلاح الدين	٣٠٥-
فتح صهيون	٣٠٦-
فتح بكاس	٣٠٧-
فتح الشغفر وسرمانية	٣٠٨-
فتح حصن برزية	٣٠٩-
فتح قلعة دربساك وبغراس	٣١٠-
مهادنة صاحب أنطاكية	٣١١-
رحيل السلطان نحو دمشق	٣١١-
فتح صفد وكوكب	٣١٢-
فتح الكرك	٣١٣-

- ١١٤٧٦ -

ما فعله صلاح الدين بعد هذه الفتوحات	٣١٤-
بقية الحوادث	٣١٥
وفيات سنة ٥٨٤ - أسامة بن منقذ	٣١٦-
سنة ٥٨٥	٣١٧-
حصار شقيف أرنون	٣١٧-
ما تجدد للسلطان في مرج عيون	٣١٩-
مسير السلطان الى عكا	٣٢١-
ركوب الفرنج الى عكا	٣٢٣-
الحرب لأجل فتح الطريق	٣٢٥-
الوقعة العظمى	٣٢٦-
وصول خبر ملك الالمان	٣٣٠-
ذكر بقية الحوادث	٣٣١-
وفيات سنة ٥٨٥ عيسى الهكاري	٣٣٢-
سنة ٥٨٦	٣٣٤-
وقعة الرملة	٣٣٤-
فتح شقيف أرنون	٣٣٥-
حال عكا	٣٣٥-
وصول الامراء	٣٣٧-
وصول الاسطول من مصر	٣٣٩-
قصة ملك الالمان	٣٤٠-
ما جرى بين الالمان وبين قليج أرسلان	٣٤٢-
هلاك ملك الالمان	٣٤٣-
اقامة ابن الملك مقامه	٣٤٤-
مسير العساكر الى أطراف البلاد	٣٤٦-
الوقعة العادلةية	٣٤٨-
وصول الكنديهري	٣٥٠-
وصول البطس من مصر	٣٥٢-
احتراق بطسة للفرنج	٣٥٣-
قصة عيسى العوام	٣٥٣-
اشتداد الحصار على عكا	٣٥٤-
بقية حوادث السنة	٣٥٦-
وفيات سنة ٥٨٦ - علي كوجك	٣٦٦
سنة ٥٨٧ - وقعات متعددة	٣٦٨-
وصول ملك الافرنسيس	٣٧٠-
وصول كند فرند	٣٧١-
وصول العساكر الاسلامية	٣٧٢-
زحف العدو الى عكا	٣٧٢-
قضية الرضيع	٣٧٣-
سقوط عكا	٣٧٤-
وصول ملك الانكتار	٣٧٥-
ما جرى على البطسة الاسلامية	٣٧٦-

- ١١٤٧٧ -

حريق الدبابة الكفرية	٣٧٦-
عدة وقعات	٣٧٧-
قدوم بقية عسكر المسلمين	٣٨٠-
خروج المشطوب اليهم	٣٨٣-
رحيل الفرنج صوب عسقلان	٣٨٧-
وقعة أرسوف	٣٩٢-
تخريب عسقلان	٣٩٦-
رحيل السلطان الى الرملة	٣٩٨-
مجيء صاحب ملطية	٣٩٩-
عودة السلطان الى المعسكر	٤٠٠-
سير الملك العادل الى القدس	٤٠١-
هروب شيركوه بن ماغل وبقيّة الاخبار	٤٠٢-
بقية حوادث هذه السنة	٤٠٨-
وفيات سنة ٥٨٧ - سليمان بن جندر - الصفي بن القابض	٤٠٩-
تقي الدين عمر	٤١٠-
رحيل الفرنج الى عسقلان	٤١٢-
السرايا الثلاث	٤١٢-
خروج المشطوب من الاسر	٤١٣-
عصيان المنصور صاحب حماه	٤١٤-
هلاك المركيس في صور	٤١٧-
استيلاء الفرنج على الداروم	٤١٨-
قصد الفرنج القدس	٤١٨-
كبس الفرنج قافلة مصر	٤٢٠-
تصميم الفرنج على حصار القدس	٤٢٢-
بروز السلطان الى خارج القدس	٤٢٥-
فتح السلطان يافا	٤٢٦-
صلح الرملة	٤٣٢-
توجه السلطان الى القدس	٤٣٣-
خروج السلطان نحو دمشق	٤٣٤-
وفيات سنة ٥٨٨	٤٤٠-
٥٨٩ - وفاة صلاح الدين	٤٤٣-
الحواشي	٤٧١-